
نزار يوسف
من وحي الواقع
مقالات من مدونتي
BLOG

نزار يوسف

من وحي الواقع

(مقالات من مدونتي)

طبعة الكترونية أولى ٢٠١١

المحتوى

هـــذا الكـــتاب

هذا الكتاب هو مجموعة من مقالات لي في مدونة إيلاف الالكترونية . و حقيقة الأمر أن همي في الكتابة و مجال اهتمامي كان بالدرجة الأولى نحو البحوث و لم يكون منصرفاً إلى المقالات أو المدونات الالكترونية التي هي ظاهرة حديثة العهد في مجال الكتابة و التعبير . فقد كنت و لا أزال ، أعتقد أن الكتاب المطبوع – و فيما بعد الالكتروني - هو خير وسيلة للباحث و المفكر في إيصال الأفكار التي يعتقد و يؤمن ، إلى المجتمع و الجمهور . فالكتاب أي كتاب ، بصفحاته التي تتجاوز عادة المائة أو أكثر ، هو أداة فعالة للعقل لكي يتشرب فكرة أو مجموعة أفكار يريد الكاتب أن يوصلها إلى القارئ ، هو ببساطة عقار واسع الطيف يتجرعه العقل و ذهنية القارئ و يتأثران به لمدة زمنية مطولة . و أحياناً يلعب الكتاب دور أساس في تحويل عقيدة القارئ المتلقي ، من موضع إلى موضع آخر ، و يكون بمثابة منعطفاً فكرياً . و يكون ذلك حسب مقدرة الكاتب الملقي . فالملقي العليم .. مصلحاً كان أم مفسداً .. حتماً له القدرة على ذلك .

المقالة أو المدونة ، المطبوعة أم الالكترونية ، بغض النظر عن أهميتها و قوة تأثيرها ، فإنها بالمرجح لا تلعب الدور الذي يلعبه الكتاب . هي حقنة أو أمبولة فكرية تعطى لحالة مؤقتة طارئة .. ربما تلعب دوراً و أثراً ما ، لكنها بحاجة لديمومة و استمرار في عقل القارئ ، و هذا لا يتأتى إلا بدعم لاحق على مستوى كتاب و مخطوط .

و الكتابة في المدونات الالكترونية كما ذكرت آنفاً ، لكم تكن بالي إلا فيما ندر جداً . إلى أن تلقيت ذات يوم رسالة من مجهول مفادها ما يلي : **دعوة للكتاب و المثقفين العرب للتحوطفاعا ـ عن حقوقهم في مواجهة عملية الإفقار المتعمد**

المخطط للمثقفين ليتحركوا قبل أن تختفي كلمة مثقف من القاموس العربي .. زوروا مدونة كتاب بلا حقوق في إيلاف (انتهى) .

لقد هزت هذه الرسالة كياني . و أحسست يومها أن هذا الشخص المجهول قد اختارني لأكون من ضمن هؤلاء ، و يريدني أن أنشأ مدونة و أكتب في هذا المجال ، فلبيت النداء و سجلت مدونتي في الموقع الذي جاءت منه الرسالة ، و نشرت فيها أول مقالة لي ، و كنت قد قررت أن أركز على الأمر الاجتماعي و الثقافي و الفكري أكثر من الأمر السياسي لأنه بنظري أكثر خطورة و أهمية . و قررت أن أكون بمستوى المسؤولية الذاتية أمام نفسي . و لذلك اعتمدت الجرأة و الصراحة و التغيير الجذري و التصدي لأمور و مفاهيم إما بالية فاسدة أو مستحدثة مشبوهة . و الحمد لله فقد لاقت أفكاري قبولاً كبيراً لدى شرائح واسعة من القراء و الناس و بدأت مواقع إنترنت كثيرة تقوم بنشرها لقرائها و قد اقترح علي البعض جمع هذه المقالات ، كلها أو قسم منها و نشرها في كتاب نظراً لأهميتها . أذكر مرة أنني دخلت في دمشق إلى (سوبرماركت) كبير ، و بعد شراء غرضي توجهت إلى محاسب الصندوق و كان بجانبه شخصين أحدهما بيده أوراق فوتوكوبي يتناقش فيها مع محاسب الصندوق و الشخص الثالث ، و قد فوجئت أن النقاش هو حول مقال لي بعنوان (الكيمياء الذهنية و التوجيه الإعلامي) كان مطبوع على هذه الأوراق (هذا الكلام ذكرته لمراسل صحيفة تشرين السورية عندما أجرى معي لقاء صحفي موجود في نهاية هذا الكتاب) .

و بعد تشجيع ممن قرأوا تلك المقالات و اطلعوا عليها في مدونتي ، و بعد نصائح عدة ، قررت أن أجمع بعض هذه المقالات ضمن مجموعة منتقاة و أضعها في هذا الكتاب .

في هذا الكتاب اخترت مجموعة من المقالات التي ارتأيت أنها تثري الفكر و التي نالت إعجاب القراء . و قد اعتمدت طريقة و أسلوب في ذلك و هو إضافة صور دلالية لكل مقالة تعبّر عن مضمونها و حيثياتها . و هذه الصور تم استحضارها من النت الذي هو مصدرها . و هي فيما عدا

متن الكتاب ، ليست ملكي الشخصي أو من حقوقي ، علماً أنني قد أجريت على بعضها تعديلات لكي تناسب مضمون الفكرة . كما تم ذكر تاريخ كل مقالة تم نشرها في موقع إيلاف ، حيث راعيت فيها الترتيب الفكري و ليس الزمني . و يمكن لما شاء المزيد ، العودة إلى مدونتي في موقع إيلاف تحت أسم (مدونة الكاتب نزار يوسف) على الرابط التالي :

Nizar.elaphblog.com

نهاية لا أريد الإطالة في الحديث و الاستفاضة في الشرح . و أترك لك عزيزي القارئ متعة القراءة

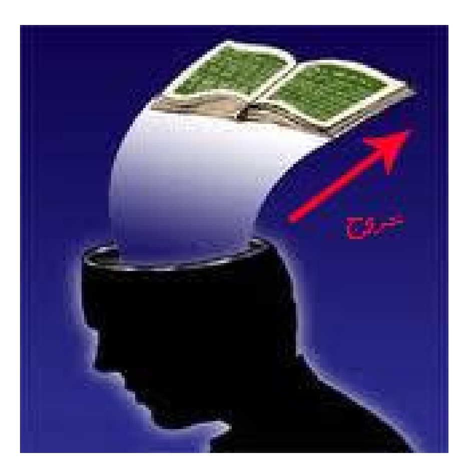
نزار يوسف – سوريا

ويل لأمة لا تقرأ .. و ويل لقوم لا يفقهون[1]



ويل لأمة لا تقرأ ، و ويل لقوم لا يفقهون . و كيف نفقه و نحن لا نقرأ ؟ كيف ندرك معنى الكلمة و نحن لا نقرأ ؟ كيف ندرك أبعاد الكلام المسموع و الحركات المرئية و خلفياتها و خفاياها و نحن لا نقرأ ؟؟!! أنشبت مظاهر عدم القراءة في العالم العربي أنيابها فأصابته بداء الجهل تماماً كما يحصل عندما يعض الحيوان اللاحم البري شخص ما ، فيعطى إبرة كزاز منعاً لإصابته بداء الكَلَبْ . لقد عضنا حيوان الهروب من الثقافة ... حيوان الهروب من القراءة ، و للأسف العميق ... الأسف الذي يضرب صميم القلب ، أعطينا و لا نزال نُعطى جرعة بل جرعات دائمة مستمرة من مظاهر الخرع و الخواء و الفراغ الفكري الموجه و الذي تقوم به معظم الفضائيات و وسائل الإعلام العربية على أحسن وجه و أتم صورة و أكمل شكل ... قنوات موجودة مسبقاً ظهرت من قبل ، و قنوات جديدة تظهر كل يوم ، لا يعرف لها أصل و لا فصل .. قنوات متخصصة بالغناء الفارغ الهابط و الأفلام المكررة التي لا تغني من جوع و لا تسد ثقباً من الثقوب

[1] نشر بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٢٧ .



المفتوحة و المتزايدة في عقل الإنسان العربي التي يتسرب منها شيئاً فشيئاً كل ماضيه و تراثه الفكري و ثقافته الموروثة عبر أجيال متراكمة (بغض النظر عما تحتويه هذه الثقافة و التراث) .

تفتح التلفاز فتخرج لك فتاة تغني و تقول (آآآآآآ ... آآوواواوا) و هي تنزل من سيارة ليموزين سوداء طولها يتجاوز العشرة أمتار و خلفها مجموعة من المرافقين و حراس أمن يرتدون بذلات سموكن سوداء خاكية و نظارات سوداء ، لحمايتها من الموساد و السي آي إيه ، باعتبارها عالمة ذرة . فتضغط على الريموت كونترول قرفاً لتظهر لك قناة أخرى مشابهة و فيها فيديو كليب لأغنية ، وشاب يقود سيارة ذات دفع رباعي و هو يغني قائلاً (أع أوع إيع .. أنا بهد القلعة أنا بكسر الجبل أنا بنشف البحر أنا .. أنا) و حوله مجموعة من البدي كارد لحمايته و تطوقه سيارات سوداء فارهة ربما تحمل أجهزة تشويش خوفاً من انفجار يستهدفه باعتباره من كبار علماء الفيزياء النووية و باعتباره حاصل على جائزة نوبل في الأبحاث الجينية و الوراثية و براءة اختراع لإحدى الرقائق



الالكترونية ذات الأداء المتطور ، فتضغط على الريموت كونترول ليظهر لك فيديو كليب آخر يثير الضحك ... مطرب يترجل من سيارته الفخمة ذات الطراز الأخير أمام فيللته الضخمة الفاخرة التي تشبه قصراً من قصور أوروبة في العصور الوسطى . و المضحك أنه عندما يترجل من سيارته ببطء ، يترجل معه بنفس الوقت من سيارات أخرى مرافقة ثلة من الحرس ذوي النظارات السوداء و هم ينظرون إلى السماء خوفاً من هجوم بالطيران الحربي باعتبار ان مشكلة هذا المطرب المهم هي حبيبته التي خانته و ذهبت إلى شاب أقرع كلياً تبدو عليه إمارات الثراء و الوجاهة ، يبدو أنها تشكل خطراً على الدول العظمى المتقدمة كونها (أي المشكلة) تدخل في نطاق التكنولوجيا الرقمية المتقدمة .

تدخل إلى قنوات الأطفال فلا ترى إلا أفلام الخيال .. كلها خيال بخيال ، حيوانات ذكية تقود مركبات طائرة تريد الاستيلاء على كوكب الأرض تتصدى لها فئران و قطط و كلاب بالطائرات



و المركبات الحديثة تصدها و تردعها و تحمي بني البشر . تنظر إلى المسابقات التي توضع في القنوات المرئية فترى أنها لا تحمل إلا العناوين التالية (هل أنت فتاة جميلة و طولك يتراوح بين كذا و كذا هل صوتك جميل - هل تحلم بأن تصبح مطرباً مشهوراً) . تنزل إلى الشارع فترى مظاهر التطبيق لكل ما هو نتاج لهذه القنوات الفضائية و لكل ما تبثه و تظهره من مظاهر الخواء الفارغ ... أطفال – شباب - فتيات لا هم لهم سوى استعراض اجهزة الخليوي و التظاهر بالتحدث بها و هم لا يتحدثون مع أحد مطلقاً ، أو التكلم عن آخر أنواع السيارات أو التسكع بها في الشوارع بشكل دوري غير منته تماماً كما مبدأ الحلقة المفرغة ، و استعراض آخر أنواع مساحيق التجميل و الكماليات البشرية من نظارات شمسية و أحذية و حقائب و غيرها . لقد كثرت عمليات التجميل في عالمنا العربي و أصبحت الأنثى عبارة عن كائن محشو بكافة أنواع الفيبر و اللدائن ، بدءاً من أعلى رأسها و حتى أخمص قدميها . لقد أضحى المواطن العربي كائن يبحث عن المظاهر بشتى أنواعها و يبتعد ، لا بل يهرب من المضمون ، المضمون الذي هو الأساس و العبرة في منتجات و نتاج الحضارات الإنسانية منذ القدم و حتى الآن ، هو الهدف الذي بحثت عنه النظريات الفلسفية القديمة و المتوسطة و الحديثة و هو أساس العلوم التطبيقية و موطئ قدم لها سواء في العلوم الاجتماعية أو علوم الفيزياء و الرياضيات و غيرها .

إن الأمم المتقدمة و المتحضرة بنت نفسها و حضارتها على أساس من تنشئة الفرد فيها على إدراك مضامين الحياة البشرية و تفرعاتها من خلال المظاهر التي يراها أمامه و التي هي باب للولوج إلى الداخل و مقدمة لمعطيات لاحقة أكثر تعقيداً و ليست هي الأساس و الهدف . المظاهر تستخدم ليس كنتيجة بل كمقدمات و ذلك على عكس الإنسان العربي عندنا الذي أصابه داء المظاهر فأصبح تقييم أي شخص عندنا مثلاً من خلال حذائه و هذا ما حصل معي أكثر من مرة . تمشي في الشارع فتقابلك فتاة أو رجل و أول ما ينظر إليه فيك هو حذائك ، لا بل أنه جرت محاولة في وسائل الإعلام عندنا ذات مرة لتسويق هذه النظرية سواء في الدعايات و غيرها من أن حذاء

الشخص هو المعبر عنه و هو المقدمة و النتيجة و الباب و الهدف لتقييمه و قبوله في الأوساط الاجتماعية ... هو مضمونه ... هو المخ . و المنطلق الأساس لكل ذلك هو عدم الاستقراء الناتج عن عدم القراءة ، الناتج عن كره القراءة ... إننا قوم نكره القراءة ليس ذلك فقط بل إننا قوم نوجه أولادنا و عيالنا إلى عدم القراءة و نقصف و ندوس على كل من له اهتمام بالقراءة ، بالسخرية و الاستهزاء و المحاربة أحياناً و الاحباط أحياناً أخرى .

لنعد إلى قراءة و استقراء التاريخ الماضي و المعاصر ، و نتابع مفارز و مفاصل الوضع الاجتماعي و الفكري للدول المتقدمة و المتحضرة و التي استكملت مجمل نواحي العلم و التكنولوجيا ، فنرى أنهم شعب يبتعد عن المظاهر الخارجية في تقييمه لأي حدث أو ظاهرة أو شعب أو فرد ، وذلك لا يتأتى إلا من خلال تراكم ثقافي يستحوذ عليه إنسان تلك الدول . و هذا التراكم من الثقافة ليس إلا نتاج وقت مخصص للقراءة و اهتمام بالقراءة ... الإنسان العالم أيها السادة هو حتماً إنسان مثقف ، و الإنسان المثقف أيها السادة هو حتماً و حصراً إنسان قارئ .

هذه القضية تقودنا إلى مفهوم خطير جداً أنشأ إشكالية كبيرة لدى الناس و لغط في نظرتهم و تقييمهم للمفاهيم . هذه الإشكالية تتلخص في الخلط بين اكتساب الثقافة (بأشكالها كافة) عن طريق التحصيل و القراءة المتميزة ببذل الجهد و القدرة على الثبات و تحمّل المطالعة و الركون إليها ، و بين التلقي السماعي للثقافة أياً كان نوعها (دينية – سياسية – علمية ... الخ) . و المشكلة التي نصادفها تتلخص في أن معظم الخميرة الثقافية المتحصلة لدى الإنسان العربي ، هي نتاج تلقي سماعي ، تماماً كما هو الحال في الفرق بين من يتعلم العزف على العود بواسطة النوتة و التدريب ، و بين من يتعلم العزف بواسطة السمع أي تقليد اللحن الذي يسمعه . و الخطورة التي تتبدى في التلقي السماعي هي أنك تتلقى ثقافتك من شخص أو جهة معينة ، و أنك بدون أن تدري أصبحت خاضع ليس فقط لثقافة هذا الشخص و ما تحتمله من خطأ و صواب ، بل لميول هذا الشخص و غرائزه العاطفية الخفية ، أو لمخطط خفي لا تراه أنت ، يقوم هو بوضعك في نطاقه دون أن تدري

، أي باختصار تكون في نطاق و تيار ثقافة موجهة تفرض عليك شكلاً من الأشكال دون أن تدري ، و تصبح بالتالي أسير هذه الثقافة و تسير بقصد أو بدون قصد ، حسب مرامي و أهداف معينة من الممكن أن تكون ضارة أو نافعة ، لأنك بالأساس و الحالة هذه تكون فاقد لميزة الاختيار ، لا بل أنت مجبر على تلقي ما يريده و ما يمليه عليك ذلك الشخص أو تلك الجهة .

إن الإنسان العربي و إن تكلف التحصيل الثقافي ، فإنه و حسب ما نراه ، ينحو إلى التحصيل السماعي و المرئي ، أي أننا في أحسن حالاتنا ننحو إلى العلم السماعي و هذا أيضاً على علاته ، يلاحظ أنه يقتصر على فئة قليلة أما البقية فمعظمها لا يتكلف عناء التحصيل لا السماعي و لا المرئي ، بل يفضل متابعة القنوات الفضائية المذكورة آنفاً . و على النقيض من ذلك فإن ثقافة التحصيل من خلال القراءة ، تتيح لك حرية الاختيار و تعطيك مجالاً أوسع و آفاق علمية و اطلاعية أكبر ، و مع مرور الوقت و في حال توفر شرط التنويع فإنك حتماً ستتحصل على ميزة ما يسمى بالثقافة المقارنة و تكون قادراً على االتمييز بين الغث و السمين .. بين الضار و المفيد .. بين الخاطئ و الصحيح .

إن ثقافة القراءة و المطالعة تتيح للإنسان بمرور الوقت استيعاب و إدراك العالم المحيط به و القدرة على التحليل و استنباط المعطيات و العوامل و المسببات . و شيئاً فشيئاً الاتجاه إلى باب العلوم التطبيقية الأخرى ، لأنه يكون قد اكتسب ميزة محبة العلم و ميزة البحث عن المضمون و ميزة الابتعاد عن المظاهر . هذا الشخص مثلاً إذا أمسك أية جريدة أو صحيفة أو مجلة أو استطلع أي خبر أو إعلان في أية قناة ، فإنه قادر على معرفة مصداقية هذا الخبر إلى حد بعيد و قادر على إدراك مدى مجال التوجيه الخفي فيه و هو قادر على الإحاطة بأبعاد أية محاورة أو نقاش مع شخص



آخر و المفاضلة بين كل ما تلقاه و بين ما هو موجود في مخزونه الثقافي .

أيها السادة ... إن أول كلمة قالها جبريل (ع) للرسول الكريم محمد (ص) هي [إقراً] و عندما أجابه الرسول (ص) ما أنا بقارئ ، أعادها عليه و كرر طلبه ثلاث مرات ، أفلا نستوعب ؟؟!!!! إن كلمة إقرأ هذه لها أبعاد و مدلولات أخرى بالإضافة إلى القراءة ، لها بعد الاستقراء أي الاستنتاج و الاستنباط و هو مرحلة تالية لمرحلة القراءة . و هذا ما يظهر جلياً من خلال الآيات التي تلاها جبريل (ع) على الرسول (ص) بعد طلب القراءة و هي [إقرأ بسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ و ربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم] . لنتوقف قليلاً عند عبارة (الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم) أيها السادة ... أما آن الأوان لنمسك بالقلم ؟؟ و هل نستطيع أن نمسك بالقلم إذا لم نكن قارئين ؟؟؟ آن الأوان أيها السادة لنتعلم ما لم نعلم و هي مرحلة تالية لمرحلة الإمساك بالقلم التي بدورها هي مرحلة تالية لمرحلة القراءة . ألم يقل الرسول (ص) (اطلبوا العلم و لو في الصين) ؟؟ عندما قالها الرسول لم يكن



الإسلام قد انتشر خارج مكة و المدينة ، فماذا لو قرر أحد الإعراب أو المسلمين أن يمتطي راحلته و ينطلق بها إلى الصين ؟؟ ماذا كان سيجد غير ثقافة الحضارات الأخرى و ثقافة العلوم التطبيقية التي كانت موجودة في ذلك الوقت ؟؟!! .

[اطلبوا العلم و لو في الصين] ... قالها الرسول الكريم و بعد ١٤٠٠ عام ، لم نطلب العلم لا من الصين و لا من غيرها ، بل أصبحنا مستوردين لمنتجات الصين ... منتجات الصين التي تغزو العالم الآن ، تغزو أمريكا و أوروبة في عقر دارهما ، أليست هذه المنتجات نتاج تراكم العلم و الثقافة التي طلب الرسول (ص) أن نطلبها قبل ١٤٠٠ سنة ؟؟!! لاحظوا أيها السادة الترابط بين كل ذلك و بين القراءة و الاستقراء و العلم .



يا قوم ... يا قوم ... لك يا آووووم ...

اقرأوا يا قوم .. انزلوا إلى الأسواق و اشتروا الكتب المختلفة و خصصوا قليلاً من وقتكم الذي تهدرونه على الفضائيات و مسابقات الأغاني و الأفلام و متابعة السيارات و الخليوي و غيرها .. خصصوا قليلاً من مالكم الذي تهدرونه بتبديل الموبايلات دورياً و شراء السيارات التي غزت الأسواق و شراء السيريلانكيات للتباهي بوجودهن في بيوتكم ، بدل التباهي بوجود الكتب و المكتبات فيها .

يا قوم إذا كان القانون لا يحمي المغفلين ، فإن التاريخ لا يرحمهم .

اقرأوا ... اقرأوا ..... بالله عليكم اقرأوا يا قوم ..... يا قوم ..... لك يا آووووم

لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم .



كرسيان خربا بيوتنا[1]



كرسيان خربا بيوتنا و دمرا سلسفيلنا من الجذور ... الأول هو كرسي الله و الثاني هو كرسي السلطة و آلية عملية التدمير هذه جاءت من منطلق سعينا نحن العرب للجلوس على هذين الكرسيين بأي شكل من الأشكال و بأية وسيلة كانت . فكان من نتيجة ذلك أن دفعنا الثمن غالياً غالياً جداً خلال تاريخنا . منذ صدر الإسلام و حتى الآن . الكرسي الأول هو غير مخصص لنا و لا لغيرنا إنه كرسي الله جل و علا وحده و لا يسمح لنا و لا لغيرنا بالجلوس عليه و لكننا أبينا إلا أن نأخذ و نستحل ما هو ليس لنا فجلسنا على هذا الكرسي و أخذنا نكفر كل من يخالفنا بالرأي و المعتقد و لو كان من فروع الفروع الفروع و نحلل دمه و أمواله و نساءه و حلاله بما لم يترل به الله من سلطان . أنت كافر و أنت مؤمن .. أنت إلى الجنة و أنت إلى النار ... أنت إلى اليمين و أنت إلى الشمال .. أنت يجب أن تعيش و أنت لا يجب أن تعيش و يجب أن

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٢٧ .

نكسر لك رأسك .. أنت و أنت و أنت و أنت . فكان تاريخنا مليء بالمآسي و الحروب الطائفية الدينية التي قتلنا فيها بعضنا البعض و أثرنا العداوة و البغضاء و التي أضعفتنا و أرجعتنا إلى الوراء عشرات السنين بل القرون من السنين و جعلتنا عرضة للاحتلال و التقهقر و الإذلال و الاستعمار المغولي و العثماني و الطلياني و الفرنسي و الانكليزي و الموزمبيقي و .. و .... و ... من يوم يومنا لم نهنأ بيوم استقلال واحد . و المصيبة الكبرى و الطامة العظمى هو أننا لغاية هذه



الساعة لم نتعظ و لم نعتبر ولم نستفد من الدروس و لم نتعلم منها و لا زلنا إلى الآن نستحل كرسي الله و نجيّرها لمآربنا و أهواءنا الشخصية الدنيوية فكان لزاماً أن يقع علينا سوط العذاب الإلهي و تنطبق علينا الآية (يخادعون الله و هو خادعهم) .

وصلنا إلى مرحلة من التطرف لم نراع فيها حقاً لا لدين و لا لشرع و لا لناموس فرحنا نضرب يميناً و شمالاً ... نقتل كل من خالفنا الرأي و لو بقيد أنملة . نذبح و نقطع و نضرب الكبير و الصغير ، البريء و الغير بريء ، من عليه حرج و من ليس عليه حرج . نقتل و نفجر و ندمر و نغتال و نقول الله يارب العالمين عليك بكذا و افعل كذا .. اللهم افعل .. اللهم اصنع .. اللهم ضع ... اللهم ارفع .. اللهم دمر هؤلاء .. اللهم اقتلهم .. اللهم أبدهم ... اللهم احصهم عدداً و لا تغادر منهم أحد .. اللهم اجمعهم في معسكر الاعتقال ثم افرزهم إلى فئات ثم انزع عنهم ثيابهم ثم ابدأ بهم ضرباً و لا تدع منهم أحداً يا رب العالمين .. لا كبير و لا صغير .. حتى الرضيع منهم اسحقه سحقاً . لنفاجئ بالنهاية إن هؤلاء هم من المسلمين و لا ذنب لهم إلا أنهم يخالفونا الرأي ... إننا مساكين لا نخاطب الله بل نخاطب إلهاً وهمياً صنعناه من تراكم عصبيتنا و أحقادنا و جعلناه صنم مصبوب من جبلة بيتون تغلغلت في عقولنا و تحجرت بها و تفاعلت معها بحيث أصبحت عقولنا كالبيوتن و أشد صلابة و عوداً لا نرى إلا أخونا المسلم من الطرف الآخر ، نحصي عليه خطواته و تاريخه و عيوبه الفقهية و نكشف عوراته و لا نرى في هذه الدنيا كلها إلا أخونا المسلم .. أسهل كلمة عندنا هي كلمة (كافر) ... كافر ... كافر .. كافر .. كافر ... كافر ... ترررررررر و أصعب كلمة عندنا هي (أنت

أخي و حسابي و حسابك عند الله يوم القيامة فينبأنا بما كنا نعمل هو عالم الغيب و الشهادة و لسنا نحن) .

ضربت أمريكا النجف الأشرف فخرجت بعض وسائل الإعلام لتقول : حصول غارات أمريكية على الفلوجة و مدن أخرى و خرجت مظاهرات في بعض الدول العربية تأييداً للفلوجة و كأنه لا يوجد بشر في النجف الأشرف . ضربت أمريكا الفلوجة فخرجت التنديدات في وسائل إعلام أخرى لتتحدث عن كربلاء و النجف و الشيعة و كأنه لا يوجد في الفلوجة بشر و كأننا نقول لأمريكا انظري يا أمريكا ... نحن في قمة ضربك لنا و قصفك علينا و رميك للصواريخ و القذائف فوق رؤوسنا .. نحن أناس مذهبيين و طائفيين و متعصبين و لن نكون إلا مذهبيين و طائفيين و متعصبين . ليتنا أخذنا الدرس من الفلوجة و النجف و كيف عندما تعرض النجف للضرب و الحصار أرسلت الفلوجة المساعدات و عندما تعرضت الفلوجة للضرب و الحصار أرسل النجف المساعدات لها . المشكلة أيها السادة ليست أمريكا المشكلة نحن . و الخطر أيها السادة ليس أمريكا بل الخطر هو نحن .. نحن أكبر خطر على أنفسنا .

الكرسي الثاني الذي خرب بيتنا و دمر سلسفيلنا هو كرسي السلطة . من اليوم الأول الذي استطعمنا فيه حلاوة السلطة و حولنا الخلافة إلى ملك خاص أصبح صراعنا كله حول كرسي السلطان و أضحت غايتنا الرئيسية هي الوصول إليه مهما كلفنا الأمر من ثمن و مهما استخدمنا من وسائل فقتلنا الخليفة عثمان من أجل السلطة و حاربنا الإمام علي و قتلناه من أجل السلطة ثم انفردنا بالسلطة و خرجنا على بني أمية و خرجوا هم علينا أيضاً من اجل كرسي السلطان و خرجنا على



العباسيين و خرجوا هم علينا أيضاً من أجل كرسي السلطان فأضحى تاريخنا كله تاريخ ثورات و قتل و قمع للثورات و القتل و وصلنا إلى درجة سخرنا فيها الدين و الإسلام لأجل كرسي السلطة فأصبحت كل فتاوينا و أحاديثنا سياسية و كل تطبيقاتنا الفقهية و الشرعية خدمة للسياسة و للوصول إلى كرسي السياسة مما أفضى بنا إلى تفريغ الإسلام من مضمونه و تفريغه من

فحواه الروحاني و الأخلاقي و الإنساني و تحويله إلى دين الحرب و القتال و إلى قواعد عسكرية و نظم و قوانين قتالية همها الأول إعداد الجيوش و تعبئتها و تشريع الغزو فوفانا الله تعالى حسابنا بأن سلط علينا الأعاجم ليحكمونا إلى الأبد و يتحكموا بنا إلى ما شاء الله و كافأنا بأن استبدلنا يغيرنا و لم نضره بشيء و هو على ذلك بقادر عزيز . و مع ذلك لم نعي الدرس و لم نستخلص العبر و أصرينا على أهواءنا و غرائزنا في التسلط و جعلنا أنفسنا مطية لها و أصبح هدفنا الوصول إلى كرسي السلطة بأي ثمن و بأي وسيلة نستخدم الإسلام و خلافة محمد (ص) فإن لم ينفع



نستخدم الديمقراطية فإن لم تنفع نستخدم أسلوب المعارضة البناءة الشريفة الطاهرة و نجعل الحاكم أكبر ديكتاتور و أكبر جلاد و أكبر مكمم للأفواه و اكبر مخرب و مدمر للبلد و نحن المصلحين و لسنا المفسدين ، فإن لم ينفع نتحالف مع أمريكا و نتهم الحاكم بالتبعية لأمريكا فإن لم ينفع نتحالف مع إسرائيل و نتهم الحاكم بأنه يخدم إسرائيل ، فإن لم ينفع نعلن بالسر أو بالعلن أننا مستعدون لفعل أي



شيء من أجل كريس السلطة ... مستعدين لتدمير البلد و إشعال حرب أهلية فيه بما يخدم تجار السلاح العالمين لأجل كرسي السلطة و كما شهد أناس من قبلنا زوراً للوصول إلى السلطة نحن مستعدين لفعل الشيء ذاته المهم أن نصل لكرسي السلطة . المهم كرسي السلطة ... دخيل الله كرسي السلطة ....

مشان الله كرسي السلطة .... على حب النبي كرسي السلطة و بعد كل ذلك نأتــي و نقول : اللهم عليك بأمريكا و لا نعلم أن بعد أمريكا ستأتي جمبريكا و يعد جمبريكا ستأتي قمفشيكا و هكذا إلى يوم القيامة يوم الحساب و الدينونية حيث ينبأنا رب العالمين بما كنا نعمل و ما كنا نعمل

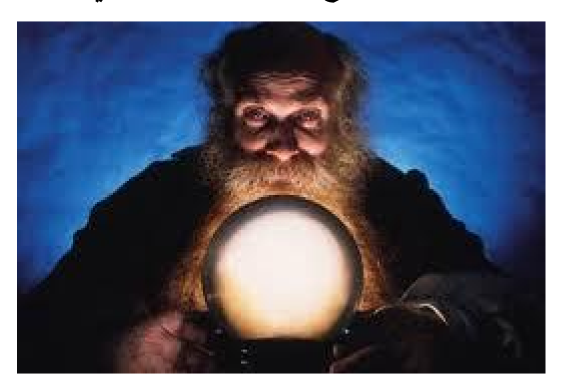
ما هو المطلوب من الإنسان العربي اليوم[1]



ما هو المطلوب من الإنسان العربي اليوم ؟؟؟ هناك طريقين أضحى على الإنسان العربي أن يختار أحدهما ... الأول هو التحلل من أية قيم و فضيلة و إتباع الخلاعة و الانحلال و ترك كل قيم العقل و المنطق و الأخلاق و نبذها وراء ظهره . و إتباع التحرر بوجهه الآخر الذي يبيح له فعل أي شيء كائناً ما كان هذا الشيء ، بدون عقلانية أو تدبر و تبصر ... ما يسمى بديمقراطية الخروج على النظام و القانون ، مهما كان و مهما احتوى من خير و فضيلة للمجتمع الذي هو فيه و اعتباره جائر و خاطئ بالمطلق و لأي تصرف أو فعل قد لا يناسب مزاجه و أهواءه .. و باسم الحرية و التحرر يتم إلهائه عن طريق العلم الحقيقي المتمثل بالتقنيات و التطبيقات و

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠٠٩/٣/٣٠ .

التكنولوجية التي تخدمه و تخدم مجتمعه و وطنه و قبول كل مساوئ الحضارات الأخرى باستثناء إيجابياتها ، من خلال ما يطالعه في المجلات السخيفة العقيمة التي أضحت الآن تملأ واجهات المكاتب و تدعي بكل سخرية و صفاقة و وقاحة لافتة للنظر ، تبنيها للثقافة و الفكر بينما هي عبارة عن مجلات أزياء و عطورات و خلطات للجمال و التجميل (تغطية القبيح بأقبح) و سيارات و موبايلات و مطربين و مطربات مع قصص حياتهم و مشاكلهم العاطفية و علاقتهم بالمخرج الفلاني أو شركة الإنتاج الفلاني لتختتم بالنهاية بالأبراج أو بظاهرة فريدة من مظاهر الاستجحاش و الاستغباء للإنسان العربي ألا و هي ظاهرة المنجم أو المتنبئ بما سيقع من أحداث سياسية و طبيعية و اجتماعية و غيرها أي باختصار ، أخصائي بعلم الغيب . و اللافت في هذه الظاهرة العجائبية الفريدة من نوعها ، هو الثيم أو الستايل أو الشاسيه لهذا الشخص ، فهو ليس إنسان معمر كما في السابق .. أشيب طالت لحيته و تدلت شبرين ، مع شكل غريب ليعطي الانطباع (باعتبار أننا شعب يكره المضمون و تنخر فيه المظاهر إلى نقي العظم المخصب و المحرم دولياً) بأنه قد مرد على هذا العلم علم الغيب و نافس فيه (استغفر الله العلي العظيم .. سامحني يا ربي .. شر البلية ما يضحك) . بل هو شاب



مودرن ببدلة سموكن شكله غالباً مراهق أو فرخ يعني فريخ أو زيغة أو قرقة (رضيع الدجاج حيث أن الدجاج قد أصبح من الثدييات في هذا الزمن المقلوب) علماً أن الكبار أو الحرّيفون منهم يقال أنهم على صلة بأجهزة استخبارات قوية لديها أجندة موضوعة سلفاً لأحداث سياسية فتعطيهم هذه المعلومات من منطلق هو بنظرنا عبارة عن تهيئة الجمهور الغافل الذي ليس له إلا الله ، لما سيحدث ، فتكون الصدمة خفيفة الوطئ ، تماماً كما هو المبدأ الميكانيكي للمخمدات و مانعات الصدمات (يلاحظ الآن أن المجلات الفكرية و العلمية و الثقافية الحقيقية قد بدأت تختفي من الواجهات) . ذلك كله يضاف إلى ما يتلقاه هذا الإنسان الفقير المسكين في القنوات الفضائية من مواضيع و برامج عقيمة لا تنفع و لا تضر بل و تضر ... برامج تقدم له العري ملفوفاً برداء الفن و الأدب و تدرج الانحلال و التفلت من أية ضوابط شرعية أو اجتماعية أو عرفية بل و حتى



ثقافية تحت ستار الحرية و التطوير أما البرامج العلمية و التقنية و المواضيع الفكرية الجدية التي تتناول قضايا هامة تمس صميم محن و مشاكل الإنسان العربي ، فنادراً ما تجد لها سبيلاً إلى مجلات و قنوات هؤلاء بل لا تظهر أصلاً . يسوقونه من فساد إلى فساد و من خواء و فراغ إلى خواء و فراغ . في عملية تجهيل مبرمجة و واضحة إلا على من هو شر من الأنعام و أضل منها سبيلاً ، من فصيلة الصم البكم الذين لا يعقلون . هذا هو الإنسان الذي يريد أن يخلفه لنا هؤلاء .

أما الطريق الثاني فهو نبذ أي شيء لا يتوافق مع آراء و عقائد فقهية معينة و بقاؤه في دائرة مغلقة ... متوافقة مع مفهوم الكهنوت في القرون الوسطى . فالمسلم اليوم أضحى على قارعة مفترقين .. إما التحلل و الغناء و الرقص و الطرب و عرض الأزياء و العطورات و مسابقة أفضل مطرب و آخر أخبار الديوتو و عروض السيارات و إما التعصب الأعمى و التحريم بأشكاله و أنواعه كافة مترافقاً مع التكفير غالباً .. تحريم التلفاز تحريم قص الشعر تحريم الأكل بالشوكة السكين تحريم القبعات تحريم ظهور أكثر من عين واحدة للمرأة القتل لمجرد الاختلاف في الرأي . و الخضوع لمفاهيم بدعية تكفيرية لا يستطيع التخلص و وصل إلى مرحلة العشق و الهيام بها . و لا يجوز له التفكير بغيرها . مفاهيم صار عمرها فوق الألف من السنين و صار في اعتقاده أن علوم الدنيا النافعة و الصحيحة هي فقط علوم الدين و علوم الحديث و دراسة السند و متون الأحاديث التي أعطيت لها الأولوية و الأفضلية على القرآن الكريم فأضحت بمثابة جواز مرور إلى القرآن الكريم لا يقرا إلا من خلالها، أما علوم الدنيا الأخرى النافعة له و لحياته و لمجتمعه الإسلامي ، فهو قد استقر في داخل دماغه المغسول بمسحوق (٣ في ١ مع الأنزيمات الذكية الفعالة) أن الجهل بها لا يضر . مع ما يضاف إلى ذلك كله من برامج الحظ و التنبؤ و العلاج الروحاني عبر الأثير و عبر الأقمار الصناعية و شفاء حالات مستعصية تماماً كما يفعل أطباء الغرب المتحضر عندما يديرون عملية جراحية عبر الأقمار الصناعية ، حيث أصبح لدينا جراحين روحانيين يشفون الناس بالأدعية . أو حصره ضمن أتون طائفي و مذهبي بشع جداً يكفر فيه كل

ما عداه من بقية خلق الله ، كلهم كافر و مارق و مبتدع و مرتد و خارج من ربقة الدين .. إلا هو .. هو فقط وحده الجالس على عمود الدين الذي لا يتسع لاثنين . واقفاً على باب الجنة ، فاتحاً باب التوبة للناس لكي يعودوا إلى ما يراه هو وحده فقط لا غير ، دين الحق . فيساق الإنسان من جهل إلى جهل و من تعقيد إلى تعقيد ... لنخرج بإنسان فارغ بعينين جاحظتين و تقاطيع مكفهرة عبوسة و نظرة سلبية إلى كل شيء و أي شيء .... أي شيء عنده يدخل من باب الحرام و يؤدي إلى التهلكة و عذاب الحريق .

أما أراد هذا الإنسان اختيار الطريق المعتدل (من مبدأ خير الأمور أوسطها) و الذي يتبناه الدين الحقيقي الصحيح بحيث يأخذ من مفاهيم الحياة الحديثة ما لا يتعارض مع شريعته و عقيدته الأصيلة السمحاء التي جيء بها بيضاء نقية ، و التي بمثل ما حرمت عليه ، حللت له من طيبات الدنيا و زينتها و علومها الدنيوية و بنفس الوقت يكون ملتزم على الأقل بأدنى حدود شريعته و الأخلاقيات العامة ... فإنه معرض من قبل الفريق الأول إلى الاتهام بالتخلف و الجمود و التحجر.. و من قبل الفريق الثاني إلى الاتهام بالتحلل و الفساد و الكفر الصريح بكل أبعاده و مدلولاته . لقد أصبح الإنسان العربي اليوم تائهاً بين شخص يقول له أن الدين هو أفيون الشعوب و هو العمل الأساسي في تخلفها و أن القيود و الضوابط الأخلاقية تخلف و قمع للحريات ، و بين شخص يقول له أن كل أحاديث العقل و العياذ بالله هي أحاديث



موضوعة و ضعيفة و قد ضعفها الشيخ فلان في الكتاب الفلاني . أما الشيخ فلان رحمه أو حفظه الله لم يجد لها سند صحيح و أحد رواتها كذاب أو منقولة من دروس الشيخ فلان . و الأفضل لك يا أخي في الله أن تبقى بلا عقل عملاً بالسنة الشريفة . اللهم إنا نعوذ بك من العقل و من شر العقل . لقد أضحى التطرف بشقيه الآن و بكل معاييره و دلالاته هو المطلوب ، أما الاعتدال العقلي الأخلاقي السليم فما مطلوب منه إلا الرأس فقط .

صلاح الفرد أم صلاح المجتمع ؟؟[1]



هناك تفكير مستفحل لدى البعض ، بأن على الدولة أن تقوم بكل شيء للمواطن و هي مسؤولة عن أي شيء أمام هذا المواطن و أي خطأ يقع فيه المواطن ، تتحمل الدولة مسؤوليته ، و يصل الأمر عند هؤلاء مع مرور الوقت إلى أن تتحمل الدولة أخطاؤهم هم أيضاً .. أخطاؤهم التي يقومون بها بشكل فردي مستقل عن أي عامل من عوامل تدخل الدولة أو السلطة . و الحقيقة أنه يمكن هنا إيراد بعض الحقائق ، إحداها للأسف قد تكون غائبة عن الكثـــيرين أو البعض من الناس .

الحقيقة الأولى : هي مسؤولية الدولة تجاه المواطن (شق طرقات – مدارس – مشافي – كهرباء – مياه – حفظ الأمن و النظام ..... الخ) . و هي حقيقة موجودة و معرفة لدى الشرائح البشرية بأنواعها كافة (شعبية – حكومية – اعتبارية و غيرها) و متعارف عليها و على وجودها لدى معظم شعوب و حكومات العالم . و يمكننا اعتبار هذه الحقيقة أو الحق بأنه من دعامات ما عرف

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠٠٩/٤/٨ .

بنظرية نشوء و تشكل المجتمع قديماً . فالأفراد في البدايات الأولى لتشكل المجتمعات الإنسانية قد أعطوا حقوقهم (كلها أو جلها) للسلطة المركزية الاجتماعية مقابل حقوق و واجبات يحصلون عليها من قبل هذه السلطة أهمها الأمن و الحماية و النظام و منع الفوضى .

الحقيقة الثانية : هي حقيقة مسؤولية المواطن تجاه الدولة و بوجه آخر مرادف ، مسؤولية الفرد تجاه مجتمعه و وطنه الذي يعيش فيه . ذلك بغض النظر عن رؤية هذا الفرد للدولة و نظام الحكم و السلطة في بلده ، سواء أكان موالياً أم معارضاً . و بغض النظر عن نظام الحكم في الدولة و ماهية السلطة (ديمقراطية – ديكتاتورية – ملكية – جمهورية – فيدرالية - كونفدرالية .. و ما إلى ذلك) و رؤيته هو نفسه لطبيعة هذه الأنظمة . هذه المسؤولية هي بدورها ذات شقين ، مسؤولية مادية (ضرائب – احترام القانون – خدمة العلم ... الخ) . و مسؤولية معنوية أدبية و أخلاقية ، و هي المسؤولية التي نتحدث عنها و التي هي موجودة عند الدول المتقدمة بشكل كبير ، علماً أنه لا اختلاف بين المسؤوليتين بنظرنا ، و كل منهما تنبثق عن الأخرى و تعبر عنها . و نورد هنا نماذج مختصرة على سبيل المثال لا الحصر :

ــ بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية و أثناء إعادة أعمار ما عرف بدولة (ألمانيا الغربية) آنذاك ، رفض الكثير من مواطني تلك الدولة تناول البيض الذي كان غالياً آنذاك في أوروبا نتيجة الحرب و كذا مادة ، و قرروا تقديم جميع مخصصاتهم من تلك المادة و غيرها للدولة لتقوم ببيعها إلى الدول المجاورة و تحصل على النقود اللازمة للمساعدة في إعمار البلد .

ــ كثير ما نسمع في أوروبا أو اليابان أو أمريكا مثلاً و عبر وسائط الإعلام المختلفة ، أن الناس العاديين قاموا بمساعدة الدولة في أمور معينة و خاصة الخدمات الاجتماعية أو امتنعوا عن أمور معينة خدمة للدولة .

ــ أنا مواطن .. و يوجد أمام منزلي مكان لشجرة من المفروض أن تزرعها بلدية الدولة أو المحافظة ، و لسبب ما لم تقم الدولة بذلك ، فلماذا لا أقوم أنا بهذه المهمة و أزرع هذه الشجرة و أتعهدها بالسقاية و العناية .

ــ أثناء فصل الشتاء ، قد تطوف بعض الشوارع و تمتلئ بالماء أمام منزلي مثلاً ، نتيجة لانسداد مجرى التصريف في الشارع بعض الأوساخ ، فلماذا لا أبادر أنا و أقوم بهذه المهمة و أزيل الأوساخ ، و لن يستغرق ذلك مني أكثر من دقيقة واحدة ، علماً أن هذا من واجب الدولة ، و لكن لا ضير في ذلك خاصة إذا كان سبب انسداد هذا المجرى هو الأوساخ التي أرميها أنا في الشارع بشكل اعتيادي و يومي .

ــ الدولة تعلن في التلفاز مثلاً عن ضرورة عدم هدر الماء ، فلماذا لا أساهم أنا في ذلك و أخصص جزء من وقتي و كلامي عن هذا الموضوع أمام الناس و أجعل من نفسي قدوة لهم في ذلك بدل أن أكون قدوة لهم في النقد الهدام الذي ربما أكون بشكل غير مباشر جزء من أسبابه .

ــ أنا مواطن أمتلك أرضاً أو حقلاً ، فلماذا لا أستصلح هذه الأرض و أزرعها و أشجرها و أربي فيها الدجاج و الأبقار و أقوم بإنتاج الحليب و البيض و الخضار ، لي و لعائلتي و للمحيطين بي .

ــ أنا مواطن ... و عندما أشاهد في التلفاز إعلان أو ندوة أو كلام أو حتى خطاب من شخص مسؤول ، أتجاهل هذا الكلام و لا أصغي إليه و لا أتبع ما فيه من إرشادات أو توجيهات و قواعد تطرحها الدولة كحلول لمشاكل معينة إما من منطلق معاداتي سياسياً أو اجتماعياً . حتى طائفياً (و هو ما يحصل اليوم في بعض البلدان العربية) لذلك المسؤول ، و عندما أشاهد محطة تلفزيونية



معادية لبلدي أو على الأقل لا تعمل لصالح و خير بلدي ، و كل ما تبثه هو انتقاد لدولتي أو الدول الأخرى بشكل بطريقة مدروسة ، أصغي بانتباه و أرفع عقيرتي بالنقـــد و الانتقاد ، بدون أن أعرف من أنتقد و كيف أنتقد و لماذا أنتقد ، و ما هو المطب و الفخ الذي وقعت فيه . ذلك كله من معيار عاطفي غريزي . هناك الكثير من الأمثلة التي نستطيع بها أن نوفر أموالاً و مصاريف كثيرة ، علينا و على الدولة و التي هي في الأساس من واجبنا و دورنا قبل ، تكون من واجبات و دور الدولة .

يجب علينا أن نحاول قدر الإمكان التخفيف عن الدولة بعض الأعباء من خلال أمور ذاتية نستطيع القيام بها و لا تكلفنا الشيء الكثير و تعود بالخير علينا و على الدولة و تساهم في تحقيق الاكتفاء الذاتي . و هذا كله ينطلق من مبدأ عدم الاتكال على الدولة .

أيضاً هناك تفكير سائد و مستفحل في عقلية المواطن العربي ، و هو أن الفساد مختص فقط بالدولة . و الملاحظ أنه عندما يكون هناك حديث عن الفساد و في حلقة أو جلسة معينة ، يتجه التفكير فوراً إلى الدولة و كأن الفساد أو الخطأ مرتبط بالدولة فقط و مختص بها . و لسنا هنا في وارد تبرئة أو اتهام الدولة ، بل في وارد و سياق القول أن الفساد هو بالأساس غير مرتبط و متعلق بالدولة وحدها فقط ، بل هو أيضاً ظاهرة اجتماعية شاملة تشمل المجتمع بالدرجة الأولى و تصدر عنه أساساً . و الملاحظ في معظم الخطاب العربي (صحف – دوريات – نشرات – كتب – مقالات – أبحاث) المتعلق بالفساد ، أنه يكون دائماً موجهاً و مركزاً نحو الفساد الحكومي ، و لا يتم التطرق إلى ما يسمى بفساد المجتمع ، مع أنه يجب أن تكون له الأولوية المطلقة و الأهمية القصوى ، لأنه هو الأساس في أي فساد . و التقصير في الأداء أو الخطأ هو ليس فقط موجود في الحكومة ، بل في المجتمع أيضاً . و بناء عليه فإن الإصلاح هو ليس فقط الإصلاح الحكومي أو الإداري أو المؤسساتي ، بل نرى أن هناك شيء اسمه صلاح المجتمع و هو الأساس في أي إصلاح ويبدأ من المواطن نفسه .

المواطن الذي يقوم برشوة موظف الدولة للتغاضي عن خطأ أو مخالفة أو ضريبة ما ، أو للحصول



على ميزة أو مصلحة ما ليس من حقه ، ألا يكون قد ساهم في الفساد الحكومي ؟؟؟؟!!! . و عندما يقوم هذا المواطن بمخالفة القانون و التعليمات التي تصدرها الحكومة و لا يتقيد بها عامد متعمداً بلا سبب و بلا مبالاة ألا يكون قد ساهم بالفساد ؟؟؟!!! . و عندما يقوم هذا المواطن بالإساءة إلى ممتلكات الدولة و مرافقها العامة و التعدي على الصالح العام (ماء – كهرباء – هاتف) ألا يكون قد ساهم بالفساد ؟؟؟؟

و عندما يقوم مواطن ما بدور سلبي في المجتمع و لا يؤدي واجبه المترتب عليه على أكمل وجه و يخل بالنظام العام الحكومي و الاجتماعي ، ألا يكون قد ساهم بالفساد ؟؟؟!!! .

هناك أيضاً موضوع خطير جداً و أجد من المناسب طرحه في سياق الكلام عن المجتمع ، و هو أنه معظم المشاكل التي نعتقد أو نظن أن سببها هو الدولة أو تقصيرها ، يكون سببها الأساسي هو مشاكل أسروية و اجتماعية بحتة و ناتجة عن ذهنية بعض القيادات أو أولي الأمور الاجتماعية ، كرب الأسرة مثلاً . فالشاب الذي لا يستطيع تأمين منزل له بعد التخرج من الجامعة مثلاً ، يحمل الدولة هذه المسؤولية . و الشاب أو الفتاة اللذان لا يستطيعان الزواج ، يحملان الدولة أيضاً هذه المسؤولية . و الرجل و المرأة اللذان ينحرف أولادهما لسبب ما ، يحملان الدولة أيضاً مسؤولية هذا الأمر و تبعته . هذه الأمور و التي هي على سبيل المثال لا الحصر ، كثيراً ما نشاهدها و



نسمعها في الحياة العامة . ترى رجلاً لم ينجح ابنه في الثانوية العامة ، تراه على السليقة و بشكل لا شعوري و لا إرادي يقول " الحق على الدولة ، لو أن الدولة عندنا عملت كذا و كذا .. لو أن الدولة تبني لنا بيوتاً لتحل مشكلة الشباب ، أو لو أن الدولة تشجع على الزواج ، لو أن الدولة تعالج مشكلة الطلاق ، المفروض أن توظف الدولة جميع العاطلين عن العمل " . و كل هذه الاتهامات الجزافية تأتي على مبدأ المثل القائل (الحق على الطليان) .

أن الخطأ الشائع في الخلط بين المشاكل الأسرية و الاجتماعية الناتجة من رواسب و عفونة الماضي و بين المشاكل التقنية أو الإدارية للدولة ، هو سهل جداً لأنه يعفي المسبب الرئيسي لهذا الخطأ و هو قد يكون رب الأسرة ، أو التربية المنزلية الخاطئة أو التقاليد الاجتماعية البالية ، أو الفشل الذاتي في الدراسة و الحياة . يعفي تلك الجهة أو المصدر من المسؤولية و يضعها على الدولة و بنفس الوقت يجعل منه بطلاً لأنه ينتقد الدولة ، فيظهر بمظهر الموجه أو الشهم أو الناقد الجريء ، بينما هو صاحب العلة و سبب الداء و موطن المرض ، نتيجة للذهنية و التفكير الخاطئ .

ذلك كله ينبع من سوء الفهم النتاج عن الجهل الناتج عن سوء تربية الوعي لدى المواطن و الذي يتحمل مسؤوليته الدولة و الفرد و الهيئات و المنظمات الاجتماعية الخاصة ، معاً . فعلى سبيل المثال القليل من الناس في العالم العربي يدرك أن واجبات الدولة الأساس هي بالخدمات العامة العريضة المذكورة في بداية المقال كشق الطرق و الأمن و تأمين المخزون الغذائي الاستراتيجي و ليس التوظيف و العمالة أو بالوجه الآخر للعملة .. البطالة . القلائل يدركون أن الدولة ليس من مهامها في دول العالم كله التوظيف و التشغيل و ليس منوط بها عرفياً هذه العملية إلا فيما تحتاجه من كادر إداري و عمالي لمنشآتها و مؤسساتها . وبالتالي فإن البطالة هي ليست مشكلة الدولة



أساساً و بالدرجة الأولى بقدر ما هي بنظرنا مشكلة اجتماعية ناتجة عن تخلف المجتمعات و قلة وعيها و تحملها لمسؤولياتها ، و من بعض مسبباتها كثرة الولادات الزائدة دونما مبرر أو وعي لمخاطرها المؤدية إلى الانفجار السكاني . و هو موضوع معقد ناتج عند البعض عن سوء فهم ديني مثلاً . و يحتاج إلى دراسة و بحث مطولين و لا مجال لسرد كافة حيثياته هنا .

بناء عليه و عليه بناء ... فإننا نطرح من هنا و من منطلق التوصيف الدقيق للمشكلة ، قضية صلاح المجتمع و هي بنظرنا مقدمة على قضية و مفهوم صلاح الفرد ، لأن صلاح الفرد بنظرنا ينبثق من صلاح المجتمع . و العكس بنظرنا قد يكون صحيح لكنه غير سليم و دقيق تماماً لأنه و حسب التاريخ و حسب ما نرى الآن ما يحصل في العالم من حولنا و بالذات العالم العربي أو العالم الثالث عموماً نقول (عين الفرد لا تقاوم مخرز المجتمع) و حسبنا الآية القرآنية التي تقول (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) إذ جاء الخطاب الإلهي للقوم و ليس للفرد . و هو ما يلقي بتبعية الأمر على كاهل الدولة هنا و الهيئات و المؤسسات الدينية و الاجتماعية مع رموزها العليا . و ذلك إن كنتم بالله تؤمنون .

لم و لن يلتقش ِ عر[1]



طال شَعري .. فيا ليت شِعري إن طال شَعري و آن أوان جز شعري .. ارتديت سترتي و يممت شطر الحلاق القريب منا .. الوقت ليلاً و المطر خفيف .. أعرف أن هذا الوقت تكون الحركة قليلة و زبائن الحلاق.. هم أيضاً قلة .

ما أن اقتربت من حانوت الحلاق ، حتى وقفت أمامه سيارة رياضية فخمة ، ترجل منها شاب في مقتبل العمر يرتدي ملابس متنافرة الأشكال و الألوان ، و دلف إلى حانوت الحلاقة قبلي . انتابني امتعاض خفيف فلدي موعد بعد ساعة مع صديق ...

دلفت بدوري أنا الآخر ، و لحسن حظي كان آخر زبون قد انتهى للتو من جز شعره و ارتدى سترته متهيئاً للخروج . امتطى الشاب المرفه كرسي الحلاقة بنشوة عارمة كأنه قائد عسكري روماني أو حاكم بيزنطي ..

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠٠٩/٦/١٢ .

حقيقة و كي لا يقع اللوم في هذه النقطة بالذات على أحد ، فإن كرسي الحلاقة يحمل فلسفة عميقة .. إذا نظرت إليه و إلى صناعته تراه مهيئاً لكي يجلس الزبون عليه بطريقة القائد المنتصر .. رافعاً رأسه .. شامخاً للأعلى .. فارداً ذراعيه على منكبي الكرسي الجانبيين بفخر .. ناظراً نظرة فخر و اعتزاز إلى المرآة الموضوعة أمامه .. المرآة الموضوعة خصيصاً لكي ينظر الزبون إلى نفسه نظرة السؤدد طوال فترة الحلاقة .. و هنا مربط الفرس و موضع الجمّال ..... الحلاقة ... هذه المغريات كلها و الشخص يتعرض لعملية حلاقة منظمة ممنهجة و بكل وسائل الحلق و القص و الجز التي عرفها الإنسان .. بدءاً من المقص إلى الشفرة إلى المكنة الكهربائية و أخيراً مسك الختام .. خيط النتف .. (نتف الذقن و ليس شيء آخر) .. كل هذا و الرجل جالس جلسة الحاكم و القائد المنتصر صاحب نظرة السؤدد إياها إلى المرآة التي وضعت خصيصاً له لكي ينظر فقط إلى نفسه و لا ينظر إلى عملية الحلاقة المنظمة الممنهجة إياها و التي تجري له أمام عينيه . حتى اسم (كرسي الحلاقة) له نكهة لذيذة إذا تم لفظه بتدبر .. لاحظوا معي .. كرسي تعني العظمة و المجد و الجبروت و الأبهة و السلطان .. تأتي بعدها كلمة الحلاقة ناعمة لذيذة سلسلة تحمل كل معاني الوداعة و الحنان . فطوبى لك يا كرسي الحلاقة ما أعمق حكمتك و أروع الفلسفة الكامنة فيك .. و عيني رب الذي اخترعك شو أنه ذكي و أبن حـــ ..... لال .



المهم ما علينا .. امتطى صاحبنا الشاب ، الكرسي و اتخذ الوضعية القتالية ذاتها الذي يتخذها جميع من يجلس على كرسي الحلاقة و نظر نظرة السؤدد إياها إلى المرآة التي أمامه بتحد و تمعن . بينما جلست أنا وحدي على أريكة الانتظار و قد توضعت أمامي طاولة تراكمت عليها مجلات كثيرة مختلفة المشارب و الأنواع . وضِعت خصيصاً لإزالة الملل و الكآبة لدى الزوار المنتظرين جز شعورهم و نتف ذقونهم .

بدأ نقاش بين الحلاق و الزبون الشاب .. كأنه كان حول نوع التسريحة التي يريدها الشاب ، الذي كان على ما يبدو يريد شعره واقفاً منتصباً و الحلاق يهز رأسه متفهماً علامة القبول . لم

أهتم كثيراً بالموضوع و أخذت أبحث بين المجلات المتوضعة أمامي ، مقلباً إياها .. متعشماً العثور على ضالتي و ما أبحث عنه ، فما عثرت على ضالتي و ما وجدت ما أبحث عنه . كانت كلها مجلات فنية ذات ألوات متنافرة و خطوط عريضة ، منها ما كتب بلون الذهب و منها ما كتب بلون الفضة .. أوراق مصقولة لامعة ثقيلة ضخمة . أمسكت إحداها و قد أشعلت سيكارتي و بدأت أقلب صفحاتها متصفحاً الوجوه الضاحكة المبتسمة و المواضيع الموجودة فيها ..... آخر أخبار (س) الفنية و خبر طلاق (ع) من (ط) . لقاء مع (واو) كيف بدأ حياته و ما هي أعماله الفنية . مشكلة (تي دبليو إكس) مع (أتش ون إن ون) و كيف تصالحا أمام قالب الكاتوه الكبير و قد أمسك كل منهما ساطور كبير مرعب وصغاه فوق رقبة قالب الكاتوه المسكين و هما ينظرا إلى الكاميرا و يبتسمان ابتسامة الصلح الكبير .. الصلح الذي سوف يحل المشاكل التاريخية الكثيرة التي ضربت الأمة العربية كلها .. (متابعاً تقليب الصفحات و أنا أنفث دخان السيكارة بهدوء) خلاف فلان مع علتان تعاقد فلان مع علتان على حفلة غنائية ، خلاف فلانة مع علتانة .. ارتفاع أجور الفنانة فلانة و الفنان فلان .. إعلان حول سيارة (ريري ريرو) و دعوة للتمتع بقيادتها و قوتها و جودتها و متعة الحياة اليومية فيها ... افتتاح وكالة فيسيسيان للعطورات ... افتتاح فرع جديد لوكالة طوزانتو للأزياء في المدينة الفلانية .. حظك اليوم .. برجك اليوم مع عالِم الأبراج و ليس الصواريخ أو الهندسة ، فلان الفلاني .. لقاء مع خبير التجميل و ليس الخبير الفيزيائي أو الكيميائي ، علتان العلتاني ..



مرت فترة من الوقت و أنا غارق إلى شوشتي (كما المصريين) في المجلة و قد تناهت إلى مسامعي كلمات الحلاق مع الشاب .. كأنه كانت هنالك مشكلة ..... رفعت رأسي عن المجلة الفنية الفاخرة و نظرت . كان الحلاق يقول للشاب أن شعره من الصعب أن يقف و أنه حاول بكل

الطرق أن يوقفه مقترحا عليه تسريحة أخرى . التقت عينه بعيني ، فابتدرته على الفور : خير .. ما هي المشكلة ؟؟ رد بشيء من الإحباط : المشكلة يا أستاذ أنه شعر الأخ

هنا لا يقف .. حاولت بكل المواد و الخلطات و الجلطات و الجيلات ، و لكن يبدو أن نوعه هكذا ... (تابع ممازحاً) هل لديك أنت طريقة لجعل الشعر يقف ؟؟؟؟ قلت له و قد وضعت المجلة الفنية الفاخرة على الطاولة و رافعاً يداي : للأسف طريقة ..... و الله ما عندي ... بس ....

ـــ بس شو أستاذ ؟؟؟؟؟؟؟ (سأل الحلاق بلهفة) .

ـــ عندي قصة لحادثة حقيقية جرت منذ فترة .. ممكن أن توقف شعر أخينا هنا .

ـــ هل هي جريمة قتل ؟؟.... أجبت : كلا .. أبشع

ـــ هل هي جريمة شرف .. اغتصاب .. سرقة ؟؟؟؟!!!!! ..... - لا .. لا .. أبشع

ـــ يرحم أبوك يا أستاذ ، خبرنا .. ما هي هذه الحادثة .

ـــ يا سيدي منذ فترة و في مكان ما من أرضنا العربية و في ضيعة ما من الضيع الضائعة . قدم وفد سياحي أجنبي في جولة سياحية فتجول في أماكن عدة حتى وصل إلى هذه الضيعة الضائعة و ترجل السياح الأجانب من البولمان (حافلة سياحية طويلة) المخصص لهم و أخذوا يتمشون في القرية و جوارها و يتابعون المناظر . و رجال القرية يتابعون السياح و السائحات الشقراوات بفضول و استحسان .. و بهجة و حبور . و لم يكن الدليل السياحي يشرح شيء لأن القرية ليست أثرية بل هي قرية عادية نزل بها السواح ، و مروا مرور الكرام ، كاستراحة لتناول الطعام فقط لا غير . أحد السياح كان معه كتاب فيه خريطة ، جلبه من

بلده و كان ينظر فيه و يتابع المعالم .

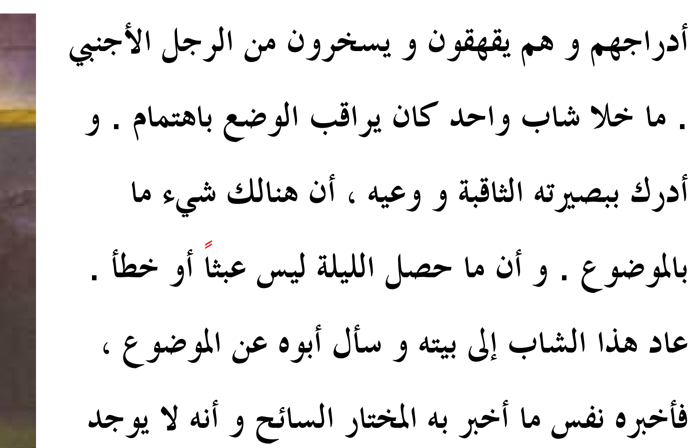


نظر هذا السائح في كتاب الخرائط خاصته ثم قال لرجال القرية : هذه هي الطاحونة القديمة ، أليس كذلك ؟ أجاب القوم : نعم .. نعم صدقت . تابع الرجل جولته في القرية و معه بعض رجالها و أطفالها ثم نظر إلى كتابه و قال : و هنا معصرة الزيتون ؟؟ أجاب الرجال بصيحة واحدة و بإعجاب : نعم .. نعم .. صدقت يا أخا أوروبة .. هذه هي معصرة الزيتون . تابع الرجل و قال و هو ينظر إلى كتابه قائلاً : و خلف هذه التلة يوجد نبع الماء الأزرق ؟؟ صاح الرجال : ياهووووووو .. صدقت .. صدقت يا حنظلة الغرب . تابع الرجل مشيه حتى وصل إلى أرض جرداء قاحلة كلها أحجار و تراب . وقف الرجل و نظر في كتابه و قال : هنا يوجد نبعة اسمها الصنوبرة .. أين هي إنني لا أراها ؟؟؟؟!!! . هنا أجابه أهل القرية باعتزاز : لا يوجد هنا نبعة في هذا المكان .. أنظر ألا ترى أن المكان خال . أجاب السائح بعد أن دقق في الخريطة التي معه : لا .. لا ، يوجد هنا نبعة تسمى نبعة الصنوبرة .... ربما تم ردمها من قبل و أنتم لا تعرفون .. أجابه الجمع : و لكن هنا لا يوجد نبع ماء .. مستحيل .. لو كان هنا نبعة ، لسمعنا بها من آبائنا و أمهاتنا . ربما أنت مخطئ ربما هذه الخريطة التي معك لقرية أخرى أو مكان آخر . نظر السائح إلى كتابه مرة أخرى مدققاً و قال : مستحيل .. أليس هذا المكان هو ساقية الصنوبرة ؟؟!! نعم يا سيدي .. سألهم : أليست هذه التلة التي هناك ، تلة الرومان ؟؟!! . أجاب الجميع : نعم يا سيد ـــ هل أنتم متأكدون من عدم وجود نبع ماء هنا ؟؟؟!!! تدخل المختار الذي كان كبير السن قائلاً : مستحيل يا سيدي ..



إننا نعرف القرية شبراً .. شبراً .. أنا المختار و أنا أكبر الرجال سناً و عمري جاوز الخامسة و السبعين عاماً و لم أسمع بهذه النبع من قبل .. و عندما كنا صغاراً كنا نلعب هنا في هذا المكان و لم يكن يوجد نبع أو غيرها ، و كانت كما تراها الآن .. جرداء قاحلة .. مع احترامي لك ربما يكون كتابك هذا مغلوطاً أو الخريطة التي فيه ليست لقريتنا أو ربما تم إضافة موقع النبع بالخطأ .. فجل من لا يخطئ .. الخطأ وارد عند الإنسان .. خطأ مطبعي أو ما شابه .. و أنصحك بمراجعة الكتاب الذي وزعته عليكم مديرية السياحة فهو الأضمن . و كتابك هذا هو ليس من عندنا بل من بلدكم و نحن أدرى ببلدنا منكم على ما أظن . تمتم السائح بهدوء : نعم .. نعم .. ربما أنت على حق . و لكن نظراته كانت تنم عن حيرة ممزوجة بعدم اقتناع .

بعد تناول السندويتش غادر الوفد السياحي القرية متجها إلى مكان آخر و عاد رجال القرية





أدراجهم و هم يقهقون و يسخرون من الرجل الأجنبي . ما خلا شاب واحد كان يراقب الوضع باهتمام . و أدرك ببصيرته الثاقبة و وعيه ، أن هنالك شيء ما بالموضوع . و أن ما حصل الليلة ليس عبثاً أو خطأ . عاد هذا الشاب إلى بيته و سأل أبوه عن الموضوع ، فأخبره نفس ما أخبر به المختار السائح و أنه لا يوجد نبع ماء . سأل الشاب عمه .. خاله .. جده .. جدته .. الكل أعطوا نفس الجواب .. (لا يوجد غير نبع ماء واحدة في القرية و لم نسمع بهذه الثانية من قبل) . سكت الشاب على مضض و قد اقتنع تقريباً بكلام أهله . و لكن كان هناك شيء ما يؤرقه .. شيء ما يقول له أن هناك خلل ما في مكان ما .. لم يحسم الموضوع نهائياً .



ظل هكذا حتى وقت متأخر من الليل و هو يفكر .. فجأة تذكر أن والد أستاذه في المدرسة الثانوية ، هو أكبر معمر في القرية و عمره قد تجاوز المائة و خمس سنوات . فقرر أن يسأله ... ارتأى بداية أن يؤجل

الموضوع حتى الصباح الباكر . و لكن فضوله كان أقوى من صبره .. لبس ثيابه و خرج من داره ليلاً ، قاصداً دار أستاذه . طرق الباب أكثر من مرة إلى أن فتح له أستاذه و قد أخافه الوضع قليلاً ... خير إيش القصة ، هل حصل هنالك شيء حتى تأتي في هذا الوقت المتأخر من الليل . رد الشاب : هنالك موضوع مهم جداً يا أستاذ و لن يجيبني عليه غير الوالد الكريم أطال الله لكم بعمره ، فهل هو نائم ؟؟؟؟ ــ كلا إنه لا يزال مستيقظاً .. أنت تعرف المعمر لا ينام الليل إلا قليلاً .... عفوا تفضل .. تفضل . دخل الشاب إلى غرفة والد أستاذه الذي كان مستلقياً على سريره . كان واضحاً أنه على شفير الموت و متعب قليلاً . قال له ولده : أبي .. أبتي .. أبتاه .. الشاب هنا يريد أن يسألك سوآلاً إذا سمحت ، قال أنه لا أحد يستطع الإجابة عليه غيرك .

صاح العجوز بصوت ضعيف : ماذا ... لم أسمع شيئاً . صرخ الأستاذ بصوت عال : الشششششششششاب هووووووون يرييييييييد أن يسسسسسسسألك سوآلا . أومأ العجوز برأسه موافقاً فقال الأستاذ للشاب : تفضل اسأله ما تريد ، و لكن ارفع صوتك قليلا كون سمعه ضعيف . قرب الشاب فمه من أذن العجوز : جدي .. هل يوجد في القرية عندنا نبع ماء غير نبع الساحة الرئيسية



؟؟؟؟؟؟؟؟.. ليس بالضرورة الآن ، بل من قبل . فكر العجوز قليلاً و هو مغمض عينيه ، ثم فتحهما قائلاً : و الله يا ولدي أنا لا أعرف إذا ما كان هنالك بئر .. فكل حياتي لم أر نبع غير النبع الرئيسية و لكن عندما كنت صغيراً في الخامسة . كانت جدتي الكبيرة تخبرنا عن بئر قديمة كانت تشرب منها و تغسل ثيابها فيها عندما كانت صغيرة .. و قد جفت بعد ذلك . سأل الشاب بلهفة : و ما اسم هذه النبع يا جدي و أين تقع . صمت العجوز مرة أخرى مفكراً قال : كان اسمها على ما أظن نبع الصنوبرة .... و تقع في .... تلة .... الرومان .. إلى الشمال من ساقية الصنوبر على ما أذكر . (انتهت القصة يا شباب) .

نظر إلي الحلاق و قال : و الله لقد وقف شعر رأسي أنا يا أستاذ . نظر إلي الشاب و قال : لم أفهم شيء و لم يقف لا شعر رأسي و لا غير شعر رأسي .. يعني لا تؤاخذني يا أستاذ . سألته : ألم تفهم شيء من هذه القصة ؟؟ ألم تعني لك و لو شيء واحد ؟؟؟؟؟!!!!! . فكر الشاب ... فكر و فكر ، ثم قتل كيف فكر و في النهاية قال : تعني هذه القصة شيء واحد فقط .. و هو أنه كان يوجد هناك بئر أخرى غير النبع الرئيسية و اسمعها نبعة الصنوبر .. هل يوجد معنى غير ذلك ؟؟!!!!!! .



نظرت إلى الشاب متأملاً إياه بصمت ثم سألته : حضرتك أبو مين .. بلا صغرة ؟؟ . قال : أنا أعزب و لكن سمني أبو مرعي على اسم الوالد . نظرت إليه و أعدت التأمل فيه هنيهة ثم قلت : و الله يا مسكين يا بو مرعي معنى هذه القصة أنه يوجد هنالك من يعرف عنك أشياء لا تعرفها أنت عن نفسك .

و ياااااا مسكين ياااااا بو مرعي هنالك من يقول لك أنا أعرف عنك كل شيء .. كل شيء .. أعرف الذي لا تعرفه أنت عن نفسك .

و يااااااا مسكين يااااااا بو مرعي هنالك من يقول لك أنا أقوى منك و أقدر منك و أستطيع أن ألعب بك و أفعل بك ما أشاء و متى أشاء و كيفما أشاء و بالطريقة التي أشاء .

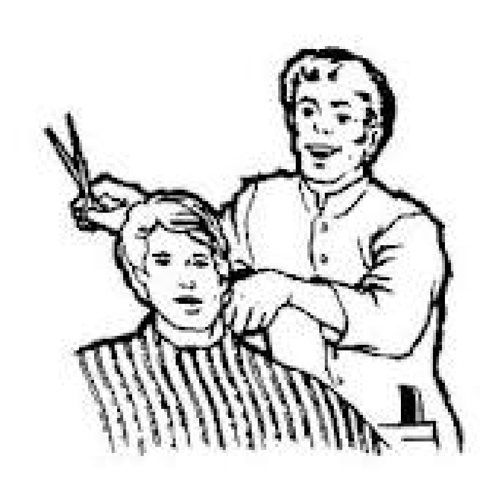
و ياااااا مسكين يااااااا بو مرعي هنالك من يقول لك إنك بحاجة إلى مئات و ربما آلاف السنين لتصل إلى ما أنا عليه من القوة و المعرفة .

و ياااااا مسكين ياااااااا بو مرعي هذا الذي بان و اتضح على مستوى نبع ماء و مستوى سائح عادي بسيط .. و أكيد هنالك أعظم و أخطر من نبوعة ماء في أرض قاحلة مهجورة لم و لن ينكشف و يتضح .. و الله العليم ماذا يوجد غير نبّوعة الماء تلك و لا نعرفه . فهل وقف شعر رأسك الآن يا بو مرعي ؟؟؟؟!!! .



نظر إلي الشاب و بابتسامة واسعة هز رأسه إلى الخلف (علامة النفي) فقلت له : فإذن يا حبيبي ياااا بو مرعي لن تنفع معك كل تسريحات و قصات الأرض مجتمعة و أفضل لك أن تبحث عن تسريحة أخرى . سألني بسخرية : اقترح لي أنت تسريحة يا أستاذ . قلت له : و الله أنا لا أعرف شيء عن التسريحات و لا علاقة لي بكل هذه المواضيع . و لكن أمامي هنا على الطاولة مجلة فنية فيها مقال عن مطرب اسمه مصاري و يبدو أن تسريحته جميلة بدليل قرعته الملساء . صاح الشاب بهجة : نعم .. برافو عليك يا أستاذ (ثم نظر إلى الحلاق مخاطباً) اعمل لي تسريحة مصاري . أومأ الحلاق برأسه موافقاً ثم وضع المقص من يده و التقط مكنة الحلاقة الكهربائية و بدأ بجز شعر أبو مرعي الذي اتكأ إلى الخلف و رفع ظهره كقائد روماني منتصر ، و أخذ يحدق بالمرأة بتحد و سؤدد و قد بدأت قرعته تبيض مع تقدم مكنة جز الشعر الكهربائية فوقها . نظرت إليه متأملاً قرعته و قلت في نفسي .. عيني ربك يا مخترع كرسي الحلاقة شو أنك ابن حـــ ...... لال .

انتهى الشاب من الحلاقة و غادرنا مودعاً بعد أن صافحني بحرارة ، و جاء دوري أنا ، فقمت من مجلسي و جلست على كرسي الحلاقة و قد رفعت ظهري و رأسي أنا الآخر كقائد روماني (بناء على طلب الحلاق) و حدقت بالمرأة بتحد و سؤدد .. و ما لبثت بعدها أن انفجرت ضاحكاً . صاح الحلاق : خير يا أستاذ هل هنالك شيء ؟؟؟؟!!!! . ضبطت نفسي بوقار و أرجعت رأسي مرة أخرى للخلف و قلت بشيء من الجدية : لا .. لا .. لا شيء ، لقد تذكرت شيئاً خاصاً .. باشر العمل من فضلك . هز الحلاق برأسه و عاد مرة أخرى للعمل . و لكنه ما أن أمسك برأسي حتى اتكأت إلى الأمام مغشياً علي من الضحك . فصاح الحلاق و هو يضحك : يرحم أبوك يا أستاذ ، إيش اللي عم بيضحكك .. ضحكني معك يا رجل .. تكسب ثوابي ... قلت له : و الله يا صديقي الطيب ، يبدو أنني لست بحاجة للحلاقة اليوم أعود إليك في يوم آخر . إلى اللقاء .. نزعت الروب الأبيض و غادرت المكان و أنا أترنم مغنياً : يا مسكين يا بو مرعي شو سمعك تقيل و مخك سميك و عقلك خفيف ... يا مسكين يا بو مرعي شو بدك فت خبز و نخالة و شعير كتير .



جائزة الآيرز كورز للعلماء و المفكرين العرب[1]



الجو حار و الهواء رطب ، عدت إلى المترل مساءاً و كلي تعب و إرهاق . و قد بدأ السماط يضرب أطنابه فيما بين الفخذين . كنت متعرقاً جداً ، و ما لبثت أن جهزت الحمام لأخذ دش فاتر لا بد منه خرجت من الحمام ببطء شديد و أنا ألتحف البرنس و أمشي الهوينى ، تماماً كما يفعل القط (توم) في سلسلة الأطفال (توم و جيري) عندما أوهمه الفأر جيري أنه مريض و أجرى له سلسلة من العمليات ، آخرها حمام ساخن . تناولت وجبة عشاء خفيفة و استلقيت على الأريكة متثائباً و أنا لا أزال ملتحفاً البرنس التقطت الريموت كونترول و أخذت أقلب المحطات الفضائية حتى وصلت إلى إحداها ، فصاحت بي زوجتي : لحظة .. لحظة توقف هنا .

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠٠٩/٦/٧ .

منصاعاً للأمر ، توقفت و أخذت أتابع المشهد .. كان عبارة عن برنامج لجائزة مشهورة لتكريم الفنانين مع موسيقى صاخبة ضاجة متماوجة ما بين قرع الطبول و النغمات الحماسية المتصاعدة ، يأتي خلالها مقدموا البرنامج ، يتحدث أحدهما عن إنجازات الفنان الفائز و إنجازاته و إبداعه . و يكون ذلك بالأغاني التي غناها أو الأدوار التي مثلها أو الأفلام و المسلسلات التي أخرجها أو الموسيقى التصويرية التي اخترعها و ما إلى ذلك .... ثم و بحركات متعالية متسارعة لشد الانتباه و اللعب بأعصاب الجمهور الحاضر المتحلق حول موائد الطعام الفاخرة الحاوية على ما هو مستلذ و مستطاب ، و بعد طرح أربعة مرشحين لنيل الجائزة ، يصيح المقدم : الفائز هو .. هو .. هوووواااا .... أبو حمودة . . فيتعالى الصراخ و التصفيق و الصفير من الجمهور ، و يخرج أبو حمودة أو تخرج أم حمودة (إذا كانت أنثى) بارزاً من بين الجمهور ، و قبل أن يصل إلى المنصة يستدير منحنياً للجمهور بأدب جم و يتابع إلى المنصة ليستلم جائزته و يقف أمام المايك و بطريقة مؤثرة يقول : اهدي جائزتي إلى الذي وقف بجانبي و دعمني و كان نبراساً و ملهماً لي و هو أبي أو أمي .. أختي .. ستي .. جدي .. أو ما بعرف مين .



بهدوء و صمت تناولت الريموت كونترول و قد انتابتني حالة من الضيق و المرارة . و ما أن وضعت يدي عليه ، حتى هبطت يد زوجتي فوق يدي ممسكة إياها بحزم صائحة بي : مكانك .. ما تريد أن تفعل ؟؟ أجبتها : أريد أن أغير المحطة .

ــ أعوذ بالله ... مستحيل

ــ و لكن هذا البرنامج غير مفيد و يوجد برامج أخرى كثير مفيدة أكثر منه .

ــ أعوذ بالله .. هذا أهم برنامج .

ــ لكن يا حبيبتي أنا آخر همي أن أعرف من فاز بجائزة أفضل أغنية أو دور أو فلم أو إخراج .

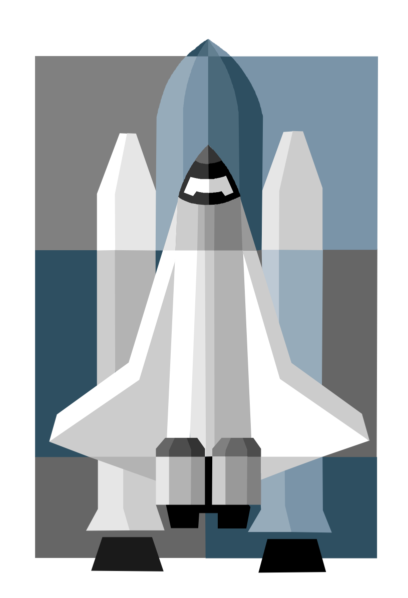
ــ لكن يا حبيبي أنا أول همي أن أعرف .

ـــ لكن يا حبيبتي .....

ـــ مستحيل أن تغير المحطة و السماء زرقاء و السحب بيضاء و القمر مضيء و الشمس منيرة .

سلمت أمري إلى الله سبحانه و تعالى و تابعت مشاهدة البرنامج . كان النعاس قد بدأ يجد طريقه إلى جفوني التي تنزل إلى الأسفل ، ثم تجفل مفتوحة إلى الأعلى .

فجأة قطع البرنامج و ظهر مذيع على القناة نفسها يقول : أعزائي المشاهدين ننتقل بكم الآن إلى المقر العام لهيئة العلماء و المخترعون العرب لحضور حفل تكريم العلماء العرب و توزيع جائزة الآيارز كورز العلمية .



كان هنالك جمهور غفير من كل حدب و صوب و موسيقى حماسية . فركت عيوني غير مصدق و اعتدلت في مقعدي و أنا أتابع باهتمام بالغ . أعلن المقدم بدء الحفل قائلاً : أعزائي الحضور من كل أنحاء الوطن العربي و كل الشعوب العربية في الأقطار كافة و الذين يتابعونا الآن نقدم لكم حفل جائزة الآيارز كورز للإنجاز العربي العلمي و الإبداع في ميادين الحقول كافة ، العلمية منها و التقنية و الطبية و التكنولوجية ، نبدأ حفلنا الكريم هذا بتكريم العالم العربي الكبير (أحمد) على إنجازه الكبير باختراع أول قمر صناعي عربي كامل يستطيع نقل المحطات الفضائية كافة و يستطيع دراسة الأرض و التغيرات المناخية فيها . تقدم العالم من بين الحضور .. اقترب من المنصة و لكنه كان يبكي بدل أن يبتسم و يضحك . أمسك جائزته التي كانت عبارة عن قضيب أسطواني أسود مدبب من الأعلى و قال : أهدي جائزتي هذه لكل الذين كان من المفترض أن يشجعوني و يقفوا إلى جانبي و لا يحبطوني .. الذين كان من المفترض أن يكون فيهم ذرة عقل ليقدروا التعب الذي تعبته و ليالي الشقاء و الفقر و الإحباط و الشماتة و التحقير .. شكراً .

عاد مقدم الحفل ليعلن عن الفائز الثاني قائلاً : الفائز هو العالم العربي (سعيد) الذي قام بتصنيع قمر صناعي قادر على مسح طبقات الأرض و سبر المياه الجوفية فيها و المعادن و غيرها ، فليتقدم

مشكوراً . برز من بين الحضور رجلاً أشيباً مقوس الظهر .. اقترب من المنصة و هو يبكي و بعد أن استلم جائزته قال الكلام نفسه الذي تكلم به سلفه .



أعلن مقدم الحفل عن الفائز الثالث : اليوم نكرم عالماً عربياً كبيراً ، هو عالم الصواريخ (منذر) و هو الذي صنع و أنتج الصاروخ العربي الذي حمل الأقمار الصناعية السالفة إلى الفضاء و استفاد منها العرب أيما استفادة فليتفضل مشكوراً . تقدم رجل مقوس الظهر .. مهموم الوجه و الملامح .. كئيب السمات .. يذرف الدموع بحرقة . اقترب من المنصة و استلم جائزته إياها و قال نفس ما قاله سلفيه ، لكنه هذه المرة أضاف عبارة (و الهرب من الموت و الاغتيال) .

تابع مقدم الحفل : جائزتنا الآن لعالم عربي كبير أمضى حياته في العلم و تخص في مجال الإلكترون و استطاع اختراع أجهزة رقمية فائقة الدقة . فليتقدم مشكوراً . تقدم الرجل و كان شبيهاً بأسلافه من حيث الشكل و البكاء و الكلام .

الجائزة التالية لعالم الرياضيات و الحساب المدعو (حسبي الله و نعم الوكيل) الذي اخترع نظرية جديدة في الرياضيات أسهمت في تقدم هائل بمضمار العلم و التكنولوجيا . تقدم الرجل بالمظهر إياه و البكاء إياه و الكلام إياه .

وقف مقدم الحفل و قال : جائزتنا اليوم هي لمبدع عربي قل نظيره ، إنه العالم العربي الكبير (ماجد) الذي توصل إلى تقنية جديدة تمثلت في نقل الكهرباء لاسلكياً و بالتالي الاستغناء عن الكابلات كلها و خطر الموت صعقاً و هو إنجاز عالمي فريد من نوعه فليتفضل مشكوراً . تقدم الرجل الأشيب ذو الظهر المقوس كان هذه المرة يبكي دماً و همطل من عينيه دموع حمراء لطخت ثيابه البيضاء الطاهرة الشريفة . أمسك القضيب الأسود المدبب و لفظ الكلام إياه و غادر كالآخرين .

الجائزة الآن (قال مقدم الحفل) هي للعالم العربي الكبير (محمود) الذي استطاع الوصول إلى تقنية متطورة جداً تمثلت في تطويع الالكترونات الموجودة في الذرة و إعطاؤها وجهة سير مسبقة عن طريق برمجتها و هو إنجاز لم يصل إليه أحد حتى الآن . و هذا سيفتح مجالا واسعاً لإنجاز بشري غير مسبوق . فليتفضل عالمنا الجليل و يستلم قضيبه الأسود . تقدم الرجل الشبيه بأسلافه العلماء و ببكاءه و كلامه المعهودين استلم جائزته و غادر .

الجائزة الآن لعالم عربي كبير هو العالم (جورج) الذي توصل إلى إنجاز كبير في عالم الطب و الشيفرة الوراثية . فليتقدم مشكور . تقدم السيد جورج الباكي ذو الظهر المقوس و لفظ كلام أسلافه و استلم جائزته .

الجائزة التالية هي لعالم الميكانيك العربي (بطرس) الذي توصل إلى اكتشاف نظرية حركة الجسم بواسطة الطاقة الذاتية فيه ...



التالية للعالم العربي الكبير .... الذي .... و حيث .... كان إنجاز ....

التالية للعالم العربي ...

التالية .... التالية ....

استيقظ ... استيقظ ... حبيبي .. بعلي .. استيقظ . كانت يد زوجتي تهزني . استيقظت و فتحت عيوني بدهشة و استغراب قائلاً : ماذا ؟؟ ماذا حصل ؟؟

ـــ لقد غفوت يا حبيبي .. هيا قم و اخلع برنس الحمام و البس ثيابك .

نظرت إلى التلفاز ، كان الحفل في نهايته و فيه فقرة تكريم أحد المهرجين و التحدث عن براعته في التهريج . نظرت إلى زوجتي و قلت لها : كلا .. لا أريد .... سأبقى هكذا بالبرنس .

ـــ و لكن يا حبيبي لا يجوز .. عالقليلة البس الكلسون ... أنت عار بالظلط .

ـــ كلا لا أريد أفضل أن أبقى هكذا بالظلط و بلا كلسون .

ـــ و لكن يا حبيبي عيب قد يأتي ضيوف فهل ستبقى هكذا بلا كلسون

ـــ نعم سأبقى هكذا بلا كلسون .. هكذا أشرف لي .. و سأتابع برنامجك المفضل هذا بلا كلسون ، و ليأتي الضيوف و يروا الـــ و الـــ خاصتي ، و اللي ما عجبه يروح ينطح الحيط .

ـــ لا حول و لا قوة إلا بالله ... أنت حر .. لقد جن الرجل .

فكرت في نفسي و قلت .. أليس من المعيب أن يتم حقننا و على مدار الساعة ببرامج التكريم للغناء و التمثيل و التطبيل و التزمير. إن عملية التضخيم و التطبيل لهذا التكريم قد أضحت واضحة و مفضوحة ... عملية تفريغ العقل العربي من مضمونه . ليس عيب أن يكون هنالك غناء و تمثيل كما هو الحال في كل دول العالم ، و لكن العيب أن يكون الغناء و التمثيل هما أساس و عماد الصناعة و الفكر العربيين . و يبدو أن هذين المجالين .. الغناء و التمثيل قد أضحى و أمسى على كل مواطن عربي أن يكون خاضعاً لسلطانهما و تحت لواءهما . كيف يقبل هؤلاء أن يحصلوا على جوائز لأجل لا شيء .. لأجل شيء أصبح الجميع يعرف أنه فارغ و عقيم ، و هنالك علماء في العراق يقتلون يومياً دونما حس و لا خبر بهم و علماء يهاجرون و يهربون إلى الغرب حيث يتم تكريمهم و احتضانهم و علماء و مفكرون مداس عليهم في بلادهم . القط توم عندما خرج من الحمام و عرف الخديعة نظر في المرآة و رأى نفسه على هيئة حمار . و بإذن الله و إذا قدر الله ، لن نر أنفسنا حمير .

صحيح أن الذين استحوا قد ماتوا

مررت على الفضيلة و هي تبكي   فقلت علام تنتحب الفتاة

فقالت كيف لا أبكي و أهلي   جميعاً دون خلق الله قد ماتوا

أولئك المؤلفة قلوبهم[1]



المؤلفة قلوبهم هو مصطلح إسلامي ورد ذكره في القرآن الكريم ، و من ثم تناقلته كتب السنة و الحديث . و قد اتفقت المذاهب الإسلامية الرئيسة و أمهات الكتب الفقهية فيها على أن المؤلفة قلوبهم ، هم القوم الذين كانوا في حرب مع الرسول (ص) و دخلوا الإسلام حديثاً لكنه لم يثبت في قلوبهم و عقولهم بالقدر الكافي ، فبقوا متأرجحين مقلقلين ، و هم سادة قومهم و أشراف عشيرتهم و لهم شأن فيها فلذلك أعطوا قسم من المال كضمان لثباتهم و عدم ميلهم للشرك مرة أخرى . أو هم من الذين لم يدخلوا الإسلام و لكنهم مستعدين لممالأة المسلمين و مساعدتهم و

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠٠٩/١٠/٩ .

تقديم خدمات معينة لهم لقاء قدر من المال يقدم لهم . أو من ظهر منهم ميل ورغبة في الإسلام ممن لهم أتباع يسلمون بإسلامهم ولهم أثر في نصرة الإسلام والمسلمين .

و قد ورد ذكر المؤلفة قلوبهم في القرآن في الآية {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (٦٠) سورة التوبة .

أما في الكتب الفقهية فقد ورد التفسير لهذا المصطلح الوارد في القرآن على نواح عدة منها على سبيل المثال لا الحصر ما جاء في صحيح البخاري قال النبي صلى الله عليه وسلم (إني أعطي قريشا أتألفهم لأنهم حديث عهد بجاهلية) (البخاري – ٣١٤٦) و في صحيح مسلم ٢٤٨٣ عن الرسول (ص) (إني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتآلفهم) .

و عن الإمام جعفر الصادق : أن المؤلفة قلوبهم قوم وحدوا الله و خلعوا عبادة من يعبد من دون الله و لم تدخل المعرفة قلوبهم و أن رسول الله (ص) كان يتآلفهم و يعرفهم لكيما يعرفوا و يعلمهم . (الكافي – باب المؤلفة قلوبهم) .

و في رواية أخرى : هم قوم وحدوا الله عز و جل و خلعوا عبادة من يعبد من دون الله و شهدوا أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله ، و هم في ذلك شكاك في بعض ما جاء به محمد (ص) . فأمر الله عز و جل نبيه (ص) أن يتآلفهم بالمال و العطاء لكي يحسن إسلامهم و يثبتوا على دينهم الذي دخلوا فيه و أقروا به و أن رسول الله (ص) يوم حنين تآلف رؤساء العرب من قريش و سائر مضر . (المصدر السابق) .

و قد ورد في مصادر السيرة التاريخية أن طرح مفهوم المؤلفة قلوبهم جاء في فترة حرجة بالنسبة للدين الإسلامي كان فيها في بدايته و لم يقو عود المسلمين و دينهم . و كانت الأخطار تتهددهم من كل حدب و صوب . لكن و عندما قوي عود الإسلام و اشتد ساعده و أصبح المسلمون في وضع يمكنهم من صد أي خطر يتعرضون له ، قام الخليفة عمر بن الخطاب بإيقاف العمل بهذا المفهوم و وقف المساعدات عن الذين كانوا مشمولين ضمن أحكامه و قد جاء في سنن البيهقي : جاء عيينة بن حصن والأقرع بن حابس إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالا يا خليفة رسول الله صلى

الله عليه وسلم إن عندنا أرضا سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة فإن رأيت أن تقطعناها لعلنا نزرعها ونحرثها فذكر الحديث في الإقطاع وإشهاد عمر رضي الله عنه عليه ومحوه إياه قال فقال عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتألفكما والإسلام يومئذ ذليل وإن الله قد أعز الإسلام فاذهبا فاجهدا جهدكما لا أرعى الله عليكما إن رعيتما .

ما يمكن قراءته مما سبق ذكره أن مفهوم المؤلفة قلوبهم وضع أساساً لأناس خيف عليهم أن يرتدوا إلى الشرك أو حظيرة الكفر بسبب كونهم لم يتمكن الإسلام من عقولهم و كونهم حديثي عهد به و لهم ميل من الأساس لدينهم و عباداتهم السابقة . أو هم ليسوا مسلمين أصلاً و دخلوا أو إدخلوا في حكم المؤلفة قلوبهم بسبب خدماتهم للإسلام أو ليدخلوا به و هم بالأساس أناس ليسوا بحاجة إلى المال كونهم أغنياء أولاً و كونهم وجهاء قومهم و أشياخ عشائرهم . و جاء ذلك في فترة مؤقتة كان الإسلام محتاجاً فيها لهؤلاء . فالعلاقة هي علاقة مصلحة متبادلة انتهت بانتهاء أسبابها علماً أن هذا المفهوم لم يرد بالقرآن الكريم بالمعنى التفصيلي الواضح بل ورد فقط بعبارة وحيدة مقتضبة هي عبارة (المؤلفة قلوبهم) .

طبقاً لما سبق ذكره فإنا لنا رأياً في مفهوم (المؤلفة قلوبهم) و وجهة نظر . و هو أن هذا المصطلح له بعداً أو تعريفاً ثالثاً غير التعريفين الأوليين و بما أن هذين التعريفين كانا مؤقتين حسب السير التاريخية الدينية و الفقهية و أن الخليفة عمر بن الخطاب اجتهد من منطلق هذا المفهوم اجتهاداً صحيحاً لا غبار عليه كون هؤلاء أغنياء و لا حاجة بهم للمال الذي غيرهم أشد حاجة منهم له . و بما أن القرآن الكريم هو من منظور الفقه الإسلامي كلام الله الدائم ، فإنه لا بد من أن يكون اليوم لمصطلح (المؤلفة قلوبهم) موضع و حيز للتنفيذ و هو بنظرنا الآتي :

المؤلفة قلوبهم هم أناس شرفاء مؤمنون بالله تمام الإيمان و مخلصون لدينهم و إسلامهم كل الإخلاص و هم ليسوا من علية قومهم بل من علياؤهم .. ليسوا من أشرافهم لكنهم من شرفائهم .. مطلعون على مجمل المعارف ، بل و ممكن أن يكونوا من المفكرين و المثقفين . و لكن .. و لكن (حرف استدراك) .. لا يملكون المال الكافي لتحسين أمورهم و تيسيرها و أوضاعهم المالية و



الاقتصادية تحت درجة الكفاف و الفقر . و هم كما ورد ذكرهم في القرآن الكريم (تحسبهم أغنياء من التعفف) .

و هم قد يصلوا إلى درجة من الضيق .. أو التضييق المتعمد عليهم .. تجعلوهم يقتربون إلى حد الكفر أيضاً و لذلك وجب دعمهم بالمال و هو ما نراه اليوم و على ما يبدو و يظهر فأن المطلوب اليوم هو الكفر عن طريق التضييق المادي و المعنوي على الفئات المثقفة المفكرة المتعلمة .. أي على فئة المؤلفة قلوبهم في العصر الحالي .

هذه القضية تتضح لنا بشكل أكثر تبلوراً و تحديداً للأبعاد و الأطر إذا علمنا أن قضية ارتباط الفقر بالكفر هي قضية موجودة منذ القدم و ترافق وجودها و الإشارة لها حتى في الكتب الفقهية الدينية . فقد جاء في سنن أبي داود و النسائي و غيرها حديث الرسول (ص) : اللهم إني أعوذ بك من الفقر و الكفر . . و حديث (إذا ذهب الفقر إلى بلد قال له الكفر خذني معك) . و حديث عن الإمام علي بن أبي طالب عن الرسول (ص) : كاد الفقر أن يكون كفراً . و حديثه أيضاً (الفقر طرف من الكفر) .



إن الإنسان قد يصل إلى مرحلة من الضيق أو التضييق المادي المتعمد أحياناً و يرى بالوقت ذاته المال بيد من ليس هو أهل له و بطريقة فاحشة مبتذلة بشكل متعمد مقصود .. نقول متعمد مقصود لأن الله تعالى أمر للمؤلفة قلوبهم حق الانتفاع المادي و جعل ذلك فريضة لهم . و هم في عصرنا هذا و بنظرنا الكاتب و المثقفين و كل المفكرين الهادفين و كل صاحب فكرة بناءة هادفة في الحياة و المجتمع .

يقول مظفر النواب في قصيدة له :

هذا طينك (الإنسان) يا الله يموت به العمر

ويشتعل الكبريت جنونا

هذا طينك قد كثرت فيه البصمات

وافسق فيه الوعي سنينا

هذا طينك .. طينك .. طينك

تتقاذفه الطرقات بليل المنفى والأمطار

دلتني الأشعار عليك

فكيف أدل عليك بجمرة أشعاري

لا تلم الكافر في هذا الزمن الكافر

فالجوع أبو الكفار

مولاي أنا في صف الجوع الكافر

ما دام الصف الآخر يسجد من ثقل الأوزار .

و ما يزيد الطين بلة عندما يرى إنسان شريف جرب حظه من الحياة فرأى التضييق عليه من كل جانب و رأى الجاه و المال بيد من هو نكرة جاهل تهطل الأموال عليه بطريقة مقصودة واضحة هي نتاج لمخطط موضوع منذ أمد بعيد فيقول مع ما قاله الشاعر في العصر العباسي :

إذا كان لايَحظى برزقكَ عاقلٌ	وترزقُ مجنونًا وترزقُ أحمقــا
فلا ذنبَ ياربّ السماءِ على إمرىءٍ	رأى مِنكَ مالا يَشْتهي فتزندقا

هؤلاء هم المؤلفة قلوبهم و لهذا أمر الله تعالى بإعطائهم حقوقهم صوناً لهم و لإيمانهم . و نقول لمن يمنع عنهم حقهم الآن

أضعف الضعفاء .. قوي يحارب ضعيف بالخفاء .

التكريم على طريقة البوكر[1]



تطالعنا في الصحف و الدوريات و الفضائيات ظاهرة التكريم للفنانين أو المبدعين أو المفكرين . و هي ظاهرة كانت موجودة من قبل و لكن ليست بهذه الضخامة و الكم و هذا الترويج الإعلامي الدعائي الذي نراه الآن . و ما يهمنا في معمعتنا هذه ، ليس موضوع و قضية التكريم بحد ذاته بل الطريقة التي يطرح بها و يتم بموجبها هذا التكريم (و الحالة الشائعة هنا هي حالة الفنانين) . و شروط عملية التكريم السليمة بنظرنا مرهّنة بالمعايير التالية :

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠٠٩/١٢/٦ .

١) - التكريم يجب أن يقع على شخص حي . فالفنان أو الممثل الذي يتوجب تكريمه يجب أن يكون حياً يرزق و موجوداً بذاته و عيانه أو ينوب وكيلاً عنه في حال تعذر حضوره لمرض أو طارئ أو مانع قسري معين . و ليس شخص متوفى منذ فترة طويلة .

٢) - الفنان موضوع التكريم يجب أن يكون له تاريخ قديم في الفن أو التمثيل و على مستو واسع من الشهرة و له أعمال فنية متعددة . و ليس حديث الشهرة حتى و إن كانت قوية . فالزمن بنظرنا هو عامل مهم في قضية التكريم لأنه تعبير عن الأصالة و القدم و العتق تماماً كما اللوحة أو التحفة الأثرية .

٣) - التكريم يجب أن يختص به الشخص موضوع التكريم فقط بحيث يعرف أنه هو صاحب التكريم دوناً عن الغير فلا يكرم فنان أو مفكر مثلاً و يكرم معه مجموعة من الفنانين أو الأدباء أو ما شابه بحيث تضيع الطاسة و يغرق هذا الفنان في بحر متلاطم من الأسماء الأخرى التي تغمره .

٤) - التكريم عادة يكون محكوماً بالعلاقة التوافقية بين المكرَم و المكِرم ، فكلما كان الشخص موضوع التكريم مرتق إلى درجة عالية من القدم و العراقة و النتاج الفني أو العلمي أو الفكري أو الأدبي ، كان الشخص المكرِم على نفس السوية أو أعلى و يفترض أن يكون أعلى عادة (رئيس جمهورية – ملك - رئيس وزراء .. و ما شابه) و عادة أيضاً يقلد الشخص المكرَم وساماً رسمياً يمثل البلد أو الدولة .

و ما يجري الآن في بعض الميادين و الأوساط ، هو طرقة مخزية للتكريم ، و مهينة و تعبر عن استهزاء و جهل كبيرين بحق المكرَم من قبل المكرِم ، و بنظرنا هي طريقة مقصودة للإساءة إلى الشخص المكرَم .
و أشهر طريقتين للإساءة إلى الشخص موضوع التكريم هما :



الأولى : التكريم بطريقة مبتذلة بحيث يكرم مع الشخص مجموعة أشخاص من بني جنسه المهني و لكن من مرتبة أدنى بدرجات عدة و ذلك لكسر قيمة و قدر ذلك الشخص ، فضلاً أنه يعطى بعد عمر طويل من العطاء و الشقاء و التعب المضني سواء في الأدب أو التمثيل أو المسرح أو الفكر أو التربية ، يعطى شهادة من الورق المقوى لكي ينقعها ويشرب منقوعها بعد غليه مع السحلب و اللوزينج ، كما يعطى علبة صغيرة فيها ولاعة أو قلم أو علكة شيكلس .

الثانية : تكريم الشخص المستحق للتكريم حصراً بعد وفاته ، أما قبل وفاته فهو لا يجوز عليه التكريم و تكريمه محرم شرعاً و فقهاً حتى و لو كان مخترع للقنبلة الذرية الفنية أو الأدبية أو الفكرية ، وفي نطاق حياته يكون في طي النسيان و مهملاً ، أكان ذلك على المستوى المهني حيث لا دور يحصل عليه و لا عمل يعيش منه حتى في مجاله هو .. أم على المستوى الاجتماعي حيث يكون مهملاً و يكون تحت نير تقصير إعلامي قاتل و الأضواء غير مسلطة عليه . بعد وفاة هذا الشخص تفتح فجأة الأنوار و البلجتكورات عليه ، تماماً كما يحصل عند إضاءة ملعب فارغ

كرة القدم في ليلة ليلاء .. مقمرة سوداء . و يتم التحدث عن مزايا الفقيد الراحل و أعماله و آثاره و تظهر في أعمدة الصحف مقالات عناوين مثل (و أخيراً ذهب أبو حمودة – وداعاً أبو حمودة – أبو حمودة وداعاً – أبو حمودة يترجل عن جواده – أبو حمودة يمتطي جواده – أبو حمودة

في ذمة الله – آثار أبو حمودة في المسرح أو الأدب أو الفكر أو الفن ... الخ) . بينما أبو حمودة (و يا شحّار أبو حمودة) يكون مغموراً و مريضاً و في حالة من الضيق و الضنك لا يجد فيها من يمد له يده و يقف معه في محنته أيام وجوده حياً يرزق . منذ مدة ليست قريبة ، كنت في زيارة لأحد أصدقائي أبارك له مكتبه الهندسي الجديد ، فشاهدت مقابلة تلفزيونية على إحدى الفضائيات مع أحد الأشخاص الذي كان مذيعاً مشهوراً و صحفياً و معد برامج في آن

معاً فدار بيننا الحوار التالي .. قلت له :

ــ يااااه .. منذ مدة طويلة جداً لم أر هذا الرجل في التلفاز . يبدو أنه قد عاد للعمل مرة أخرى .

ــ و الله يا حبيب هذا الرجل أعطاك عمره قبل ثلاثة أيام .

ــ العمى ....!!! منذ ثلاثة أيام ؟؟؟!!!

ــ أي والله يا غالي .. منذ ثلاثة أيام .

ــ و ما قصة هذه المقابلة معه هل هي إعادة أم ماذا ؟؟!! .

ــ لا والله يا حبيب ... قال يا سيدي .. هذه تكريم له بعد موته عرضوها الآن و لأول مرة .

بعد يومين جرى للرجل حفلة تكريم في أحدى المكتبات الثقافية .

منذ مدة أيضاً قرأت في بعض الصحف إعلان عن تكريم أحد الكتاب و الباحثين ، و عند متابعتي القراءة ، فوجئت بأن هذا الرجل قد توفي منذ سبعين عاماً . و سوف يعاد تكريمه الآن في أحد المراكز الثقافية . و هي ظاهرة قد وجدت لها مكاناً في الوقت الحالي على ما يبدو .

هذه القضايا تذكرني بقصة الرسام الهولندي الشهير (فنسنت فان كوخ) الذي مات فقراً و جوعاً و برداً دونما سلاماً . و انتظره الذي انتظره في حياته ، حتى وفاته ليجعله في مصاف المشهورين و العظماء و لكي تباع لوحاته





بالملايين من الدولارات ، و قبل حياته وصل إلى مرحلة من البؤس و الشقاء و النبذ من قبل الناس و المجتمع ، قيل أنه قطع فيها أذنه و قدمها لحبيبته التي هجرته لبؤسه .

منذ فترة عرضت إحدى الفضائيات فلماً وثائقياً عن (فنسنت فان كوخ) و كيف تباع لوحاته بأسعار خيالية ، ثم عرضت زوار قبره و كانوا جمهرة من الناس منهم من يلقي الزهور على ضريحه و منهم من يغني أغاني حزينة . لفت نظري أحد الشبان الذي أمسك كيتاره و أخذ يعزف عليه و يترنم بحزن قائلاً بصوت حاد ناعم (ميييييييي ... بيييييييي ... تيييييييي) لم أتمالك نفسي فانفجرت مغشياً علي من الضحك (شر البلية ما يضحك) .

إنني أتساءل .. ما هو مغزى تكريمي و ما هي فائدة ذلك في حساب موتي ؟؟؟!!! ما هو جدوى تكريمي و التحدث عن مناقبي و فضائلي في حساب موتي و فنائي و في حساب أنني كنت مهملاً طوال حياتي . الإنسان عندما يموت يكون قد غادر هذه الدنيا و رحل عنها و تركها إلى الأبد .. هل حياة شخص ما نقيصة و عاراً عليه و على من يريد تكريمه ليكون مماته شرفاً و داع لتكريمه و مديحه و تمسيح جوخ كفنه ؟؟؟!!! .

لماذا مطلوب من شخص ما أن يفعل في حياته كما فعل (فنسنت فان كوخ) لا بل أكثر .. يقطع أذنيه و يقطع يديه و يقطش (.......) من الحاجة و الإهمال حتى يكرم في مماته تكريم الأبطال .

زعموا أن .... لحظة لحظة ... ليش زعموا ؟؟ ... أنا زعمت .. طالما أن القصة من مخيلتي ..



زعموا أن رجلاً كان مسافراً في الصحراء و تاه على ما يبدو في الطريق ، أو كانت المسافة طويلة . فانقطع زاده من الطعام و الماء ، و نفق حماره من العطش بعد أيام عدة ، و سقط هو أرضاً من العطش و ظل هكذا حتى وصل إلى مرحلة أخذ يحتضر بعد أن انقطع عنه الماء لفترة طويلة .

و صودف أن مرت قافلة بالقرب منه فرأى قائدها من بعيد رجلاً مطروحاً على الأرض ، فأمر

القافلة بالتوجه نحوه . كانت القافلة تحتوي ثلاث جمال محملة بصهاريج الماء الجلدية . وقف قائد القافلة أمام الرجل و سأله : ما بك يا أخي ؟

أشار الرجل إلى فمه بصوت ضعيف خافت من التعب و العطش : ماء ... ماء ... أريد ... ماء .

قال صاحب القافلة : ألا تعلم يا أخي وفقك الله أن هذه الصحراء شاسعة و طويلة فلما لم تتزود كفاية من الماء ؟؟ .

أشار الرجل مرة أخرى إلى فمه مستغيثاً : ماء ... ماء ... أريد ... أريد ... ماء .

أجاب قائد القافلة : سامحك الله يا أخي و وفقنا و إياك إلى مرضاته .. لو أنك تزودت بالماء لما وقعت في هذا المحظور .. فالعاقل يا أخي الحبيب هو من يحسب حساب الأمور .. بالله عليك كيف فاتك أن تتزود كفايتك من الماء .



رد الرجل بإعياء و تعب : ماااااااء ... مااااااء ... ماااااعع .. ماععع .

قال صاحب القافلة : يا حسرتي عليك .. و الله إن قلبي ينفطر ألماً و حزناً و يتقطع لوعة .. آآآخ .. آآخ يا أخي .. إن هذه الدنيا غدارة .

تتهدج صوت الرجل الممدد على الأرض و قال : لكْ مااااء ... مااااء يا أخو الشَـــ .... الشَـــ ... هيئ ... هيئ ... هيييييق . و لفظ أنفاسه مفارقاً الحياة من العطش .

بكى صاحب القافلة ألماً و حزناً و قال مخاطباً الرجل : رحمك الله يا صاحبي و الله لقد أبكيتني من القهر و الحزن عليك .. و الله إنك رجل شهم فاضل شريف .. و الله لقد مت موته محزنة . و أني لأرجو لك حياة في العالم الآخر خير من حياتك تلك و أرجو لك منزلاً خير من منزلك هذا و نعيم و جاه و عز و ألف جارية يدغدغن لك خِصـــ ..لتيك . (ثم صاح بغلمانه) احفروا قبراً

لهذا الفاضل الزاهد التقي و رشوا عليه الورد و الزعفران و كللوه بأكاليل الغار . رحمنا الله و إياك يا أخي .

كلمة أخيرة : من لم يكرمني في حياتي .. والله لن يكرمني في مماتي .. حتى و لو فعل ذلك .

حدث في رمضان [1]



عند قدوم شهر رمضان من كل عام تطل علينا الفضائيات المحلية و العربية ككل ، ببرامج مخصصة لهذا الشهر الفضيل .. شهر رمضان ، و غالبها برامج فنية من مسلسلات و منوعات و برامج دينية هي عبارة عن خطب و مواعظ للصيام و آداب الصيام . و ما يهمنا هنا في سياق هذا المقال ، هو البرامج الدينية و بعض التصرفات المرادفة لها في الشارع .

إن الإسلام في مضمونه و روحه القرآني البحت المجرد من كل تأويل و تفسير آخر . و ما يقع خارج الخطاب الديني المعاصر و السالف الممثل بتيارات مختلفة و مذاهب و مشارب متعددة . هو دين للتسامح و حرية المعتقد .. ذاك من منطلق الآية القرآنية (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) (البقرة – ٢٥٦) . و الصيام هو بالتعريف الفقهي أحد أركان الإسلام الخمسة و هو من زاوية الخطاب الديني العام قضية تعبدية مختلفة عن بقية أركان الإسلام كالصلاة و الزكاة و

---

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠٠٩/٩/٣ .

الحج من كونها ذات علاقة شخصية تحددت أبعادها بين الإنسان و الخالق . و يتضح ذلك من الأحاديث النبوية و كذلك الأحاديث القدسية و منها على سبيل المثال الحديث القدسي القائل (كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي و أنا أجزي به . و الصيام جنة ، و إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث و لا يصخب ، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم) (صحيح البخاري - حديث / ١٩٠٤ / باب الصيام) .



و ما يعبر عنه رجال الدين من الخطب التي يلقونها على المنابر و البرامج الإذاعية و منها البرامج التي تعرض في رمضان من كل عام . و كلها تناول قضية أن الصيام أمر خاص بالله سبحانه و تعالى .

هذه القضية تستلزم الضرورة أن يكون مفهوم الصيام بكل أبعاده و حيثياته و ما يتفرع عنه من أحكام فقهية و شرعية .. أن يكون أمر شخصي بالدرجة الأول فهو عبارة عن علاقة شخصية مباشرة بين المرء و بين الله . ذلك ما يستتبع أن تكون الخصوصية التعبدية تلك قد أضحت من ضمن مبدأ الأخلاقية الدينية و مبدأ احترام الحريات الدينية .

و لكن ما يطرحه البعض على المنابر الدينية و الإعلامية حول احترام حرية الصائم بعدم تناول الطعام و الشرب أمامه ، حرصاً على عدم إزعاجه و مراعاة لإحساسه و شعوره حتى و لو كان هذا الشخص الذي يأكل هو مفطر شرعاً . و المطالبة بتطبيق عقوبات لكل من يشاهد و هو يأكل أو حتى يدخن في فترة الصيام .. عقوبات تصل إلى السجن أو الضرب . و أن على غير المسلمين أن يراعوا ذلك أيضاً بعدم تناول الطعام أمام المسلمين . يتنافى تماماً مع المبدأ السابق لروحية الدين الإسلامي و تسامحه للأسباب التالية :

١) ـــ أن مبدأ تطبيق العقوبات الزجرية الرادعة .. المعنوية منها و المادية ، بحق الشخص المفطر ، يتنافى مع مبدأ الحديث القدسي القائل (الصوم لي و أنا أجزي به) .

٢) ـــ أن تطبيق هذا المبدأ مع غير المسلمين ، يندرج ضمن مفهوم الإكراه بالدين الوارد ذكره بالقرآن الكريم . و طالما أن غير المسلم حسب منظور هؤلاء ، لزاماً عليه أن يراعي المسلم في

أبسط بند من بنود أركان الإسلام ، فواجب عليه إذن أن يراعيه في البنود الأعظم من الصيام كالصلاة مثلاً أو الحج .

٣) ـــ إذا كنت أنا صائم و أدعي أن صومي لله و بالوقت نفسه لا أريد أن أرى أحد يأكل أمامي و أن يختفي الناس من أمامي بمجرد رؤيتي و لا يأكلوا بحضوري حتى و إن كانوا مفطرين شرعاً أو دونما عذر أو ليسوا من ديني و ملتي ، كيلا يجرحوا كرامتي ، و أعتبر ذلك إهانة لي .. و أن أسيء إليهم بيدي أو لساني جريرة ذلك ، فالأولى بي أن لا أصوم ، لأن صومي هو ليس لله ، بل هو صوم وجاهة و رياء و تصنع . لا بل أن صيامي سينقلب حجة علي و يكون بمثابة ذنب كبير .

٤) ـــ حسب منظور الحديث السابق .. إذا تعرض الصائم للسباب و الشتيمة أو الاعتداء من قبل الغير ، يقول اللهم إني صائم .. فمن باب أولى أن لا يعتدي هو على الغير لمجرد رؤيتهم يفطرون أمامه .

٥) ـــ الكرامة التي ستجرح ، و الشعور الذي سيمس ، هما لشخص ممتنع عن الطعام لمدة أيام بسبب طبي أو مانع عضوي أو سبب خارج عن إرادته أو لشخص فقير جائع لا يستطيع أن يأكل اللحم و مشتقاته و لا الحليب و مشتقاته و لا الحلوى و مشتقاها ، إلا مرة واحدة بالسنة . و ليس لشخص صائم بإرادته و لساعات محدودة سيأكل بعدها و يتخم معدته بما هو مستلذ و مستطاب .

تفتح التلفاز و تطالع الصحف و المجلات ، فتطالعك بعض الآراء تطالب بسجن المفطر برمضان أو تعزيره أو معاقبته ، و بعضها ذهبت إلى حد الجلد . و على المفطر الشرعي أن يتوارى عن القوم و عن الناس و البشر و يعتزل بيته كيلا يسيئ للناس . لا بل أن البعض من اعتبر أن المفطر الشرعي إن أكل أمام الناس يصبح حده كالمفطر غير الشرعي .

أذكر مرة أني كنت في مسافراً البولمان بشهر رمضان و أخرج احد المسافرين قطعة بسكويت و أكلها ، فهب الراكب الجالس خلفه يصيح به و يصفه بقلة الأدب و الذوق و يطلب منه احترام مشاعر الناس و احترام صومهم ، و تطور الأمر إلى ملاسنة بين الاثنين تدخل فيها الركاب .

وقتها قلت أنا للشخص الذي ادعى أنه صائم و افتعل المشكلة : إنك لست بصائم و لا علاقة لك بالصيام و الأفضل أن تفطر و تأكل لأنه ليس لك من صيامك إلا الجوع و العطش .

في رمضان قبل الماضي كنت صائماً و تصادف أن أصبت بالتهاب بلعوم و قصبات حاد و وصف الطبيب لي مضادات حيوية أتناولها كل ست ساعات و شدد على توقيت تناول الدواء مؤكداً على أهميته و على تناول وجبة و لو خفيفة قبل الدواء . ذهبت وقتها إلى السوق لأشتري بعض الخضار و الطعام للمنزل و هناك تصادف موعد الدواء الذي يجب أن أتناوله ، فدخلت إلى مطعم للفول و الحمص و طلبت وجبة طعام فرفض البائع تقديم الطعام لي بحجة شهر رمضان فأخبرته أنني مفطر شرعاً بسبب المرض و أبرزت له ثلاث أصناف من الحبوب أتناولها و طلبت منه كأس ماء ، فرفض الرجل معتذراً بأدب . ذهبت بعدها إلى متجر مجاور و اشتريت بعض الخضار و الأجبان و الأطعمة و المخللات و عندما طلبت من صاحب المتجر تناول بعض الطعام لأخذ الدواء رفض .. طلبت منه ماء على الأقل لشرب الدواء فرفض .. قلت له : يا حبيبي يا عيني يا روحي و يا مهجة قلبي .. أنا شخص مفطر شرعاً .. شررررعاً .. قال حق و لو كنت كذلك فلا يجب أن تأكل أمام الناس و جهاراً . قلت له : يعني أين سأكل حتى لا تتأذى حضرة جنابك و جناب القوم ؟؟!!!! هل أطير إلى السماء و أتوارى خلف السحاب و آكل ، أم أشق الأرض و آكل في باطنها و أخرج بعدها ؟؟!!!!! . قال : و الله لا أعرف .. ثم نظر إلي و قال و قد وجعه قلبه علي و رق لحالي : ممكن أن أسمح لك بلقمة من اللبنة أو الجبنة و كأس صغير من الماء و لكن في الغرفة الداخلية و تحت السلم كي لا يراك أحد . قلت له : يا أخي أنا لست مجرماً كي أفعل ذلك .. على كل حال شكراً لك .. مع السلامة . و تكرر هذا الأمر مع بقية المتاجر و المحال . و اضطررت إلى العودة إلى البيت و قد تجاوز الدواء موعده بساعة على الأقل .



في نهاية رمضان و قبل العيد بيوم واحد نزلت مساءاً إلى السوق نفسه و مررت على المحال و المتاجر لأشتري بعض الأطعمة و الحلويات للعيد و إذا بي أفاجأ بالغلاء الفاحش الغير طبيعي الذي وصل إلى ثلاث أو أربعة أضعاف في بعض المواد . وقفت محتاراً ماذا أشتري فالمبلغ الذي معي لم يكن ليكفي إلا مقداراً ضئيلاً مما كنت أرصده له . ذهبت إلى المتجر نفسه و سألت عن سعر

المخللات فقيل الكيلو ٦٥ ليرة . نظرت إلى ربطة صغيرة من البصل الأخضر مكتوب عليها / ٧٠ / ليرة و ربطة بقدونس بسعر / ٢٥ / ليرة . قلت له : المخلل كان سعره / ٤٠ / ليرة و البصل / ٢٠ / ليرة و البقدونس / ٥ / ليرات . قال : الآن عيد الفطر . سألته : ألم تتذكرني ؟؟ نظر إلي متمعناً قليلاً و قال : لا .. من أنت ؟!!! أجبته : أنا الذي أتى إليك قبل خمسة عشر يوماً و كنت مريضاً و طلبت منك كأس من الماء فرفضت أنت و بقية زملاؤك في السوق بحجة احترام الشرع الذي تدعونه و الذي ما أنزل الله به من سلطان و الآن تطبقون الشرع المعاكس و الذي أيضاً ما أنزل الله به من سلطان .. الله سبحانه و تعالى سمح لي و حلل ، أن أفطر في رمضان و حرمتم أنتم شرعه و الله الذي حرم الربا و الغلاء الفاحش و توعد المطففين بالويل و الثبور حللتموه أنتم بالعيد . تحرمون ما حلل الله و تحللون ما حرم .. فلا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم .

نظر إلي الرجل مفكراً قليلاً و قال : نعم لقد تذكرتك ، ثم ضحك و قال : و لكنني وقتها سمحت لك بتناول بعض الطعام لأجل الدواء . أجبته : و لكن طلبت مني ذلك في السرداب و خلف البراميل و تحت السلم و كأنني مجرم متوار عن الأنظار و أنا رفضت هذا المبدأ . أجابني : و الله لقد فكرت بكلامك بعد رحيلك و اقتنعت به بعض الشيء . أجبته : لو أنك اقتنعت لما كنت تبيع الآن بهذا الغلاء الفاحش أنت و هؤلاء .

و يبدو أن الرجل قد انتابه شيء من صحوة الضمير أو ما شابه فقال لي : سأعطيك كل ما تريد و بالمجان .. يبدو أنك مثقف أو شيء من هذا القبيل . أجبته : يا سيدي لا أريد منك إلا أن تبيعني و تبيع الناس كما كنت تبيع في الأيام العادية .

دار حوار بسيط بيني و بين الرجل ثم أخذت حوائجي و غادرته .

بين الحرباء و الحردباء ما صنع الدال[1]



زعموا أن حرباء شاخت و عمرت ، فلفظها بنو قومها و أهلها و عشيرتها ، و نبذوها ، و من ثم طفشوها من الديرة . فهاجت الفقيرة و ماجت و طفشت نحو الجبال

و هي تلملم أذيال الحسرة و الخيبة و اليأس و المرارة من بني قومها ذوي الألوان المتعددة و المتغيرة .. و الأشكال المتنافرة المختلفة .



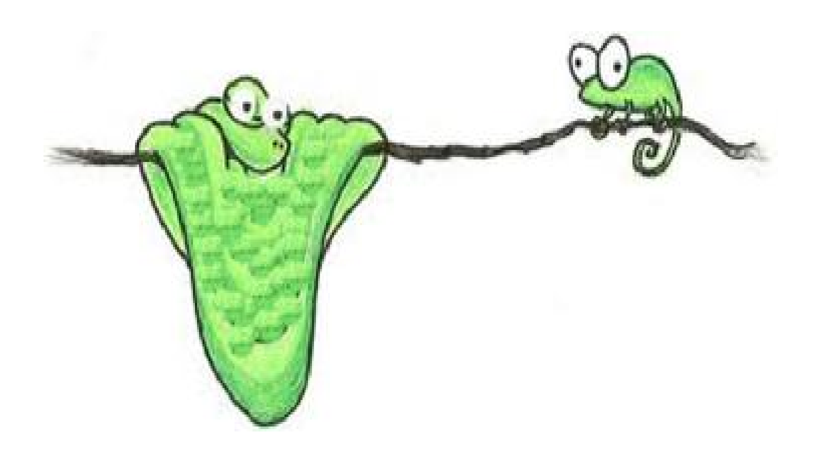
أخيراً و بعد لأي و سفر شاق متواصل ، وصلت العظاءة المبجلة إلى أحد الجبال العالية ، و شرعت تتسلقه بهمة و نشاط . كانت تريد

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠٠٩/٨/٤ .

الابتعاد عن ماضيها و نسيانه . ظلت تصعد و تصعد حتى وصلت إلى سفح عال ذو منحدر قاس و أخذت تمشي و تمشي على الدرب العالي الذي كان يضيق شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى حد لا يمكن أن يسمح بمرور إلا عظاءة واحدة فقط .

تابعت الحرباء سيرها بهدوء في الدرب الضيق و هي ترنو ببصرها إلى أسفل الوادي السحيق متأملة المناظر الخلابة الممتعة ، حتى لقد نست همها و حزنها و كربها الذي هي فيه . فجأة ظهر لها من بعيد كائن غريب قادم نحوها . لم تتبين نوعه أو فصيلته و انتظرت حتى اقترب الاثنان بعضهما من بعض . نظرت إليه .. كان بالفعل كائن غريب يقترب من حجمها إلى حد كبير .. كتلة سوداء مقعرة في جهة و مدببة من أخرى و محدودبة من ثالثة ، مع عينين واسعتين براقتين متوقدين تحدقان ببراءة طفولية .

تأملت الحرباء الكائن الواقف قبالتها بدهشة . لم تستطع أن تعرف نوعه .. حاولت أن تتذكر فما استطاعت لذلك رشدا .. سألته بدهشة : من أنت ؟؟؟!!!!! أجابها الكائن بتحد : أنتِ من أنت ؟ .



ـــ أنا الحرباء ..

ـــ تشرفنا .. و أنا الحردباء .

ـــ الحردبااااااء ؟؟؟؟ّ!!!!

ـــ نعم الحردباء ...

ـــ عجيب ...!!!! لم أسمع بكِ من قبل .

ـــ عجيب .... و أنا لم أسمع بكِ من قبل .. و الآن إذا تكرمتِ أفسحي لي الطريق .

ـــ و لكن كيف سأفسح لك الطريق و هو لا يتسع إلا لكائن واحد ؟!!!!! .

ـــ إذن تراجعي إلى الخلف حتى أمر .

ـــ مستحيل .. لقد قطعت مسافة طويلة حتى وصلت إلى هنا . أنت من عليه التراجع لكي أمر .. أنا شخصياً .. لن ... أتراجع .

ـــ و أنا شخصياً لن أتراجع .. أيتها الحرباء .

ـــ إذن أيتها الحردباء ابقي هنا فأنا لن أتزحزح من مكاني هذا .

ـــ إيش عليه أيتها الحرباية الحكيمة .. انتظري هاهنا .. إنا معك من المنتظرين .. و إنا هاهنا قاعدون .



مرت فترة من الوقت و كلا الكائنين الحرباء و الحردباء قابعتين في مكانهما لا تتحركان و كل منهما تنظر إلى الأخرى .. الحرباء بعينيها الغائرتين و الحردباء بعينيها الواسعتين الطفوليتين البريئتين .

كانت الوقت صيفاً و الشمس اللاهبة تحرق المكان . فبدأ العرق يتصبب من الحرباء بينما الحرارة تأكلها أكلا .. أخذت الحرباء تغير لون جلدها بالتدريج ليتناسب مع حرارة المكان و أشعة الشمس اللاهبة الملتهبة .... أحمر .. أزرق .. أصفر .. أبيض .. أرجواني .. تركواز .. بنفسجي .. الخ من ألوان الطيف جميعها . لكن أشعة الشمس الحادة العمودية الملتهبة كانت أقوى مما تستطيع أن تتحمله .. أخذت تتململ في مكانها و تتحرقص ، محاولة التظاهر بالتحمل ، بينما الحردباء السوداء جاثمة قبالتها تماماً ، صامتة تحدق فيها بعينها الطفوليتين البريئتين الواسعتين ، دونما أن تنبس بشفة .

مر الوقت و وصل الأمر بالحرباء إلى درجة لم تستطع فيها التحمل ، و لم تنفع معها كل ألوان الطيف التي استخدمتها . و عندما وصلت حرارة جسمها إلى درجة عالية ، أضحى لا مناص لها من الاستنتاج من أنها قد أصبحت في خطر داهم و أنها تتعرض لعملية جفاف و شواء بطيئة ، و أدركت أن معركتها خاسرة مع الحرباء ، و لذلك لعبت معها أخر ورقة بيدها .

نظرت إلى الحرباء و قالت لها : نصيحة مني يا حرباء خانم ، انسحبي بهدوء . فأنت لا طاقة لك على مجاراتي ، هل تعلمين من أنا ؟ أنا الحرباء التي تغير لونها كل ساعة و كل وقت و حسب الموقف و حسب الظرف و أتقلب كما أشاء و أركب الموجة التي أريد .. أنا الفائزة بسباق ركوب الموج الدولي الذي يقام على سواحل جزر الهاواي و الهونولولو .. أنا التي يتشبه بها بنو البشر و يطلقون على الشخص المخادع الوصولي المنافق اسمي و لقبي النبيلين ، و لذلك فاختصري الموضوع و لا تكابري .

نظرت الحرباء بعينيها الطفوليتين البريئتين إلى الحرباء و قالت لها : نصيحة مني أيتها الحرباء تراجعي و انسحبي قبل أن تنسلقي و تتقمري و تتجمري ، فأنت لا طاقة لك على مجارتي .. هل تعلمين من أنا ؟؟ .... أجيبني هل تعلمين ؟؟ .

ـــ أنت الحرباء ..

ـــ و ما معنى الحرباء ؟؟ ..

صمتت الحرباء قليلاً تفكر ، ثم قالت بانكسار : لا أدري ... !!!

ـــ يا عزيزتي .. أنا الحرباء التي إذا ركبت على أي كائن .. كائناً من كان .. بشر .. شجر .. بقر .. حجر .. زجل ، لا أخرج منه أبداً .. ليس ذلك فقط بل أنني أستطيع أن أتحول إلى ظاهرة موجية غير مرئية و أركب العقل أيضاً و أصبح و العياذ بالله .. حرباء عقلية .. و إذا فعلت ذلك فغير الذي خلقك لا يستطيع إخراجي .. هل تعلمين من الذي خلقك ؟؟ .... من هو الذي خلقك ؟؟

ردت الحرباء بدهشة : الله الذي خلقني .. و لكن .. و لكن ... هل ... هل تستطيعين ذلك حقاً ؟؟!!!!!

ــ طبعاً يا عظائتي المبجلة ... لكْ يا روحي أنا عاهة .. هل تسمعين .. أنا عاااااااااهة .. عاهة مستديمة .. عاهة خلقية ..عاهة عقلية .. و ما أكثر الذين ركبت عقولهم (ثم رفعت يدها للأعلى) ياما مخرجة من تحت هالباط (الإبط) ناس و بقر .. عفواً بشر .. و لا أركب أيتها عقول .. بل عقول على كيفك .. عقول من التي بالي بالك .. و لهذا يا حربوبة الدبدوبة .. يا عظعوظة المظموظة تراجعي و افسحي الطريق و الحقي روحك قبل أن تفطسي .. أنا والله ما مشان شي .. أنا و الله مشانك يا فقيرة .

أدركت الحرباء أنه لم يعد لديها أية أوراق لترميها ، فقالت بتوسل : أيتها الحردباء الجميلة الوديعة ، لم تعد قدماي تحملاني و سأضطر للعودة مسافة طويلة كي يتسع الطريق لكلينا .. أرجوك .. أتوسل إليك أن ترأفي بحالي و توسعي لي قليلاً فأنت مادة هلامية على ما يبدو .. و هذه مكرمة منك لن أنساها مدى الحياة .



نظرت الحردباء لبرهة إلى الحرباء و هي مغمضة إحدى عينيها مفكرة ، ثم قالت لها : مدموزيل حرباء ... لدي عرض مغر لك .. ما رأيك أن نتحد أنا وأنت و نكون معاً الثنائي الخـــ.......ارق .. ثنائي الغباء و الجهل مع الكذب و النفاق لتثبيت و دعم الجهل . ثنائي التحجر مع التظاهر بالتحضر .. ثنائي التعصب مع التظاهر بالانفتاح .. صدقيني سنكون معاً ديوتو رائع و سأدخلك في عالم العقول المريضة التي لم ترينها من قبل .. العقول الرجعية الجاهلة المتخلفة العالة على المجتمعات التي تركب كافة أشكال الموجات و الألوان كي تثبت جهلها و تخلفها .. التي تصور الجهل و التخلف للبشر على أنه العلم و الحضارة و التقدم .. ما رأيك إنها فرصة تاريخية لن تتكرر و ربما لن نلتقي أنا و أنت بعد الآن ؟؟

إنها لذة لم و لن تشعري بها من قبل و لا بعد . إني لأكاد أجزم بأن التقاؤنا هذا هو مناسبة تاريخية نادرة .

فكرت الحرباء بدورها و ضربت أخماسها بأسداسها .. كان حب الفضول و المصلحة المشتركة يدفعانها لذلك ، دفعاً . نظرت إلى الحردباء التي كانت تحدق بها بعينيها الطفوليتين البريئتين منتظرة الجواب ، ثم قالت : إني موافقة أيتها الحردباء ، فكيف ستفعلين ذلك ؟؟؟!! .

ــ بسيطة أيتها الحرباء .. قالت الحردباء ذلك ثم تحولت إلى شعلة مضيئة ذات وميض قوي يخطف الأبصار و دخلت بالحرباء مختفية فيها .

شعرت الحرباء بلذة قوية و سرت فيها رعشة رائعة .. أتاها صوت من داخلها : كيف تشعرين الآن أيتها الحرباء ؟؟ كيف تشعرين بمزيج النفاق مع الجَحْشَنَة ؟؟

صاحت الحرباء مختلجة : أوه .. وواوو ... آآآه.. إنه لذيذ .. لذيذ .. يس .. يس ... ييييييسسس .

المجتمع .. ذاك المجرم الأكبر[١]



درجت العادة في القوانين الوضعية و الأعراف البشرية ، أن يرتبط الفعل الجرمي ، بتعدد أنواعه (سرقة – اغتصاب – قتل .... الخ) بشخص الفرد الفاعل ، فتحدثت القوانين البشرية منذ القدم و حتى يومنا هذا ، عن توصيف جرم معين ، و تحديد العقوبة التي تقع على فاعله أو مرتكبه المباشر .

أحياناً و في حالات محدودة معينة ، يندرج في خانتي التوصيف الجرمي و توصيف المجرم .. شخص ثان يوصف بأنه المحرض أو الشريك ، في الحالات اللاحقة لتاريخ القوانين البشرية . و عادة و إلى الآن ، ما يقتصر القانون بشكل عام على تلك الحالة و لا يتعداها . و لعلنا نلاحظ كيف أن أول

[١] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠١٠/٨/٥ .



قانون بشري معروف و مكتوب ، و هو قانون حمورابي ، قد نحا المنحى عينه المذكور آنفاً .. ذلك ما يلاحظ في حيثياته و بنوده .. من قتل ، يعاقب بكذا .. من سرق تقع عليه عقوبة كذا .. من زنى .. من .. إذا قام شخص بفعل كذا يعاقب بكذا . حتى الحوادث التي لا يقوم بها أو يتحمل مسؤوليتها أشخاص بعينهم .. جُيّرت عواقبها و نتائجها إلى أشخاص محددين بشكل منفرد ، و بالأحوال عامة ، تم تحاشي الكثرة أو الجماعة أو النخبة ، و بالأحوال كافة ، تم تحاشي المجتمع كمسبب أو دافع رئيس في جريمة من الجرائم أو كبيرة من الكبائر . و قانون حمورابي يعتبر ربما أبو القوانين البشرية اللاحقة فيما بعد ، كونه قد تطرق إلى معظم نواحي الحياة و المجتمع و معظم ما تطرقت إليه القوانين البشرية الآن . فهو قد تطرق إلى قضايا الجرائم العامة و جرائم المجتمع (السرقة و القتل و غيرها) و تطرق إلى ما يعرف الآن بجرائم القضاء و الإدارة العامة (كالرشوة و المحاباة و شهادة الزور .. الخ) و ناقش قضايا الأحوال المدنية (الزواج - الطلاق – الإرث – الأسرة .... الخ) كما تطرق إلى قضايا الأراضي و العقارات ، حتى القضايا التي يكون فيها الحيوان طرفاً في المشكلة . و تطرق أيضاً إلى القضايا الاقتصادية و المالية و الحقوق المادية بين الأفراد (بيع – شراء – إيجار – رهن ... الخ) و نظام العقود و غيرها من الأحكام المختلفة التي طالت مفاصل المجتمع و الدولة و التي نحن لسنا بصدد تفصيلها الآن .

هذه القضية اندرجت لاحقاً ، منذ تلك العهود و إلى الآن ، مروراً بالفترات المفصلية الهامة لتاريخ البشرية و تاريخ الأديان و الحركات و الدول الكبرى فيه .. التي استوجبت في حيثيات نشوئها و مضامين مقوماتها و الخطاب الفكري فيها صياغة قوانين المجتمع بشكل من الأشكال (القانون المصري القديم – قوانين اليونان القديمة – القانون الروماني – القوانين الدينية .. الخ) .. انسحبت على تناول الإنسان الفرد في مجمل بنودها و تعاطيها مع الجرائم و الأحداث المرتبطة بالمجتمع و تركزت على اعتبار هذا الفرد أو القلة القليلة من الإفراد (فاعل و شريك و محرض مثلاً) طرف أساس في



جنح و جرائم المجتمع حيث بدت القضية هنا متعلقة بطرفين جريمة أو جنحة .. و فرد فاعل قد يرتبط معه شريك أو محرض .

من الملاحظ أيضاً ، أن هذه القوانين بعمومها و مجموعها ، قد تحاشت المساس بالأعراف الاجتماعية ، إلا فيما ندر و ضمن حالات استثنائية معينة استوجبتها ضرورة التغيير المرتبطة بالعامل الخارجي أو الظروف القاهرة . إذ أضحى من المعلوم الواضح ، أن الأعراف الاجتماعية لا يتم تغييرها إلا تحت ظرف القوة القاهرة و بعد مقاومة عنيدة قد تمتد لفترات زمنية طويلة أحياناً . و غالباً ما تكون تلك القوى القاهرة ، قوى خارجية ، كالأجنبي المحتل الذي يعمد إلى نقل بعض من ، أو كل ثقافاته و أفكاره ، و يفرضها عنوة .. أو ظروف داخلية معين (طبيعية – اقتصادية .. الخ) تفرض نفسها بنفسها و تكون الحاجة ضرورة ملحة لتطبيقها ، تفادياً لكارثة معينة أو أخطار محتمة تحيق بالمجتمع ، لكنها تصطدم بممانعة الجهل أو المصالح النخبوية الضيقة . ما يحدو نهاية الأمر إلى أن يفرض الطرف المنتصر (بغض النظر عن مصداقيته و موضوعيته و صوابيته) أن يفرض قوانينه الخاصة به .

مما سبق ، يمكن القول أن العلاقة بين الأطراف الاجتماعية و القوانين الوضعية ، هي علاقة ثنائية (كما ذكرنا) يبرز فيها الفرد كطرف أوحد لجهة ارتكاب الجرم و يظهر مبتوراً عن كل عوامل و مسببات ارتكابه لجرمه الذي اقترفه .. و لننتقل من الماضي إلى الحاضر الذي هو نتاج الماضي بكل أسف .

لقد تمخضت نتيجة الصياغة القانونية المذكورة المنحصرة بالثنائية الطرفية (جرم – شخص فرد) ، عن تجيير جرائم كثيرة بالتاريخ ، إلى شخص واحد .. جرائم ذهب ضحيتها الملايين .. جرائم باقية على مدار الزمن و تُفتعل كل يوم ، من قتل و سرقة و نهب و زنا و اغتصاب و تعدٍ على الحقوق و الممتلكات .. كلها تُحال مسؤوليتها إلى فرد واحد و الذي هو الفاعل المباشر ، حيث تختصر أبعادها و مفاعليها و مسبباتها كلها ، في هذا الفرد ، و بالتالي التغافل عن مسببات الجرم الرئيسة . و



في حال التطرق إلى مسببات الجرم ، فإنها في حدودها القصوى ، لا تتعدى الشخص نفسه . حتى الدراسات و البحوث الاجتماعية أو القانونية التي يقوم بها البعض ، لا تتخطى مجال العلاقة السابقة ، و تبقى محصورة في نطاق ثنائية (جرم – فرد) أو مصطلح (لا أعرف إذا كان موجوداً من قبل) .. المجرم الفرد .

لقد اطلعت بنفسي على عدد من تلك الدراسات و الأبحاث و (حتى المقالات) ، سواء أكانت لمختصين أو طلاب دراسات عليا أو كتاب في الصحف و المجلات . حيث يتم تناول مفهوم الجريمة و الحديث عنها و عن (المجرم الفرد) ، و عن مسببات و دوافع القيام بالجريمة . على أنه و في أحايين قليلة ، يتم التطرق بشكل خجول يلفه الخوف و الرهبة ، إلى أبعد من نطاق الفرد في ذكر دوافع الجريمة . لكن لا يُذكر المجتمع كوحدة أو طرف اعتباري منفصل بذاته ، بل يستعاض عنه بذكر حالات اجتماعية دون الوقوف على أسبابها و عوامل و دوافع حصولها التي تكون في بعض الأحيان عبارة عن أعراف اجتماعية (أنا أعتبر الأعراف الاجتماعية بمثابة ممثل للمجتمع و صورة عنه) .

فعند التطرق إلى دوافع الجريمة (أياً كان نوعها) يتم على سبيل المثال ، ذكر الفقر أو الوضع الاقتصادي المتردي مثلاً ، أو الفوارق الطبقية الحادة (و هذه تمثل الظلم الاجتماعي) أو تدني نسبة التعليم أو تفشي الأمية (أي الجهل) . لكن و لا واحدة من هذه الدراسات أو المقالات تجرأت على الوقوف خلف مسبب هذه المسببات ألا و هو المجتمع الذي يتحمل المسؤولية الكاملة .

إن تحميل الجريمة (للمجرم الفرد) بكل عناصرها و دوافعها و حيثياتها ، أضحى الآن أمراً لا يستقيم ، بكافة معايير الحضارة و الرقي و التطور الذي تعيشه البشرية من جهة ، و الأحداث السلبية الأليمة (حروب و مذابح) من جهة ثانية . و التطور الكمي و النوعي الأفقي و العمودي للآلة الإعلامية المقروءة و المسموعة و المرئية . و نشوء المنظمات العالمية الإنسانية و الهيئات الاجتماعية العالمية التي تعنى بالإنسان و الدولة و القانون و المجتمع و التعليم و الصحة و

التوعية ، من جهة ثالثة . لأن ذلك التوصيف الحاصل ، يستوجب بداهة إدراك المسببات الحقيقة الفعلية و الأصلية لأي حالة من حالات المجتمع و حوادثه .

تأتي إلى صفحة الحوادث في صحيفة أو مجلة ما ، فتجد مقالات لجرائم تحت عناوين (وحش بشري يفترس بنت قاصر – المجرم الخطير سارق الموبايلات يقع في قبضة العدالة – السفاح قاتل فلان .... الخ) . ثم تأتي إلى الفبركة في متن المقالة أو الريبورتاج التلفزيوني مثلاً ، فتجد التهويل المتعمد المنفوخ عشرين ضعفاً بما لا يتناسب خطورة الحادثة .. مقدمة عن الجهود لمراقبة المجرم .. التخطيط .. إلقاء القبض عليه و إعادة المسروقات لصحابها و هي : طنجرة مقلي – نكاشة أسنان – جرة غاز – بيضة ... حتى المسروقات الكبيرة كالذهب و الأموال و المجوهرات و غيرها ، تخضع لعملية التهويل ذاتها مع تجاهل تام و أعمى – نعم أعمى – للمسببات الرئيسة لارتكاب الجرم .



تأتي إلى صحيفة ما مختصة بالجرائم و شؤون المجتمع ، فتجد فيها جرائم يومية كثيرة متعددة و مختلفة تتدرج من البساطة و حتى الفظاعة . و كلها تأخذ المسارات التوصيفية السابقة . و الملفت للنظر أيضاً في مقالات الجريمة ، هو (المجرم الفرد) الذي يكون محكوماً بجنحات متعددة قضى عقوبتها ثم عاد ليرتكب جرم جديداً . وكثيراً ما قرأت في الصحف عند الحديث عن جريمة ما و سرد تاريخ المجرم أو العصابة ، أنه دخل السجن عام كذا لارتكابه جرم كذا ، ثم دخل السجن تاريخ كذا لارتكابه جريمة كذا . ثم حكم عليه في عام كذا نتيجة لكذا ... و هكذا دواليك حتى ارتكابه الجريمة موضوع المقال . و كثيراً ما قرأت عن شخص ارتكب جريمته بعد خروجه من السجن مباشرة (سرقة – مخدرات – سلب .. ا لخ) . و يأتي مضمون المقال بطريقة ساذجة ليقول على سبيل المثال (غير أن / ط ز / لم يرتدع .. فبعد أن خرج من السجن أغوته نفسه الضالة و رمت به في مهاوي الرذيلة مرة أخرى فعاد لارتكاب جرائمه و هو يظن أن يد العدالة لن تطاله) . أو تقرأ عن شخص ارتكب جريمة قتل نتيجة لعرف اجتماعي خاطئ ظالم مغلوط لا يمت إلى الشريعة و ناموسها و لا إلى الأعراف البشرية الإنسانية بصلة . فيأتي الإعلام ليتحدث عن عنه كمجرم و جريمة ، ضمن نظرية (الفرد المجرم) السابقة

نفسها ، فتجد عناوين مثل (قتل أخته بعد أن تزوجت من فلان دون موافقة أهلها) في هذا الضرب من الجرائم لاحظت أنه يتم توصيفها غالباً على أنها حادثة و ليست جريمة ، مع أنها جريمة بامتياز . أما الطرف المناوئ لهذه الجرائم فنجد أن أقصى ما يطالب به هو تعديل القانون و إنزال العقوبة بالمجرم الذي يعاقب عقاباً بسيطاً لا يتناسب و حجم جريمته ، متجاهلاً في بعض الأحيان الأسباب الرئيسة و الأساس في هذه الظاهرة المتجذرة في المجتمع منذ مئات السنين و التي لا علاقة لها بالقانون ، بل هي عبارة عن أعراف اجتماعية (مجتمع) تتلبس لبوس الدين . و بالتالي لن يجدِ نفعاً تغيير القانون و تطبيق العقوبة المناسبة ، دون تناول السبب الرئيس . بخاصة و أن شرائح لا بأس بها في المجتمع (للأسف الشديد) تبارك هذه الجرائم و تثني على فاعلها . لهذا .. إذا تم تطبيق القانون و هو أقصى ما يطالب به البعض ، ستبقى هذه الجرائم على حالها ، و سيتحول المجرم بكل بساطة ، بعد إعدامه إلى بطل شعبي و ربما أسطوري كما في الأساطير اليونانية (طبعاً أنا من مؤيدي صدور هكذا قانون) . من خلال ما تقدم ، نقول ..

أولاً : المجرم الفرد المرتكب لجرمه مهما كان نوعه (سرقة – قتل – احتيال .. الخ) و مهما كان حاله في الجرم (فاعل مباشر – شريك – محرض – مخطط .. الخ) لا شك هو مجرم بطبيعة جرمه و يستحق العقوبة الموازية لطبيعة جرمه ، لا شك في ذلك ، و ليس له محل للتبرير أو التغاضي إلا في طبيعة و حيثيات جرمه . كالدفاع عن النفس مثلاً أو عدم توافر النية المسبقة للفعل و الإصرار و التصميم ، كالقتل عن طريق الخطأ و ما إلى ذلك . و هذا يخضع كله للتأويلات القانونية .

ثانياً : هنالك بالتأكيد مجرمين و حالات إجرامية فردية تخضع لطبيعة النفس البشرية و أمراضها ، و ليست بالضرورة أن تكون مرتبطة بدوافع اجتماعية أو حالات اقتصادية عامة أو غيرها . و لكن .. معظم الجرائم التي ترتكب ، هي ذات بيئة و منبع و دافع حالات و أعراف اجتماعية تسود المجتمع ، و المجتمع مسئول عنها بالدرجة الأولى .

الشخص الذي يغتصب قاصر ، هو مجرم بالتأكيد و لكن ... ليس ذئب بشري أو وحش أو غيره لأنه بكل بساطة هو شخص مكبوت جنسياً لم يوفر له المجتمع سبيل إفراغ طاقته الجنسية لأن المجتمع نفسه هو مجتمع كبت جنسي . و قد اطلعت بنفسي ذات مرة ، على دراسة تشير إلى أن

اللواطة و السحاقية تنتشر في المجتمعات ذات الكبت الجنسي و بنسب مرتفعة جداً في بعض الحالات . و أي شخص قد يكون معرضاً لفعل ما فعله هذا الشخص . حتى كاتب المقال الذي يصفه بالوحش البشري أو الذئب أو الدب القطبي و غيره من مسميات تثير السخرية ، قد يفعل أبشع مما فعله هذا الشخص إذا ما تعرض لنفس موقفه و حالته و ظرفه الذي ارتكب به جرمه . و الشخص الذي يقتل امرأة عجوز بقصد سلبها حليها و يتم إلقاء القبض عليه و يظهر في التلفاز و يسأله المذيع عما فعله بالعجوز فيقول له بالحرف الواحد : و الله خالص عمرها و قدرها أن تموت . أليس هذا المجرم نتاج فكر اجتماعي سائد فاسد غير مقبول ؟؟؟ .

دار أمامي في مجلس من المجالس حديث حول جريمة قتل . فتم الحديث عن المجرم و الضحية .. المجرم يستخلص وحده مثل حبة الفستق ، من أية دوافع و مسببات . و أما الضحية فقيل عنها (يا عمي خالص عمره .. إجا يومه يا عمي ، الله يخليك .. جاء القدر يا عميييي ... يا عميييي مكتوب .. مكتوب .. حياتي أنت ، روحي أنت .. بده يموت يعني بده يموت ... لا إله إلا الله ... بده يموت يا عمي .. يا عمي يا بو عبود يا بيي اللي عيونا سود) . أليس هذا التفكير هو نتاج فكر اجتماعي فاسد و منحرف ، و تبرير غير مباشر للجريمة و المجرم .



مصيبة أن تقرأ في صفحات الحوادث عبارة مثل (/ ط ز/ شاب عاطل عن العمل لم يجد دخل يعيش منه و يتزوج و ليس له بيت .. و طرده أبوه أو عمه من المترل فلجأ إلى الشوارع و ساقته نفسه المريضة إلى السرقة و أغرته شهواته الدنيئة إلى الزنا و ارتكاب الفاحشة أو المخدرات) المصيبة أن المحرر للحادثة يبرر للشخص فعلته تماماً ، و إذا كان يبرر له فعلته فلماذا يلومه و ينعته بصفات قاسية ؟؟!! و يتجاهل التربية الفاسدة التي طالت هذا الشخص و العرف الاجتماعية أو الحالة الاقتصادية التي ساقته مضطراً إلى ارتكاب فعلته ؟؟!!.. هل المطلوب من هذا الشخص أن يخصي نفسه كرمى لحضرة جنابك ؟؟ أليس هو مجرم ضحية مجتمع مجرم ؟؟ إذا كنت لا تدري فتلك مصيبة و إذا كنت تدري فالمصيبة أعظم .

و يبقى السوآل الكبير هنا هل هذا الذئب هو ذئب حقاً ؟؟!! و هل الشخص الذي يقتل لأجل عرف اجتماعي فاسد و بالٍ و موجود منذ مئات السنين .. هل هو مجرم حقاً ؟؟!! أم المجرم هو العرف ؟؟!! من المسئول عن هذه الدوافع الفكرية الإجرامية لهذا الشخص أو ذاك ؟؟ أليس المجتمع ممثلاً بالأعراف الفاسدة ؟؟ .

ثالثاً : عندما يكون هنالك محاولة لتغيير عرف اجتماعي أو حالية اجتماعية سيئة و ضارة بالمجتمع و يتم إجهاض المحاولة بدعم و جهل شرائح اجتماعية معينة و تهديد في حال التغيير . أو خوف من الشرائح الأخرى المقابلة ... يمكن القول أن المجتمع يمثل حالة و بيئة إجرامية .. و ما بعض المجتمعات التي تسود فيها الجريمة بشكل كبير جداً ، إلا حالة مجتمع مجرم . و أحد الأمثلة على ذلك هو مجتمع الجريمة المنظمة الذي تكون فيه الجريمة المنظمة حالة شرعية و مقبولة من معظم الشرائح .. أليس هذا المجتمع هو مجتمع جريمة و هو المجرم الأكبر ؟؟!! .

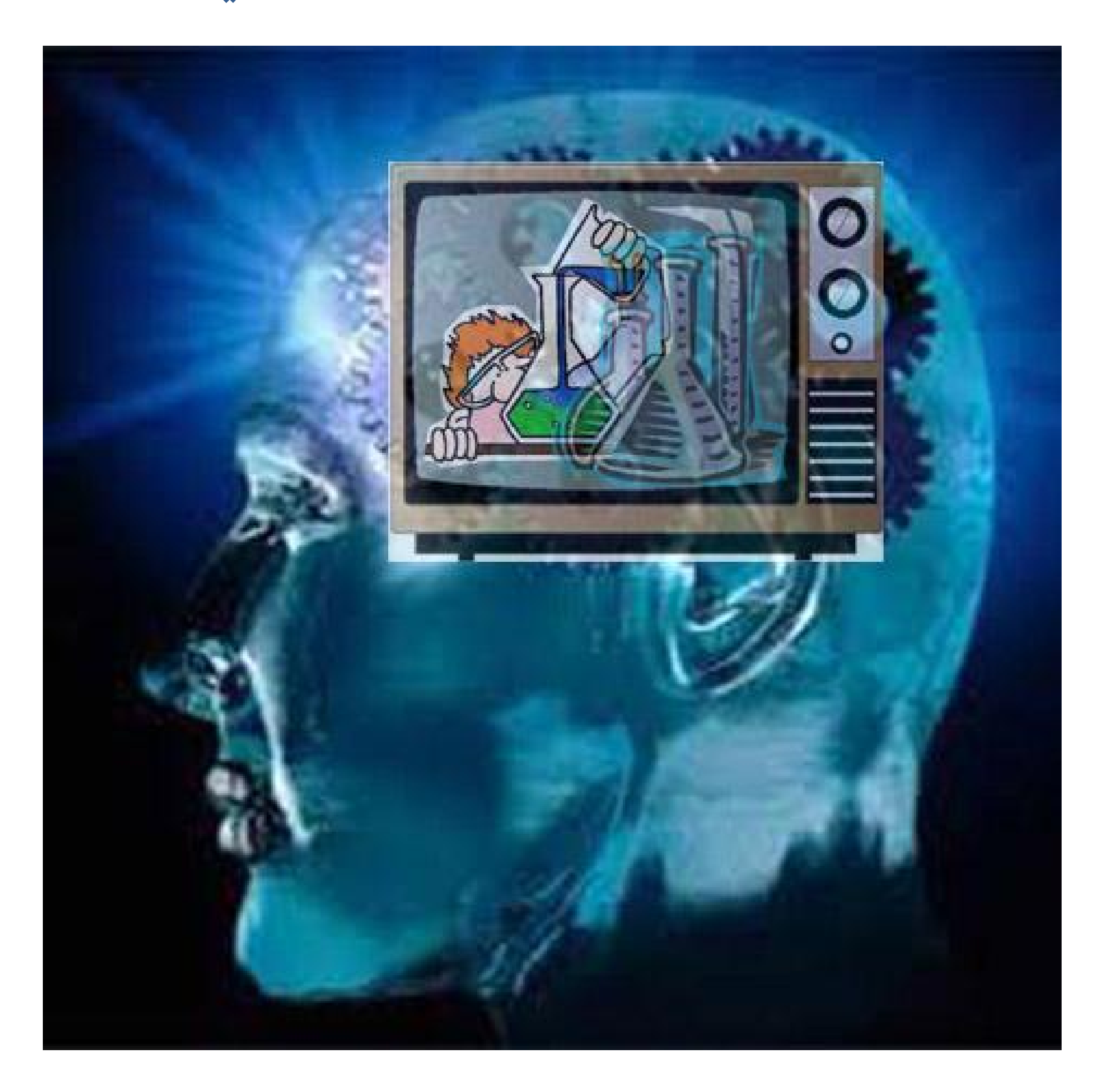
رابعاً : إن الأعراف الاجتماعية الفاسدة و المنحرفة و الباطل مفعولها الزمني . و أية محاولة لتغييرها قد تشعل حرباً أهلية . و الباقية كحالة مرضية مزمنة يعاني منها المدافعون عنها أحياناً أكثر من منتقديها . هي حالة ديكتاتورية تفوق أية ديكتاتورية أخرى و تبدو أمامها بقية الديكتاتوريات ، ديمقراطيات براقة .

إن ديكتاتورية المجتمع تتفوق على أية ديكتاتورية أخرى . و ما يقال عن ديكتاتورية الحكام ، هو قمة الديمقراطية أمام هذه الديكتاتورية .. ديكتاتورية الحكام يشار إليها بالبنان و تكال لها السهام و الضربات من كل حدب و صوب و قد تكون أحياناً ليست ديكتاتورية بقدر ما هي طريقة لم تعجب معارضيها الذين قد يكونون هم أنفسهم الدكتاتوريين . بينما ديكتاتورية المجتمع هي ديكتاتورية راسخة متجذرة و تابو مقدس لا يمكن المساس به و لا حتى مناقشة صوابيته و منطقية وجوده ، بالرغم من المعاناة منه على مبدأ (القط يحب خنّاقه) .

خامساً : نظرية العقد الاجتماعي التي تناولت علاقات الأفراد و تناولت تشكيل المجتمع و السلطة التنفيذية كانت للأسف علاقة ثنائية تبادلية بين طرفين اثنين .. السلطة و الفرد .. اللذان يشكلان

أساس و عماد المجتمع .. هذه النظرية (و هي برأيي أهم ابتكار أو حدث في تاريخ البشرية و هي أساس و ضمان النظام و الأمن) كان يجب أن تتناول المجتمع أيضاً بوصفه حالة أو جهة اعتبارية .. كان يجب اعتبار المجتمع طرفاً مادياً ثالثاً .. لكن المشكلة أن تم اعتباره حاوي و مستوعب بدل من أن يكون طرفاً . و هنا لب القضية و سر الموضوع .. هنا تكمن مشكلة عدم القدرة على إسقاط ديكتاتورية المجتمع و الاقتراب من أعرافه الفاسدة الظالمة .. هنالك مصطلحات خطيرة جداً ... أخطر مما يفوق التصور مثل (الأمراض الاجتماعية – الظلم الاجتماعي) يتم طرحها للأسف كمصطلحات مجردة مستخلصة من كل علاقة أو ارتباط و يبقى المجتمع ذاك المجرم الأكبر ، بمنأى عن أي تناول أو محك . بمعنى أن هذه المصطلحات تطرح كحالة منفصلة عن المجتمع .. أي هي شيء موجود بالمجتمع و لكنه ليس المجتمع . و كذا الأمر مع مصطلح الظلم الاجتماعي . لكن أنا أقول و بالصوت الملآن .. (الأمراض الاجتماعية) هي المجتمع بعينه لكن بصورة و هيئة أشكلت على الناظرين . و كذا الأمر .. (الظلم الاجتماعي) هو المجتمع بعينه و لكن بصورة و هيئة أشكلت على الناظرين .. هما المجتمع .. المجتمع .. ذاك المجرم الأكبر . رفعت الأقلام و جفت الصحف .

الكيمياء الذهنية و التوجيه الإعلامي[1]



الإنسان هو كائن متفاعل مع الوسط المحيط به . و تأثر النفس البشرية بالمحيط المادي و الغير مادي ، هو حقيقة علمية لا ريب فيها . فمن المتعارف عليه أن الإنسان يتأثر بما حوله بشكل طبعي ، و يتأثر بما تتلقاه حواسه الفيزيولوجية . و من المعلوم أيضاَ أن الإنسان يبدأ بالتعلم و اكتساب المعرفة و التأثر بالوسط المحيط به منذ اللحظة الأولى للولادة ، حيث يكون التلقي و التعلم عن طريق الوسط الخارجي المحيط ، كاملاً بنسبة مائة بالمائة ، حيث لا مجال للتفكير و

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠١٠/٩/١٣ .

المناقشة و محاكاة الخطأ و الصواب عند طفل رضيع أو طفل بلغ سنيّه الأولى من العمر التي تناهز في أقصى حد لها ، العشر سنوات .

في بداية تلك الفترة ، يشكل العلم المكتسب (المقصود هنا العلم الذي يتلقاه الإنسان سماعاً من الغير) المجرد البحت ، كامل مورد الخبرة و التعلم . ثم يبدأ مع تزايد العمر ، بالانخفاض بشكل تدريجي ، و تبدأ خاصية التجرد من العلم المكتسب حيث يبدأ العلم اللدني (المقصود هنا العلم المكتسب بالتجربة الذاتية) بالتشكل و الظهور بشكل مطرد مع تناقص العلم المكتسب ، حتى يصل الإنسان في مرحلة معينة من العمر (يُفترض بنظري أنها بين الــ ٣٠ – ٤٠ عاماً) إلى حصول توازن ما ين العلم المكتسب و العلم اللدني ، و فيما بعد يطغى أحدهما على الآخر تبعاً لوعي الشخص و البيئة و الظروف المحيطة به و الثقافة التي يتحصل عليها . هذا هو المسار الافتراضي الذي يفترض أن يسلكه الشخص الذي تحصل منذ ولادته و حتى أواخر سني شبابه على علم مكتسب عقلاني منطقي صحيح و سليم و خالٍ من شوائب التطرف و التعقيد و العاطفة ، ما يجعله قادراً على التمييز و التمحيص بأية مؤثرات سمعية أو بصرية أو فكرية قد تطرأ عليه و تؤثر به ، فيتعامل معها إما بالرفض أو بالقبول .



أما إذا ما نشأ المرء في بيئة موبوءة بالأمراض الاجتماعية و التطرف الفكري و الديني و خالية من أية عناصر ثقافية فكرية متطورة ، بل هي بيئة مريضة رجعية ، فإن هذا الشخص حتماً سوف يكون عبارة عن إنسان متلقٍ خالٍ من أي علم لدني مكتسب بالتجربة و إعمال الفكر و العقل . و سوف لا تختلف فترة ولادته عن فترة وفاته في أرذل العمر حيث تكون حياته كلها من بدايتها إلى نهايتها عبارة عن كتلة واحدة متجانسة في النفس و الفكر ، خالية من أية تحولات إيجابية تطورية ، لا بل على العكس من ذلك تماماً ، ستكون عبارة عن ردات انتكاسية ارتكاسية خلفية متتالية . و لا مجال هنا لعلم لدني بأي شكل من الأشكال . هنا و الحالة هذه ستكون فترة أرذل العمر ... فترة أرذل الفكر و العقل . حيث يصبح المرء بعد استمرائه حالة العلم المكتسب

، مجرد وعاء تلقي المعلومات و البيانات و حصراً منها .. السمعية و البصرية . و ينبذ ما تبقى من مصادر أخرى كالقراءة و الاطلاع و التحليل و المقارنة .. الخ .

و خطورة القضية هنا ، هي أن المرء يسقط كل ما يتلقاه من الوسط الخارجي على ما تربى عليه و تم تلقينه عليه في صغره . فإن وافق .. أخذ به ، و إن لم يوافق .. ضرب به عرض الجدار . و الأخطر من هذا و ذاك كله ، أن المرء يصبح مستعداً لقبول كل ما يتلقاه من أفكار و مؤثرات سمعية و بصرية ، فقط لمجرد دخولها في سياق ما تربى عليه في صغره أو ما يعرف بالرموز الفكرية ، حتى و لو كان ذلك يشكل خطراً عليه أو ضد أفكاره و مبادئه نفسها التي تربى عليها ... فقط لمجرد الدخول في سياق تلك الرموز حتى و لو كانت ضدها .

هذا الكلام يشكل أحد أقسام و فروع علم يسمى (الكيمياء الذهنية) و هو من أشد العلوم خطراً . و أول مرة سمعت به و اطلعت عليه ، عندما كنت في روسيا . هذا العلم له فروع و مناهج و مباحث عدة منها ما هو مستقل و منها ما هو مرتبط . و يأخذ أكثر من تعريف . و من أحد هذه التعاريف .. (علم التلاعب بالأفكار) بحيث تتغير الفكرة و يعتقد صاحبها و يتوهم أنها بقيت كما هي . و الآن لننتقل من (الكيمياء الذهنية) المعقدة بعض الشيء ، و نحاول شرح الأمور بشكل مبسط بواسطة الصور و البنود التالية و نرجو فهمها جيداً لأنها سوف تشرح ما بعدها و ما قبلها من كلام .

١) ـــ في إحدى التجارب العلمية على الضفادع (الضفدع معروف بأنه من أكثر الكائنات حساسية لفرق الحرارة بالماء) قام العلماء بوضع ضفدع في وعاء زجاجي مملوء بالماء و موصول بجهاز متطور يزيد حرارة الماء درجة مئوية واحدة كل خمس دقائق . و بقيت الضفدعة قابعة في الماء لا تتحرك . و ظلت حرارة الماء تزداد شيئاً



فشيئاً و الضفدعة ساكتة لا تتحرك ، حتى وصلت إلى درجة قريبة من الغليان . و انسلقت الضفدعة و فطست دون أن تشعر بفرق الحرارة أو بشيء غير عادي .

٢) ـــ في علم الاغتيالات توجد طرائق متعددة لعمليات الاغتيال ، منها الاغتيال عن طريق السم ، و هي طريقة معروفة منذ القدم . أما الأسلوب الذي كانت تتم فيه ، فهو السوآل عن الطعام المفضل للخصم أو الهدف المراد قتله ، و من ثم دس السم فيه . و هي طريقة قديمة معروفة و كثيراً ما تم استعمالها عبر التاريخ منذ القدم و حتى الآن . و في العصر الحديث كانت تستخدمها أجهزة الاستخبارات بكثرة و منها جهاز الـــ (كي جي بي) في العهد السوفيتي ، و غيره من الأجهزة . و أحد السياسيين القياديين في إحدى المنظمات الذي نجا من محاولات اغتيال عدة من قبل جهاز استخبارات معين . و لما أعيتهم الحيلة ، سألوا عن الشيء الأفضل الذي يحب تناوله ، فقيل أنه يحب تناول ماركة نوع معين من الشوكولاته تصنع في أوروبة . و تم دس السم له في الشوكولاته و إرسالها له .

٣) ـــ في علوم الكهرباء و الميكانيكا تعتمد الآلة أو الجهاز من ضمن ما تعتمد ، على مبدأ التوصيلات و المآخذ و الأسلاك الكهربائية . و عادة يوجد نظام قياسي عالمي لألوان و مبدأ التوصيلات .. مثلاً (أحمر أحمر – أزرق أزرق – أخضر أخضر – أصفر أصفر) حتى يدور الجهاز و يعمل بطريقة معينة . و يكفي فقط التبديل بين أحد القوابس أو بعضها .. مثلاً (أحمر أخضر – أزرق أزرق – أخضر أحمر – أصفر أصفر) حتى يعمل الجهاز أو الأداء بالاتجاه المعاكس . فإن كان يصعد للأعلى ، فإنه سيترل للأسفل .. الخ . و هذه الطريقة معروفة و يستخدمها بعض الفنيون لاختصار أمر معين و تبدو طبيعية تماماً .

٤) ــ هنالك ما يعرف بالأشياء و مناطقها .. أي بمعنى ، الشيء و منطق هذا الشيء . الجنس و منطق الجنس .. القتل و منطق القتل .. الفوضى و منطق الفوضى .. القانون ومنطق القانون . و منطق الشيء من المنطلق الفكري ، يختلف تماماً عن الشيء ذاته و قد يكون أحياناً أخطر من الشيء ذاته . و يمكن الافتراض في الحالات النظرية البحتة أنهما وجهان لعملة واحدة . غير أنهما في الحقل و المجال الإعلاميين ، شيء مختلف تماماً ، و يبدو الآمر واضحاً تماماً للمراقب و صاحب الخبرة و الدراية . فما هو الفرق بين الشيء و منطق الشيء ؟

باختصار جداً (منعاً للإطالة في المقالة) عندما يعرض فيلم سينمائي مثلاً و يكون ضمن أحداثه جريمة قتل ، فهذا يسمى الشيء أو الحدث الذي ينطبع في ذهن المشاهد الذي يدرك أن هذه جريمة قتل .. لكنه ينكرها و ينبذها عقله بداهة ، كونه يعرف من خلال الوعي الداخلي العقلي لديه أن هذا أمر منكر و شاذ و غير مقبول . فضلاً عن أن جريمة القتل التي جاءت في حيثيات و أحداث الفيلم ، جاءت كعبرة و حالة توضيحية يتعظ منها المشاهد ، و يتجنب القتل بعد أن يقوم المحقق البطل بإلقاء القبض على الفاعل و تقديمه للقضاء و إصدار الحكم بحقه . و من مثال ذلك الأفلام و المسلسلات البوليسية (كبرنامج حكم العدالة في سورية) .

أما عندما يَعرض فيلم سينمائي ، البطل أو الرمز الديني أو الاجتماعي ، قاتل يمارس هواية القتل . و كل الرموز الإيجابية في الفيلم ، تقوم بأعمال القتل بحجج واهية أو معدومة أو مفبركة ، فإن هذا ما يسمى بمنطق القتل . و العملية هنا هي عملية تسويق لمفهوم القتل و تقويض لتجنب القتل . بينما في الحالة الأولى تكون العملية عكسية .. تسويق منطق تجنب القتل و تقويض فعل القتل مع أن الفيلم كله يدور حول عملية قتل . إذن .. في الحالة الإعلامية ، منطق الشيء هو الذي يسود و ينطبع في عقل الشخص المتلقي ، سواء أكان بالتسويق أم التقويض . و يصبح الشخص مهيأ فعلياً إما لممارسة هذا المنطق ، أو القبول به في حال حدوثه و اعتباره أمراً طبعياً بغض النظر عن خطورته و ضرره الشديد على المجتمع .

إن المجتمعات التي تنعدم فيها الثقافة الفكرية الحرة العقلانية الخالية من الخرافات ، و تعتمد في معظم أو كل ثقافاتها الفكرية على الخواء العاطفي الغريزي المصحوب بمبادئ فارغة عقيمة أصبحت من الماضي ، و تكون شكلاً من أشكال التلقي .. هذه المجتمعات تصبح مؤهلة و جاهزة لتلقي كافة المؤثرات المدمِرة المخرِبة للمجتمع و كل القيم البشرية الأخلاقية العالمية (حصراً العالمية) المتعارف عليها بين جميع بني البشر دون أن تشعر بذلك .

و في العصر الحالي ، أضحت الأداة الأكثر استعمالاً و الأكثر فعالية في تمرير الأفكار و السيطرة على العقول ذات السوية المنخفضة من الوعي ، هي الإعلام بوسائله المتعددة المعروفة و أكثرها الآن الفضائيات البصرية التي جمعت بين الصوت و الصورة (و هي مثالنا المعتمد في هذا المقال) . و في مجتمعات العالم الثالث و منها للأسف مجتمعاتنا العربية ، يضحى منطق الشعارات و الرموز ، هو المنطق المهيمن على عقول الجمهور المتلقي ، بخاصة و أن الفضائيات العربية الآن (خلا القلة القليلة منها) قد أصبحت بوقاً من أبواق الدعاية و الترويج للتخلف و الجهل و الفتن و الفوضى و الخواء . بالاعتماد على الظهور بمظهر الحقيقة و الصدق و محاولة النفاذ إلى مشاعر الناس و عقولهم بسرعة و يسر بالاعتماد على ما تريده غرائز هؤلاء و مخزون ذاكرتهم المشبع بالموروث الاجتماعي ، و عقولهم المشبعة برموز الوطنية و الشهامة و الخير و الفتوة و الدين ، إلى ما هنالك من رموز معتمدة لدى الإنسان العربي . و بالاعتماد على أحداث سياسية تشغل بال المواطن العربي و تمثل حالة الحدث البارز سواء أكانت حالية أو حديثة العهد . و هي تمثل حالة من حالات الانفعال العفوي و اللاإرادي عند هذا الإنسان ، و تثير لديه مواطن الغريزة المنفلتة من عقال العقلانية و المنطق . و الآلة الدعائية الإعلامية لم توقف مجال شوطها فقط عند الأخبار السياسية و الصحفية ، بل تعدت ذلك إلى الأعمال



الفنية أو ما يعرف بالدراما أو التمثيل .

من سوابق ما تم ذكره ، و أمثلة ما قيل ، نسوق عملين فنيين يمثلان بنظرنا حالة شديدة قصوى في التأثير الإعلامي السلبي .. هما مسلسل وادي الذئاب و مسلسل باب الحارة و هما بنظرنا يمثلان وجهان لعملة واحدة ، فما هي هذه العملة ؟؟

وادي الذئاب :

وادي الذئاب مسلسل تابعته حديثاً بعد أن تعرضت أكثر من مرة للسوآل عن رأيي الشخصي فيه من أكثر من جهة . و قد كان لي فرصة متابعة بعض حلقاته في جزئه الأول عندما تعرضت لوعكة صحية ألزمتني الفراش أيام عدة . و الحقيقة أنني أعجبت بتلك الحلقات .. بعد ذلك كانت متابعتي له على شكل حلقات متقطعة حسب تواجدي بالمترل . إلى أن دار مرة نقاش بيني و بين شخص أصر على معرفة رأيي بهذا المسلسل ، و عندما أخبرته أني لم أتابع حلقاته كلها و بالتالي لا أستطيع تكون فكرة واضحة عنه ، تبرع الرجل مشكوراً و أحضر لي أقراص DVD المسلسل كاملة و كان قد أصبح في نهاية جزئه الثالث حينها و قمت بمشاهدة الحلقات كلها و تابعت الحلقات اللاحقة فيما بعد سواء بالمشاهدة المباشرة على التلفاز أو استكمال المنقوص (عبر الفيديو) و خلصت إلى النتيجة التالية :



١) ـــ لست في وارد مناقشة الخزعبلات التي ظهرت في المسلسل و الخوارق الفوقبشرية التي تمتع بها بطل المسلسل (يحارب بالمسدسات هو و اثنين من عصابته ، جيش من المصفحات و الرشاشات و المدافع و القذائف الصاروخية و يقضي على الجميع دونما مس من أذى – يقتحم المعاقل و الحصون بمسدس ... الخ) . فهذه لها مجال آخر .

٢) ــ المسلسل حسب الظاهر للعيان ، يناقش عبر أجزاءه الخمسة ، أمور ثلاث : المافيا – نظام العائلات المؤسساتي العالمي – نظام الغلاديو . و يدعي بالظاهر أن بطل المسلسل المدعو (مراد علمدار) جاء ليقضي على هذه المظاهر الثلاث .

٣) ــ البطل مراد علم دار لم يصنع شيئاً و لم يحقق أي هدف من الأهداف . فالمافيا التي تم زرعه فيها لأجل القضاء عليها ، لم يقض عليها بل قضى عليها نظام المحفل السري الذي قتل العراب محمد قرخانلي و قام بتصفية بقية العرابين. بينما لم يفعل مراد علمدار شيئاً . و في الجزء الثالث من المسلسل يظهر لنا فجأة عدو جديد هو نظام المؤسسات العائلية و تنطُحْ مراد علم دار لمحاربته ، و كذا الأمر ، لم يفعل شيئاً و بقي هذا النظام موجود . و يبرز أيضاً شخصية جديدة هي (اسكندر الكبير) الذي تدور بينه و بين مراد علم دار معركة كر و فر مضحكة و تثير السخرية ليس لها هدف سوى القتل . و في الجزء الخامس لا يقضي مراد على الغلاديو و الذي جاء في المسلسل بطريقة مغايرة عن التعريف الأصلي له . بل ينتصر الغلاديو عليه و يثبت نفسه بعد أن يقتل زوجته و يخطف ابنته . فماذا فعل مراد علمدار ؟؟؟!!!!! و ما هو دور مراد علمدار ؟؟؟؟!!!!!! و ما هي الغاية من وجود مراد علمدار ؟؟؟؟؟؟؟؟!!!!!!!!! .



٤) ــ مراد علم دار هو بكل بساطة عبارة عن مجرم قاتل. دوره في أجزاء المسلسل الخمس هو القتل و فقط القتل و لا شيء غير القتل .. قتل الأبرياء و غير الأبرياء و القتل بكل بساطة . شخص ليس له هدف و لا قضية محددة و لا يتبع جهة محددة .

٥) ــ مسلسل وادي الذئاب هو مسلسل لا هدف له و لا قضية غير قضية القتل .. فقط القتل و لا شيء غير القتل . هو مسلسل هدفه تسويق منطق القتل و الجريمة .. مسلسل يؤسس للقتل و يشرعن له . يؤسس للفساد و الجريمة بأنواعها كافة و يشرعن لها . البطل مراد علمدار يتعامل بالمخدرات و التهريب و أعضاء عصابته مجموعة من القتلة و المهربين . ليس هم فقط بل معظم الممثلين .. أول مرة في حياتي أرى مسلسل يكون كل الممثلين فيه من القتلة و المجرمين و البقية من المقتولين !!!!!!! هل معقول مسلسل يكون الممثلين فيه أما قتلة أو مقتولين ؟؟؟!!!!! هل معقول مسلسل من خمسمائة حلقة على مدى خمسة أجزاء و ثلاث سنوات ، لا تعرض فيه حلقة من الخمسمائة إلا و تكون من بدايتها إلى نهايتها عبارة عن قتل بقتل ؟؟؟!!!!! . ليس القتل فقط ... بل التفنن بالقتل و بطريقة بربرية وحشية و إظهار مظاهر و مشاهد التشفي و الحقد أثناء القتل و بالأخص من قبل مراد علمدار و عصابة الإجرام التابعة له ؟؟؟!!!!.



٦) ــ المسلسل ينسف منطق الدولة و القانون و يدرج منطق الغاب و منطق الفوضى العشوائية و منطق الجريمة المنظمة و الغير منظمة و يؤسس لمجتمع اللاأخلاق . البطل مراد علمدار شخص لا مرجعية له و لا يأتمر بأمر أحد ، يتحدى الدولة و رئيس الجمهورية و رئيس الوزراء و رؤساء الأمن و رؤساء البوليس و كل ما هو تابع للدولة و ما يسمى نظام دولة . و يعصي أوامرهم ، لا بل يقوم بمحاولة اغتيالهم أو تصفيتهم فقط لمجرد أنهم لا يسيرون على هواه .. عندما يشاء يدخل دونما إذن على رئيس الشرطة و الشرطة السرية و رئيس الوزراء و رئيس الأستخبارات و رئيس الدولة نفسها .. يقتص من المجرمين و غير المجرمين على هواه و دونما تقديمهم للعدالة و القانون لأنه بالأساس و حسبما يظهر في المسلسل ، لا قانون عنده و لا ضابط . و بدلا من ذلك يقوم بقتلهم و تصفيتهم إما بدم بارد أو بطريقة



وحشية . المحاكم غير موجودة .. الشرطة غير موجودة .. القانون غير موجود .. في الجانب المقابل لبطل المسلسل مراد علمدار ، يوجد مجموعة خصومه القتلة و هم لا يقلون عنه وحشية و جرماً و

الإشكالية هنا هي ظهورهم و على أنهم من أساس و عماد الدولة و المجتمع و الاقتصاد (ضرب لمفهوم الدولة) . و كل حلقات المسلسل تدور حول مراد و خصومه فقط . حتى المجتمع العادي بأشخاصه و مهنييه و اختلاف بقية فئاته و طبقاته ، هو مخفي من المسلسل تماماً . يضاف إلى ذلك تبعية مراد علمدار المرجعية لمنظمة سرية خفية تسمى (الاختيارية) موجودة حسب المسلسل منذ ٢٠٠٠ عام . و لا يعرف عنها شيئاً . أخير هي أم شر ؟؟!! و المضحك المخزي في كل ذلك ، أن البطل مراد علمدار هو رئيس ما يسمى (تشكيلات أمن المجتمع) لاحظوا التناقض الواضح و اربطوا ذلك بالأمثلة الصور (٢ – ٣) المذكورة أعلاه .. أمن المجتمع لا يستقيم إلا بنسف مفهوم الدولة و القانون و تثبيت منطق الفوضى و القتل و الجريمة !! .. أمن المجتمع لا يستقيم إلا بإلغاء فئات المجتمع و شرفائه و مثقفيه المخلصين و إظهار مجرميه و أشراره و جهلته .. كيف يكون رئيس تشكيلات أمن المجتمع مطارد من الدولة و البوليس في معظم حلقات المسلسل ؟؟!! ..

لاحظوا أن معظم شخصيات المسلسل هي شخصيات شريرة ، حتى الشخصيات التي تتلبس لبوس الخير .. مثلاً أبو زوجة مراد هو خائن و عميل – تركي هو تاجر مخدرات و مهرب و مختلس سابق – مورو هو إرهابي و تاجر بشر و مخدرات – يلجين بولوت قاتل و مهرب و تاجر مخدرات – الخال تاجر مخدرات – ميماتي قاتل سفيه و مهرب مازوت ..إلى بقية السبحة من الشلة .. يعني حتى الأشخاص الذين يقومون إن عاجلاً أم آجلاً ، بدور الخير و أصدقاء البطل ، هم قتلة أشرار و مرتكبوا جرائم و جنحات شائنة شائكة ضد القانون و المجتمع . لاحظوا أيضاً أن هؤلاء القتلة المجرمين عندما ينضمون

لمراد في تشكيلات أمن المجتمع المخزية المضحكة التي لا تنطلي إلا على صغار العقول ، لا يشهرون توبتهم و لا يتخلون عن أعمالهم الإجرامية السابقة ، فيبقى تاجر المخدرات على مخدراته و المجرم على إجرامه . لاحظوا التداخل و الإبهام المتعمد المقصود و تميع الفارق و الفيصل ما بين الخير و الشر . مثلاً بابا عمر والد مراد رجل يظهر بالمسلسل على انه الرجل الحكيم المؤمن الطاهر الخير الذي لا يقبل الخطأ ، نلاحظ أنه يتماشى بشكل أو بآخر مع مراد و هنالك نوع من الصمت الذي يعني القبول على أفعاله و تصرفاته .و وجوده في المسلسل هو لتسويق هذه الأفعال في عقول المشاهدين .

٧) ــ المسلسل ينسف مقومات الترابط و التكافل في المجتمع و يقطع روابط و أواصر الصلات الاجتماعية و صلات الجماعة و الأسرة و هي أساس وجود المجتمع .. مراد علم دار يتزوج و لا يهمه أن يقتل أبو زوجته و لا يهمه أن تموت زوجته و لا يهمه أن تموت زوجة أخوه حكمت و لا يهمه أن تموت صديقته أو حبيبته المسماة هدى طوروس متفجرة بقنبلة مزقتها أشلاء بسببه هو ..

مسلسل باب الحارة :



وقفت طويلاً عند هذا المسلسل و لا أدري ماذا أقول بالضبط و لا كيف و من أين أبدأ . و لكن أقول الآتي :

١) ــ إن مسلسلات هذا الشخص و منذ خمس و عشرون عاماً (أيام شامية – الخوالي .. الخ) تدور كلها حول فكرة واحدة لا تتغير .. حارة مغلقة .. مجتمع متعصب .. زعيم أو عكيد يحل محل الدولة و القانون .. احتلال فرنسي .. احتقار المرأة .. تعدد الزواج .. الطمث .. الحيض .. الدورة الشهرية .. الطلاق .. مشكلة شفيقة مع شهيرة .. إلى ما هنالك من علامات استفهام و

إشكاليات خطرة جداً . هل معقول على مدار خمس و عشرون عاماً ، المسلسلات نفسها ؟؟؟؟!!!!!!.. هل معقول يا عالم يا بشر ، على مدار ربع قرن و الكليشة نفسها لا تتغير ؟؟؟؟!!!!! نسخة مكررة عن باب الحارة ؟؟؟!!!! على مدار ربع قرن و ما سبقه و رافقه من أحداث سياسية و صراعات و حروب من حرب النكبة مروراً بحرب النكسة و حرب الاستنزاف المصرية و حرب تشرين و حرب الاستنزاف السورية و حرب الــ / ٧٨ / و حرب الــ / ٨٢ / و حرب الخليج الأولى و حرب الخليج الثانية التي دمرت العراق و حرب الخليج الأخيرة التي دخلت أمريكا فيها العراق و كل المآسي و الكوارث و الفواجع التي حصلت فيها و حرب تموز في لبنان . و هذا الرجل .. و سبحان الذي لا إله إلا هو ، مو شايف غير الفرنسي ، و كل مسلسلاته عن الفرنساوي و العثماني .. فلماذا ؟؟؟؟؟؟؟؟!!!!!!!!!



٢) ــ المسلسل بأجزائه الخمسة يسوّق الجهل و التخلف و ينسف منطق العلم و الحضارة و بحجة التراث ، بدءاً من عنوانه (باب الحارة) مروراً بمضمونه و انتهاء بجزئه الخامس والأخير .. وجود الباب يعني وجود سور .. وجود سور يعني الغيتو و نظام الغيتو و مفهوم الغيتو ، الذي هو أخطر نظام اجتماعي عرفته البشرية .. هذه حقيقة واضحة موجودة عبر التاريخ و لا مجال لإنكارها . و التعريف العلمي للغيتو باختصار : هو قطاع من مدينة أو منطقة تسكنه أَقلية عرقية، أو دينية، أو مجموعة قومية. إما باختيارها أو رغماً عنها كما هو الحال في أوربا القرون الماضية و هذا القطاع يكون عادة عبارة عن حي (حارة) مغلقة محاطة بسور و باب ضخم يغلق ليلاً و يفصل السكان الذين يعيشون فيه عن بقية فئات المجتمع فكرياً و عقائدياً و دينياً و عنصرياً و عرقياً حيث يكونون فئة متجانسة تماماً من المكونات السابقة . و نظام الغيتو عبر التاريخ (أوروبة مثلاً) ارتبط بالحروب الأهلية و المذابح و التخلف و الرجعية و العزل الفكري و الثقافي حتى و لو كان في بعض الأحيان القليلة يمثل الجماعات الوظيفية و هي كانت موجودة في أوروبة حصراً . و الملاحظ في المسلسل هو الإصرار



على إبراز باب الحارة دائماً و جعله جوهر و لب المسلسل و جعله من التراث الأصيل و من الشرف و القيم التي لا يمكن التسامح بها ، و جعل إزالته قضية

حياة أو موت .. قضية وجود و مصير . و تسليط الضوء عليه و إبراز مقاطع إغلاقه و فتحه و التحدث عنه في كل شاردة و واردة و كل مفصل و مقصد .. باب الحارة .. الباب .. فتحوا الباب .. سكروا الباب .. راح الباب .. إجا الباب .. الباب .. الباب .. الباب .. الباب .. لاحظوا التكرار المتعمد . و لاحظوا هذه العبارة (الباب بدو يرجع غصباً عن اللي بيقول إي و الي بيقول لأ) هذه عبارة خطيرة جداً و أخطر من التصور لاحظوا أيضاً أن المسلسل انتهى بإغلاق الباب ..

يا سيدي هذا الباب خرب لنا بيوتنا .. و كل بلاوينا و مآسينا على مدار قرون عديدة من تحت قرعة أبو هذا الباب ، و كل مظاهر التخلف بسبب هذا الباب .. الاستعمار الأجنبي جاء بسبب وجود هذا الباب .. ألا يكفينا مآسٍ ؟؟!! ألا يكفينا تخلف و تبعية و تقهقر إلى الوراء ؟؟!! بدلاً من أن نناقش الوضع العربي الحالي المزري المفجع المبكي .. يومياً ضحايا قتل و تفجير يذهب ضحيتها المئات و الآلاف . بدلاً من كل هذا ، نناقش قضية شفيقة و خيرية ؟؟؟؟!!!!! أهذه هي مشاكلنا ؟؟!!! أهذه هي قضايانا ؟؟!!! مشكلة شفيقة مع خيرية و تحبيل بدرية و الدورة الشهرية لسعاد و طلاق فتحية ؟؟؟!!! هل المطلوب إشغالي و إلهائي أنا المواطن العربي بهذه الأمور و القضايا على مدار خمس سنوات و جعلها قضية جوهرية محورية في هذه الفترة العصيبة بالذات ؟؟!! لحساب من ؟؟؟؟؟ و خدمة لمن ؟؟؟؟



اذهب أيها المواطن العربي إلى مجسم للكرة الأرضية و قم بتدويره و انظر في أية بقعة منه كانت الحروب و المجازر و الانقسامات و أين أناخ الاستعمار رحاله منذ قرون ، هل ترى غير الأرض العربية ؟؟ هل سألت نفسك عن السبب ؟؟ ما هي الغاية من لقطة تعرض في

باب الحارة تصور رجلاً جاء لزيارة شقيقته التي هي جارة لبيت أبو عصام ، و عندما وقف على الباب المفتوح ، جاء المدعو معتز و قام بضربه بوحشية مقصودة و أخذ يلكمه و يرفسه بالأرجل و الأيدي و تم تصوير مشهد تفجر الدم من الرجل الذي يسقط فاقداً الوعي .. فقط لأنه نظر إلى بيت أخته . علماً أنه كانت يقف على العتبة و يطرق الباب و لم يتجاوزه . لحساب من هذا المشهد و لأجل ماذا ؟؟؟ و لحساب من تأتي اللقطة الأخرى التي يظهر فيها عضوات الحارة و يقولون (و الله كان بدو إياها) لحساب من ؟؟؟؟؟ خدمة لمن ؟؟؟؟؟؟ تسويق ماذا ؟؟؟؟!! يوجد الكثير من اللقطات و المشاهد المقصودة الموجهة و لا مجال للذكر هنا منعاً للإطالة .



٣) ــ قضية الاستعمار الفرنسي في المسلسل .. هي قضية يشوبها الكثير من اللبس و الغموض ، بخاصة و أن كل مسلسلات هذا الشخص تتحدث عن الاستعمار . و النتيجة التي خلصت إليها ، أن المقصود ليس الاستعمار الفرنسي بل شيء آخر .. فمن المعروف أن كل الأفلام و الأعمال الدرامية في العالم (و منها الدراما العربية) عندما تتناول قضية الاستعمار و الاحتلال ، فإنها تتوج بالنهاية برحيل المحتل و المستعمر و تحقيق الاستقلال الذي يظهر في المشاهد الأخيرة .. الأفلام و المسلسلات الروسية التي تناولت الاحتلال الألماني ، و الأفلام و المسلسلات الأمريكية التي تناولت الاستعمار البريطاني لأمريكا و تحقيق الاستقلال و الحرب العالمية الثانية ، و الأفلام و المسلسلات الفرنسية التي تناولت الاحتلال الألماني ، حتى الدراما الصينية و اليابانية .. كلها في النهاية تبرز مشهد الاستقلال و خروج المستعمر أو المحتل ، إلا هذا الشخص و سبحان الذي لا إله إلا هو ، لا يتحدث عن الاستقلال نهائياً و كل المستعمرين في أعماله .. لا يخرجون .. أنا كنت أتوقع من مسلسل باب الحارة الذي يدعي الوطنية و التراث و بعد مضي خمس سنوات على مدار خمس أجزاء ، أن يخرج المستعمر الفرنسي في نهاية المسلسل !!!! فلماذا يصر هذا الرجل على استبعاد موضوع الاستقلال من كل أعماله ؟؟؟؟!!!! قام بإلغاء حقائق المقاومة الوطنية أبان فترة الانتداب الفرنسي و لم نقل شيئاً .. ألغى الثورة العربية الكبرى بقيادة الزعيم

سلطان باشا الأطرش و ألغى إبراهيم هنانو و العلي و غيره من زعماء الثورات و الحركات الوطنية و سكتنا و لن نقل شيئاً .. و اكتفى بتصوير النضال المسيحي بصورة مبتورة مشوهة لامرأة مقطوعة من شجرة اسمها (أم جوزيف) ظهرت فجأة بقدرة قادر و سلط الأضواء عليها بطريقة مقصودة و ملفتة للنظر لغاية في نفس يعقوب .. أمرنا إلى الله ، ما حكينا شيء ، لكن لماذا يصر على طرح الاستعمار و يصر على استبعاد الاستقلال ؟؟؟؟!!!!!!! .. بصراحة لا يوجد تفسير غير أن المقصود ليس الاحتلال الفرنسي .

٤) ـــ المسلسل ينسف منطق الدولة و القانون تحت حجة الاحتلال الفرنسي و بدلاً من نظام الدولة و القانون ، يطرح نظام العكيد ، و سبحان الذي لا إله إلا هو ، بحثت عن نظام العكيد في الموسوعات و القواميس و المصطلحات ، فلم أجد له أثراً و لا تعريفاً . و كل ما قيل مشافهة ، هو روايات شعبية عن شخصية القبضاي في بلاد الشام و في مصر يسمونها الفتوة و يطلقون على هذه الشريحة من المجتمع اسم (البلطجية) و في العراق تسمى (الشقاوة) و هي شخصية حسب التاريخ تعتمد نظام السلبطة و البلطجة و القوة الجسدية للوصول إلى زعامة الحي و فرض أتاوات و خوات على أهالي الحي الذي يسيطرون عليه . و في الروايات ، تعد هذه الشخصية خير مثال على الظلم الاجتماعي و التخلف و الخروج على الدولة و القانون ، و خير من عبر عن هذه الشخصية هي الدراما المصرية التي كانت تطرح هذه الشخصية للتعبير عن الظلم و التخلف و الجهل في المجتمع . لاحظوا أيضاً الشخصيات القيادية في مجتمع باب الحارة من هي ؟؟ الحمصاني .. الحلاق .. الفران .. الزبال .. بائع الخضرة .. صاحب المقهى ؟؟؟!!!!!



انظروا لهذه الرموز التي تكررت دائماً على مدار كل المسلسلات الأخرى شقيقة باب الحارة كشخصيات قيادية . لاحظوا أن شخصية الطبيب التي ظهرت في المسلسل ، ظهرت بشكل خانع ذليل تابع لهؤلاء يقودونه كيف شاؤوا (أمرك عمي .. حاضر سيدي .. تاج راسي) .

أنا أحترم مهن المجتمع كلها بدءاً من أدنى مهنة إلى الأعلى ، لا بل أحترم المهن الدنيا أكثر من العليا . و لكن .. و لكن .. حرف استدراك .. أن توضع هذه المهن كرموز لقيادة المجتمع ؟؟!! .. فهنا نقول ستوب عمي .. معلش اسمحوا لنا .. هذه المهن مع الاحترام ليست لقيادة مجتمع و نظام دولة و لم يظهر في التاريخ كله ما يثبت هذا الشيء اللهم إلا في بعض القبائل الموجودة في مجاهل غابات إفريقيا و الأمازون . أين الطالب في هذا المسلسل ؟؟ أين أستاذ المدرسة ؟؟ أين المثقف ؟؟ أين المحامي ؟؟ أين المدرسة ؟؟!! أين المكتبة ؟؟!! أين و أين و أين ..لا بل أين مظاهر الحضارة التي كانت موجودة تلك الفترة ؟؟؟!!! قال إيش ؟؟ قال ملحمة تاريخية .. و قال إيش ؟؟ قال المسلسل يتحدث عن قضية فلسطين و انزعجت منه إسرائيل .. جايين تسلبوها على ربنا ؟؟؟؟هكذا قيل أيضاً عن مسلسل وادي الذئاب .

٥) ــ ما هو هذا التراث الموجود في باب الحارة و الذي يجب نبشه و تسويقه و المحافظة عليه .. هل هو تعدد الزوجات ؟؟ هل هو الصراخ و الصياح بطريقة الخوار للتعبير عن القوة و الفحولة و الشهامة ؟؟ هل هو الإساءة للمرآة و جعلها في مرتبة أدنى من مرتبة البشر ؟؟ هل هو في نفي مظاهر العلم و تسويق مظاهر الجهل ؟؟ هل هو تسويق مظهر الانعزال و الانغلاق و الصدام مع كل ما هو خارج نطاق هذا الغيتو ؟؟!! و كل ما دق الكوز بالجرة يقال .. التراث الأصيل .. يجب استحضار التراث .. عمي عادة أكل لحوم البشر (و هذا كلام تاريخي علمي صحيح) كانت سائدة في بعض المناطق و القبائل الإفريقية حتى أوائل القرن الماضي و كانت عرفاً اجتماعياً و من التراث و كان رئيس القبيلة إذا جاءه ضيف كبير ، يقدم له منسف بشري تعبيراً عن الاحترام و التقدير و الإتيكيت .. إذن طالما القضية قضية تراث ، حق للدراما الإفريقية أن تصور مسلسل تسوق فيه أكل لحوم البشر و تظهرها بطريقة الرموز الإيجابية ، فيأتي مثلاً أبو شهاب الإفريقي و يلتهم رجلاً .. إيش عليه .. ليش لأ ؟؟؟ في الماضي كانت الناس تعتقد أن الأرض موضوعة على قرني ثور و كان هذا من التراث ثم ثبت بطلان هذا القول .. في الماضي كان الناس

يعتقدون أن الأرض مركز الكون و أن الشمس تدور حولها ثم ثبت بطلان هذا القول .. و الكثير من المعتقدات التي هي خرافات كانت تراث ، فهل نأتي الآن في هذا القرن .. قرن التحدي العلمي التكنولوجي .. قرن الزمن الذي لا يرحم الضعفاء و يرمي بهم إلى مزبلة التاريخ و نسوق هذه الترهات التي هي عبارة عن ألغام ؟؟!! هل بحجة نبش التراث ننبش هذه الألغام المطمورة المعرضة للانفجار بحجة أنها تراث ؟؟!!! هذا الألغام لطالما انفجرت بنا في الماضي و أرجعتنا القهقرى سنين و عقود و قرون .

في النهاية .. هذان المسلسلان هما وجهان لعملة واحدة .. عملة ضرب و تفتيت المجتمع و القانون و الدولة و تسويق شريعة الغاب .

ذاك يورث القتل و ذاك يورث الجهل .. و إذا اجتمع الاثنان .. القتل و الجهل .. كانت الكارثة الكبرى التي نراها الآن بأم الأعين فيما يحصل .. كارثة الفوضى و انتفاء القانون و الدولة .

يقول هربرت شيللر أستاذ مادة وسائل الاتصال بجامعة كاليفورنيا " يقوم مديرو أجهزة الإعلام بوضع الأسس لعملية تداول الصور و المعلومات و يشرفون على معالجتها و تنقيحها و إحكام السيطرة عليها ، تلك الصور التي تحدد معتقداتنا و مواقفنا ، لا بل و تحدد سلوكنا في النهاية . و عندما يعمد هؤلاء إلى طرح أفكار و توجهات لا تتطابق مع حقائق الوجود الاجتماعي ، فإنهم يتحولون إلى سائسي عقول . ذلك أن الأفكار التي تنحو عن عمد إلى استحداث معنى زائف و إلى أنتاج وعي لا يستطيع أن يستوعب بإرادته الشروط الفعلية للحياة القائمة أو أن يرفضها ، سواء على المستوى الشخصي أو الاجتماعي ، ليست في النهاية سوى أفكار مموهة مضللة " .

كلمة أخيرة : للذين استمتعوا و يستمتعوا بهكذا أعمال نقول : اللي من إيدو .. الله يزيده

إلا هذا الحيوان[1]



الحيوان في العرف و المصطلح العلمي ، هو أي كائن حي يوجد في الكرة الأرضية و يعيش عليها و ضمن نطاقها ، بطريقة من الطرق ، سواء في اليابسة أم في الماء أم في الهواء . و الحيوان في مجال التعريف هذا (أي الكائن الحي) ، يقسم إلى أنواع عدة و يندرج ضمن تصانيف مختلفة . فيمكن القول أن الكائنات الحية (الحيوانات) تقسم إلى الحيوانات و النباتات و الحشرات مثلاً . و يمكن القول أيضاً أن الحيوانات تقسم حسب الأصناف الرئيسة إلى البري و الطائر و المائي و البرمائي . و من نافلة القول أيضاً أن الحيوانات تقسم حسب فصائلها إلى الفقاريات أو اللافقاريات .. الثدييات أو اللاثديية .. وحيدات الخلية أو الأكثر .. اللاحمة أو العاشبة .. المنتصبة أو الزاحفة .. إلى ما هنالك من تصانيف و تقسيمات علمية مختلفة . و هذه التقاسيم و التصانيف ، تتداخل فيها الحيوانات (الكائنات الحية) بمختلف أنواعها ، فتجد مثلاً حيوان ينتمي

---

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠١٠/١٢/٧ .

إلى أكثر من فصيلة في آن معاً كالحمام مثلاً الذي ينتمي إلى فصيلة الطيور و الفقاريات ، أو الإنسان الذي ينتمي إلى فصيلة الفقاريات و الثدييات و المنتصبة .. أو الأفعى التي تنتمي إلى فصلية الفقاريات و الزواحف و لا تنتمي إلى فصيلة الثدييات . و في القرآن الكريم وقع مصطلح الحيوان علمياً على مسمى (الدابة) الذي شمل كل الكائنات الحية التي تدب على الأرض (بما فيها الإنسان و الحشرات)

(... فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ...) (البقرة:١٦٤)

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ...) (هود:٦)

(... مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (هود:٥٦)

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ ...) (النحل:٤٩)

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ) (النحل:٦١) واضح هنا أن المقصود هو الإنسان حصراً .

(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (النور:٤٥) لاحظ الوصف العلمي الدقيق الذي تؤيده النظريات العلمية اليوم من أن أصل الكائنات الحية هو الماء .

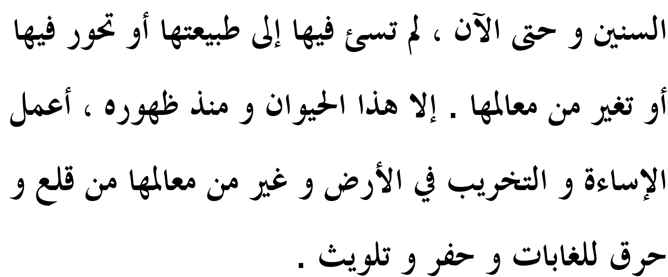
(فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ ...) (ســـبأ:١٤) وقع وصف الدابة هنا على حشرة العث أو الأرضة التي تأكل الخشب و هي حشرة مشهورة توجد في الأخشاب و تقوم باجترارها و تفتيتها .

على أنه يوجد تقسيم آخر للحيوانات تم فيه تمييز نوع واحد فقط منها ، دوناً عن بقية خلق الله جميعاً من الحيوانات ألا و هو الحيوان الناطق الذي شكل وحده أمة مستقلة متجانسة بذاتها ، دوناً عن بقية حيوانات و دواب الأرض و أممها المختلفة و المتعددة المشارب و الأضراب . و أضحت

عبارة الحيوان الناطق عبارة يختص بها جنس وحيد فقط من كائنات الأرض الحية و هو جنس معروف جيداً . و يقال عنه أيضاً الجنس العاقل أو الذي من المفترض أن يكون عاقلاً . فما هو الاختلاف و الفرق بين هذا الحيوان الناطق و بين بقية الحيوانات ؟؟ إليكم الفروق :

١)- كل الحيوانات في كوكب الأرض قديمة جداً ، و موجودة فيها منذ عشرات و مئات الملايين و آلافها . إلا هذا الحيوان الناطق فهو أحدث حيوان وجد على الأرض و لم يأت بعده حيوان آخر . و لم يتعد وجوده في الأرض آلاف السنين . أي بما معناه (ما له بالقصر إلا من البارحة العصر) .

٢)- كل الحيوانات في كوكب الأرض و طوال مدة بقاؤها و مكوثها فيه منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن ، لم تسئ فيها إلى طبيعتها أو تحور فيها أو تغير من معالمها . إلا هذا الحيوان و منذ ظهوره ، أعمل الإساءة و التخريب في الأرض و غير من معالمها من قلع و حرق للغابات و حفر و تلويث .





٣)- كل الحيوانات في الأرض (من البعوضة و النملة ، إلى الديناصور) و طوال مدة مكوثها و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن لم تتسبب بأية كوارث طبيعية أو مناخية ضارة في الأرض ، إلا هذا الحيوان فقد أعمل تشويهاً و تدميراً بالطبيعة الجغرافية و المناخية للأرض سواء من حيث الكم الهائل من الغازات الضارة التي تسببها مصانعه و آلياته و حروبه و سمومه الكيميائية و تفجيراته النووية المؤدية للزلازل و البراكين و ذوبان الثلوج في القطبين الشمالي و الجنوبي و اتساع ثقب الأوزون المؤدي لمرور الأشعة الفوق البنفسجية القاتلة .

٤)- كل الحيوانات في الأرض (من البعوضة و النملة ، إلى الديناصور) و طوال مدة مكوثها و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن ، لم تتسبب بانقراض جنس أو فصيلة أو نوع حيواني آخر ، حتى المتوحشة المفترسة منها ، لم تفعل ذلك .. إلا هذا الحيوان الناطق فقد

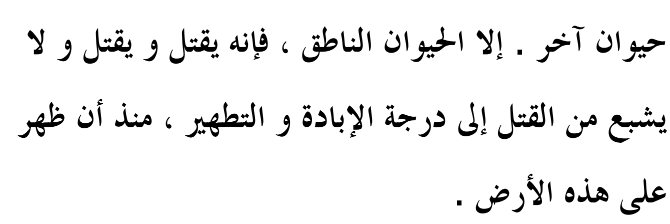
تسبب بانقراض أنواع و أجناس عدة من حيوانات و حشرات بسبب أفعاله المذكورة سابقاً و بسبب صيده الجائر المنطلِق من غاية نفعية أنانية أساسها الطمع و الجشع لأجل حفنة من المال لقاء بيع قطع العاج أو الفراء أو مستحضرات التجميل أو ما إلى ذلك .

٥)- كل الحيوانات في الأرض (من البعوضة و النملة ، إلى الديناصور) و طوال مدة مكوثها و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن ، لم تمارس عملية القتل إلا للغذاء و القوت ، فالقتل عندها هو حصراً عملية افتراس و ليس لمجرد القتل . و شريعة الغاب الموجودة لديها هي من الرقي بحيث تمنعها من التطور إلى أكثر من عملية افتراس فردية للبقاء على قيد الحياة و تنتهي فوراً بمجرد الشبع الآني اللحظي ، فترى السبع بعد أن يشبع ، يتعايش مع بقية طرائده دونما قتال أو أذى حتى معاودة فترة الجوع التي تمتد من أسبوع إلى أشهر و لا يمارس أثناءها القتل لأجل القتل . إلا هذا الحيوان المستجد الدخيل على كوكب الأرض ، و الذي تعدت عملية القتل عنده ، القوت و الغذاء إلى القتل للّهو و الجشع و الطمع و السلب والنهب و الخلاف بالرأي و المعتقد و وصل الأمر إلى حد الإبادة العرقية و الدينية و السياسية . الحيوانات جميعاً لا تقتل بعضها لأجل الخلاف بالشكل أو طريقة التصرف أو الأسلوب أو ما شابه .. أي بمعنى أنها لا تقتل لأجل الاختلاف ، إلا هذا الحيوان الناطق ، فإنه يقتل ويبيد و يدمر لمجرد الاختلاف . لم أسمع يوماً أن السبع قتل القرد لأن القرد يفضّل بناء البيوت على الأشجار و ليس في المغاور ، أو أن صقر قتل أرنب لأن الأرنب يؤمن و يعتقد بالجحور أكثر من عقيدته ببناء الأعشاش العالية ، أو أن النمر الإفريقي يتقاتل مع النمر الأسيوي لأن هذا إفريقي و ذاك أسيوي . إلا هذا الحيوان الناطق فإنه يقتل نظيره في الجنس لمجرد الخلاف بالرأي و يصل الأمر إلى إبادة جماعات بأكملها . كل الحيوانات مصممة جسدياً و بيولوجياً للقتل و الافتراس (مخالب – أنياب – سموم قاتلة – عضلات عاصرة – ضربات قوية قاصمة) و مع ذلك لا تمارس القتل إلا للأكل أو الدفاع عن النفس . بينما الحيوان الناطق هو بدنياً و فيزيولوجياً غير مصمم للقتل أبداً (لا أنياب – لا مخالب – لا عضلات قوية – لا سموم قاتلة – لا قوة



بدنية – لا قدرة على تحمل الطبيعة مجرداً) و مع ذلك فهو منذ وجوده و إلى الآن يمارس القتل و الإبادة و التطهير و بطرق وحشية فظيعة لم تُعرف من قبل في تاريخ الأرض . طرق تدمر الحيوان و الطبيعة و ما يمت إليهما من مظاهر .

٦)- كل الحيوانات في الأرض (من البعوضة و النملة ، إلى الديناصور) و طوال مدة مكوثها و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن تمنح فريستها من الجنس الآخر حق الحياة و تحترم ناموس البقاء و أخلاقياته لفرائسها ، فترى السبع يقتل فريسته و لكنه يبقي على صغاره و يبقي على مسكنه ولا يدمره و لا يمارس التطهير ، و لم يحدث في التاريخ أن أفنى حيوان جنس





حيوان آخر . إلا الحيوان الناطق ، فإنه يقتل و يقتل و لا يشبع من القتل إلى درجة الإبادة و التطهير ، منذ أن ظهر على هذه الأرض .

٧)- كل الحيوانات في الأرض و طوال مدة مكوثها و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن ، قد طورت نفسها إيجاباً للأفضل سواء لناحية المسكن أو المأكل أو المشغل ، و تكيفت إيجاباً مع ذلك ، جسدياً أو عقلياً عبر ملايين السنين ، ولم ترجع القهقرى أو تنكس إلى الخلف ، إلا هذا الحيوان ، فإنه لم يستطع أن يطور نفسه إلى الآن لخير بني جنسه و فائدتهم ، و كل تقنياته التي طورها أو بالأحرى اكتشفها بالطبيعة ، سخّرها لضرره و ضرر بني جنسه و ضرر الطبيعة و الأرض التي يعيش عليها . و عاد بها القهقرى إلى الوراء ، حتى لربما قد تكون يوماً سبباً في دماره و هلاكه .

٨)- كل الحيوانات في الأرض و طوال مدة مكوثها و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن ، و على اختلاف أنواعها و مشاربها ، تستخدم كامل عقلها الذي وهبه الخالق لها ، مهما صغر و مهما كانت محدوديته و كميته الممنوحة لها ، تستخدمه كاملاً دونما نقصان و تسخره لخدمتها و حياتها من خلقها و حتى مماتها و لا تدخر منه جهداً أو كماً ، إلا هذا الحيوان الذي وُهِب العقل الكامل (منطقياً) و الذي سمى نفسه زوراً و بهتاناً بالعاقل ، فهو ليس له من

عقله نصيب (إلا من رحم ربي) و يتدرج استخدامه لعقله ، من الاستخدام الكامل الذي يقع على فئة قليلة في العالم ، ثم الاستخدام الغالب الذي يقع على دائرة أكبر ، فالاستخدام الأدنى ضمن نطاق أكبر .. مروراً بالتعطل الجزئي لدوائر أكبر ، وصولاً إلى التعطيل الكلي الذي – للأسف – يشمل الغالبية من هذا الجنس .

إذن .. العلاقة عند الحيوان الناطق ، بين الاستخدام الكمي للعقل و بين العدد الكمي ، هي علاقة عكسية .

لم أسمع بيوم من الأيام عن بعوضة استغنت عن عقلها أو قررت توفير قسم منه .. حتى الأشنية أو قنديل البحر الذي يعتبر أبسط الكائنات ، تراه يتصرف دوماً بالطريقة الأفضل و الأمثل .



مستحيل أن ترى حيواناً ما ، كائناً ما كان ، قد جمّد عقله أو حجّره أو ألغاه . و لا يحصل هذا الأمر إلا مع هذا الحيوان الناطق و الذي يسمي نفسه عاقل . و الذي يصل به الأمر إلى درجة إلغاء عقله و فكره تماماً .

٩)- كل الحيوانات في الأرض و طوال مدة مكوثها و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن ، تتزاوج بعضها من بعض ، حتى و لو كانت من فصيلة أخرى من ضمن الجنس الواحد ، كالخيول مع الحمير و الكلاب مع الذئاب ... الخ . وتشكّل سلالات جديدة . إلا هذا الحيوان ، فإنه يرفض و يأبى التزاوج مع بني جنسه هو و فصيلته هو ، و ليس فصيلة أو جنس آخر . فقط لمجرد الخلاف بالمذهب أو الدين أو العرق أو الطائفة أو الانتماء و يعتبرهم ليسوا من بني جنسه . الحيوانات تطبق الآية القرآنية (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات:١٣) إلا الحيوان الناطق ، فإنه يخالفها مع أنها أساساً جاءت لأجله و كان هو المخاطب فيها .

١٠)- كل الحيوانات في الأرض و طوال مدة مكوثها و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن ، تتعايش بعضها مع بعض بفصائلها و أجناسها و أضرابها كافة ، المفترسة منها و

الفرائس و تعيش جميعا في حيز و مجتمع واحد مفتوح كالغابات الإفريقية أو غيرها ، منذ الملايين من السنين. و لم يحدث يوماً أن شنت فصيلة ما الحرب على فصيلة أخرى . أو هجرتها من مكانها لاختلافها بالشكل و الجنس و النوع أو الفصيلة .. منذ مئات الملايين من السنين و السبع يعيش مع الثور و الذئب مع الشاة و الثعلب مع الدجاج و النسر مع بقية الطيور .. منذ مئات الملايين من السنين و كل يفترس لأجل البقاء والمعيشة ، لكن يحترم حق الآخر بالوجود و الحياة و لا يتعدى حاجته من القوت ويتجاوز حده في القتل ، مهما كانت الأسباب ، الكواسر منها و الجوارح و العواشب ، فهنالك نوع من التفاهم بين هذه الحيوانات . إلا هذا الحيوان فإنه لم يستطع بالرغم من كل تطوره الحالي و التقنية التي توصل إليها أو استحصلها ، أن يتعايش مع نفسه و يتصالح مع بني جنسه و قومه و يتفاهم معهم . بل عزل نفسه ضمن كيانات و غيتوهات فكرية و عقلية و مكانية و مذهبية و طائفية و سياسية و رفض التعامل مع الآخر بأي شكل و حجب نفسه عنه ، و حاربه و قتله و أباده و هجره من جواره لمجرد الخلاف معه بالرأي .



منذ ظهوره على الأرض و تاريخه كله قائم على الحروب و الإبادة و سفك الدماء و نبذ الآخر ، ما جاء مصداقاً للآية الكريمة (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ...) (البقرة:٣٠) . علماً أنه هو الحيوان الوحيد الغير مضطر لقتل أخيه الحيوان الذي من جنسه ، كونه لا يأكل لحمه . هذا الحيوان تفاهم مع بقية الحيوانات و تفاهمت هي معه ، إلا أنه حتى الآن لم يستطع التفاهم مع بني جنسه ، و ربما لم يسطع ذلك .

١١)- كل الحيوانات في الأرض و طوال مدة مكوثها و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن ، تستطيع التكيف مع الطبيعة و ظواهرها مجردة من أية أدوات أو مستلزمات أخرى خارجية . إلا هذا الحيوان فإنه لا يستطيع تحمل عوامل الطبيعة و ظواهرها و مظاهرها إذا ما تُرِكَ وحده عارياً و من دون مستلزمات و أدوات تعينه و تبقيه على قيد الحياة ، كالثياب التي تقيه البرد ، و السلاح الذي يدافع به عن نفسه ضد الضواري و المسكن و غيره . في أي وقت شئت و أي مكان شئت وأي زمان و طقس شئت ، خذ أي حيوان شئت و اتركه في الطبيعة كما هو ،

فإنه قادر على العيش و توفير مستلزمات البقاء و التعامل مع الطبيعة و استخدام عقله كاملاً لأجل ذلك و تحمّل الجوع و العطش و التخفي و مداراة الأعداء و الدفاع عنه نفسه ضد أي خطر . إلا هذا الحيوان الذي لا يستطع البقاء لأكثر من ثلاثة أيام متحملاً البرد و الجوع و العطش و سوف يكون محكوم عليه بالهلاك المحتم . فهو كائن ضعيف غير قادر على الدفاع عن نفسه و لا مواجهة عوامل الطبيعة و مظاهرها . اترك هذا الحيوان الناطق في غابة باردة ، عارياً مجرَّداً من أي أدوات أخرى ، تراه يموت فوراً من البرد و لا يقدر على مواجهة أي حيوان مفترس أو الهروب منه أو مناورته و المراوغة منه ، فهو ضعيف البدن بطيء الحركة ليس له أنياب و لا مخالب ، مثله كمثل الشاة العاجزة . و هو مصداق الآية القرآنية (... وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً) (النساء:٢٨) .

كل الحيوانات بدينا و جسمانياً قوية إلا الحيوان الناطق فهو أضعفها خَلقاً و خُلقاً ، الحشرات نسبة إلى حجمها ، أقوى من الحيوان الناطق نسبة إلى حجمه ، كالنمل و النحل و العنكبوت .

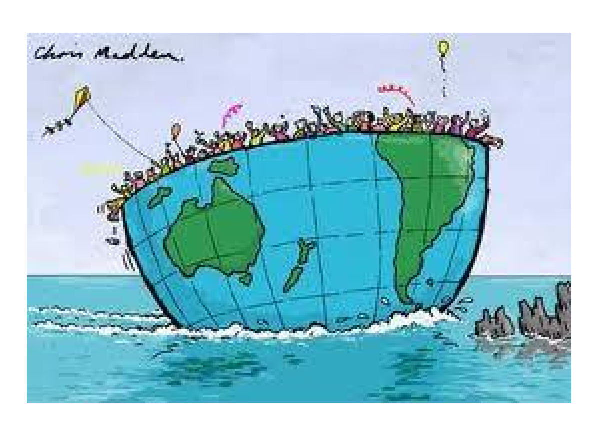
١٢)- كل حيوانات الأرض تأخذ عند ولادهّا و خلقها فترة صغيرة جداً للتعلم و اكتساب الخبرة و القوة تبدأ من دقائق قليلة أو بضع سويعات و تكون في أقصاها شهر أو شهرين كحد أقصى و بعد ذلك تنطلق لوحدها في عالم الطبيعة و الحياة و تكتسب من والديها فقط ما ينفعها في الحياة و الطبيعة .. فقط ما تحتاجه في الطبيعة . إلا هذا الحيوان فإنه لا يقوى على مجرد المشي إلا بعد سنة و لا يقوى على مجرد النطق الكامل إلا بعد الخمس سنوات و لا على التفكر الكامل و الوعي و الإدراك و التعلم إلا بعد عشرين عاماً قد تمتد إلى الأربعين عاماً ، و ليته يتعلم و يدرك . و إذا تعلم و أدرك ، يتعلم كره الآخر من بني جنسه و الحرب و الصراع معه ، يتعلم الفساد و الشر بأنواعه كافة و القبح بصوره كلها .. لا يتعلم إلا ما يضره . كل الحيوانات منذ مئات الملايين من السنين تسير وفق القانون العقلي الرباني الذي منحه الخالق لكل منها بقدر معين و وجه معلوم و لم تَحِدْ عنه و تشذ ، بل تطبقه بحذافيره إلى الآن بالرغم من ضعف عقلها لجهة الكم أو النوع ، إلا هذا الحيوان العاقل الناطق فإنه شذ من أول



ظهوره و خلقه و فيه العقل الكامل ، قيل له هذه الجنة أمامك تصرف بها كما تشاء إلا هذه الشجرة ابتعد عنها .. كل هذه المساحة الشاسعة أمامك هي لك وأنت حر ، إلا هذا الحيز الصغير جداً ، دعه لنا ، لكنه ترك كل الأشجار و ذهب مباشرة إلى هذه الشجرة و طاااااااااخ .. دخل بها .

١٣)- كل الحيوانات ممكن استعمال روثها في الأرض كسماد عضوي ، إلا هذا الحيوان لا يصلح روثه للسماد .

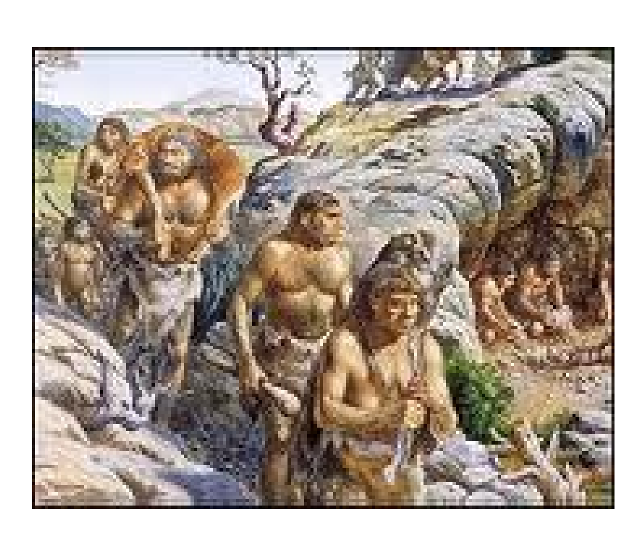
١٤)- كل الحيوانات في الأرض و طوال مدة مكوثها و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن ، حافظت و تحافظ على التوازن العددي لجهة التكاثر ولم يُسمع عن حيوان أنه وصل إلى وضع الانفجار العددي ، علماً أنها مؤهلة لهكذا ظاهرة كونها تلد بالمجموعات كالقطط و الكلاب و الأرانب و السباع و الأسماك التي تلد بالآلاف لا بل بالملايين . لكنها قادرة على ضبط موضوع التكاثر لديها إذا ارتأت أنه لا داع لذلك أو أنه من الممكن أن يؤدي إلى ضرر يمسها و أذى يطالها . إلا هذا الحيوان فإنه و بالرغم من امتلاكه للعقل فإنه يتكاثر الآن بطريقة مرعبة في أكبر انفجار سكاني يهدد موارد الأرض و طبيعتها و يبشر بحروب لأجلها و أمراض متطورة مستعصية . دون أن يضع حد لذلك أو يرعوي و يدرك الخطر المحدق به .



١٥)- كل الحيوانات في الأرض و طوال مدة مكوثها و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن تتصرف بطريقة عقلانية تراعي فيها أمرين اثنين لا ثالث لهما .. مصلحتها الفردية لأجل الغذاء و المسكن .. و عدم إيذاء الآخر من حيوان و طبيعة و التعدي عليهما ، دونما سبب قاهر ، متقيدة بالقانون الإلهي المكلفة به . إلا هذا الحيوان فإنه لم يتصرف منذ وجوده على الأرض إلا ضد مصالحه و مصالح بني جنسه من عدوان و قهر و ظلم و اغتصاب و دمار .. الدمار و التخريب لا يوجد في قاموس الحيوانات . لا يوجد حيوان على وجه الأرض يدمر و يخرب ، هو

فقط يأكل ، أسراب الجراد التي تهاجم الحقول ، يتراءى لنا أنها تخرب ... أبداً .. هذا ليس تخريب ، إنها تأكل فقط و تنتهي مهمتها عند الحقل الهدف فقط و لا تتعداه لغير ذلك مطلقاً مهما كانت الأسباب . إلا هذا الحيوان فهو الوحيد الذي يوجد في قاموسه التدمير و التخريب و الأذى المتعمد لأجل الأذى و هو الطغيان ، و هو مصداق الآية القرآنية (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى) (العلق:٦) . اقتصر الطغيان على الإنسان فقط و لم يقل (كلا إن الدواب لتطغى) فلماذا ؟؟؟ الأمر واضح . الحيوان لا يطغى و الطغيان هو من اختصاص الحيوان الناطق فقط .

١٦)- كل الحيوانات منذ بدء الخليقة و إلى الآن مستغنية عن الحيوان الناطق و لم تكن يوماً من الأيام بحاجة له أو مستفيدة منه أو فقيرة إليه ، بدءاً من أصغر بعوضة و بيرقة إلى أكبر جاموس و جمل و حوت ، حتى على مستوى العلم و التدرب . بل على العكس من ذلك .. الحيوان الناطق هو من كان منذ اللحظة الأولى لظهوره و وجوده ، محتاجاً إلى هذه الحيوانات جميعها .. إلى فراءها و لحومها و قواها الجسمية و البدنية و حراستها له و لممتلكاته .. كان و ما يزال إلى الآن في فورته التقنية و التكنولوجية ، محتاجاً إلى هذه الحيوانات و لا يستطيع الاستغناء عنها ، بدءاً من أصغر حشرة إلى أكبر جاموس و جمل و حوت ، ليس ذلك فقط بل هو من تعلم منها كل شيء (و هذا رأيي الشخصي و أنا مسؤول عن كلامي) ، تعلم منها الصيد .. تعلم منها بناء المسكن .. تعلم منها الملبس .. تعلم منها التعامل مع الطبيعة .. تعلم منها الدفاع عن النفس ، هذا غير استخدامه لها في الزراعة و الحراثة و الحراسة و المأكل و الملبس من صوف و حرير و غيره الكثير الكثير ، مصداق للآية القرآنية (فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ...) (المائدة:٣١) . ليس ذلك فقط بل حتى أن التكنولوجيا و التقنية الحديثة التي يتباهى بها الآن ، اعتمد بها على الحيوانات من تجارب و بحث ، و لولاها لما كان الذي نراه الآن ، قد كان .. حتى الفضاء الخارجي أرسلها قبله أولاً لخوفه و جبنه ، استعان بالحيوان ليستكشف له الفضاء قبله هو ، فكان للحيوان شرف



الأولوية في الصعود إلى الفضاء الخارجي قبل الإنسان و هذه علامة فارقة جداً و لها إشارة و معنى كبير . حتى في حروبه و صراعه مع بني جنسه ، استعان بالحيوان من خيل و فيلة و حمام زاجل و كلاب و غيرها . و النتيجة التي نخلص إليها هي : تسعون بالمائة من حضارة الحيوان الناطق الماضية و الحاضرة ، تعتمد على الحيوان الغير ناطق . و مع كل هذا لا يلقى الحيوان الغير ناطق من الحيوان الناطق إلا كل أذى و مهانة و سوء . و لم يقدم له شيء على الإطلاق و لا للطبيعة التي يخربها و يدمرها يوماً بعد يوم .

١٧) ـــ تعالوا نتخيل الأرض بلا حيوانات و ليس فيها إلا هذا الحيوان الناطق ، فما يكون مصيره و مآله ؟؟ هل يستطيع العيش لوحده ؟؟ و هل تعبر عن ذلك الآية القرآنية التي تناولت الإنسان أساساً .. (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ) (النحل:٦١) . فهل معنى ذلك أن الله يمكن أن يعاقب الإنسان على ظلمه و طغيانه و بغيه بالأرض ، بإهلاك كل الحيوانات ، فلا يبقى غير الإنسان نفسه وحيداً في الأرض .. أقرع من غير جنس آخر ، ما يتسبب بفنائه و هلاكه ، كونه محتاجاً دائماً و أبداً للحيوانات في الأرض و لا يستطيع العيش من دونها ؟؟ .



منذ فترة تلقيت دعوة لأحد الأمكنة السياحية ، و هناك صادف وجود ما يسمى (الحنطور) يجره بغل مزيَّن و بعد هنيهة توقفت أمامه سيارة فارهة حديثة و ترجل منها شخص عرفته يعمل في إحدى الكوادر التعليمية و معه زوجته و أولاده فأشار أحد أولاده إلى الحنطور و سأل عنه فأجابه والده بسخرية و مرح و تهكم مشيراً إلى البغل بصوت مسموع : هذا يا بني اسمه البغل و هو أغبى حيوان و معدوم العقل والتفكير ولهذا سموه البغل ، أحد والديه حصان و الآخر جحش . ثم تقدم الرجل و عائلته إلى المبنى ضاحكين . و لكن ما لفت انتباهي هو أن البغل أخذ ينظر بطريقة غريبة

جداً إلى ذلك الرجل و كأنه فهم ما يقول (لا أدري .. سبحان الله هكذا انتابني الشعور) مثبتاً نظره عليه بطريقة ليست طريقة حيوان ، و ظل يتابعه بنظره و رأسه حتى دخل المبنى ، ثم أرجع رأسه مرة أخرى إلى الأرض أمامه مباشرة مثبتاً نظره عليها بصمت و هدوء . مشهد لن أنساه و كأنه (الله أعلم) يقول له : والله ماني شايف بغل غيرك ، و إذا في بغل بهذه الدنيا ، فهو أنت و الجحش الذي أعطاك الشهادة .

كلمة ما قبل أخيرة : بنظري أن الإنسان هو كائن غير أرضي طبقاً لطريقة الشكل و العقل و تركيب الأثداء بعيداً عن الجهاز التناسلي خلافاً لكل الثدييات ، والانتصاب وأمور أخرى كثيرة . و هذا بنظري يتوافق مع نظرية أو مفهوم (الطرد من الجنة) إن صح التعبير . و نظرية القول بخلق حيوانات على شكل الإنسان لتقوم بخدمة معينة (بغض النظر عن صحة و خلفية المنشأ والمصدر) ربما لها شيء من الصحة أو ما شابه ذلك .

كلمة أخيرة : لا أخاف من الإنسان على شاكلة الحيوان ، بل الحيوان الذي على شاكلة الإنسان .

فلسفة البكاء[١]



البكاء كتعريف مبدئي ، هو تعبير عن حالة ألم أو حزن يمر بهما الإنسان (كونه تقريباً الكائن الحي الوحيد ، الذي تلازمه صفة البكاء بشكلها الواضح) نتيجة لحادث ما أو ظرف معين . و بنظري فإن البكاء لجهة الفلسفة (المقصود هنا البكاء الحقيقي غير المصطنع) إذا أمكن توصيفه ، هو تعبير عن حالة ضعف الكائن البشري أكثر منه ناحية عاطفية حسية .

البكاء يتم التعبير عنه من قبل الكثير من البشر تحت يافطة العاطفة أو الألم .. أما أنا ، فبرأيي أن الشخص الذي تنحدر دمعته على وجنته .. دمعة تكون صادقة ، نابعة من حالة ألم أو حزن أو

[١] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠١٠/٣/٢٧ .

عطف أو تأثر بشيء ما .. هو بنظري ، في مرحلة معينة من مراحل بكاءه و دموعه ، يمر بفترة ضعف ، فترة يكون فيها في قمة الضعف .. و ربما أضعف كائن على وجه الأرض .. لحظة يكون فيها هذا الشخص الباكي ، في ذروة صدق العواطف و المشاعر و الأحاسيس .. هذه الفترة أو اللحظة (بالمعنى المجازي) تختلف من شخص لآخر ، حسب النفسية و التربية و الصلابة و الأخلاق و ما إلى ذلك ، هي قد تمتد عند شخص طوال فترة بكاؤه ، و عند شخص آخر ، ربما تطول و تمتد إلى ما بعد فترة بكاؤه حيث يكون المرء قد أخذ عبرة و موعظة ، بسبب الظرف الذي هيأ له كي يبكي . شخص آخر قد يمر في هذه الحالة ، و لكن لفترة ثوان .. و آخر لجزء من الثوان . المهم ، هنالك حالة من الصدق و الضعف الكبيرين لا بد من أن يمر بهما الإنسان خلال فترة بكاؤه العفوي الصادق و لو بجزء من الثانية .



هنا .. في هذه اللحظة ، يتحول الإنسان إلى طفل صغير بريء خالٍ من العقد و العواطف المشحونة و الأوهام و النفاق و الخبث . و أنا بنظري ، أرجّح أنها هي اللحظة التي يصير فيها المرء .. إنسان صالح مثالي .. إنسان عائد إلى فطرته البشرية الأولى التي فُطر عليها .. فطرته يوم ولدته أمه . و أعتقد أنه من هذا المنطلق ، قيل أن " البكاء راحة للإنسان " . و بعض الفلاسفة أو الحكماء أيضاً ، قالوا قديماً بأن الإنسان لا بد له من البكاء ما بين الفينة و الفينة . فالبكاء حالة انفعالية تمثل رد فعل انعكاسي عصبي لحالة معينة يتفاعل معها الإنسان .

حالات البكاء كثيرة و متعددة على مختلف الحالات الظروف و هي شائعة متعددة . و أشهر حالاتها ، تمثلها حالات الألم و الحزن . هنا .. و في مثل هذه الأحوال ، عادة ما ينتهي ظرف البكاء العاطفي و ما ينتج عنه ، فور انتهاء السبب الذي سبب هذه الحالة ، كانتهاء حالة الألم و

الوجع أو انتهاء ظرف و حالة الحزن التي تعرض لهما الإنسان . و هي حالة لا تدعو كثيراً إلى التأمل و الاعتبار.

بالرغم من ذلك كله ، فأنا أعتقد أن فلسفة البكاء ، لا ترتبط كثيرا بحالتي الألم و الحزن ، لأن الحالة هنا لا تتعلق بظرف طارئ أوجد حالة البكاء التي تزول بزوال هذا الظرف ، بل ظرف غامض مبهم أحياناً أو ذكرى معينة سريعة و طارئة .



فلسفة البكاء هي الصيغة الأكثر ارتباطاً بحالة الضعف و الفطرة الأولى المذكورة أعلاه ، التي يمر بها الإنسان أثناء بكاؤه ، و تدعو للتأمل و الاعتبار . هي ترتبط بظرف إنساني شعوري يكون غامضاً أحياناً أو لا يمتلك مبرراته المادية الملموسة أو العيانية .

حالات بكاء عدة ، حصلت أمامي و رأيتها بالنسبة لي ، تمثل نوع من الفلسفة ، منها على سبيل المثال لا الحصر :

ـــ الحادثة الأولى : توفي والد أحد أصدقائي منذ مدة . و في المقبرة .. تجمع أقرباء الميت من رجال و نساء كل في مكانه المخصص ، للقيام بمراسم الدفن .. و بعد الصلاة على الميت و دفنه و الترحم عليه ، بدأ الناس بمصافحة أهل الميت معزين ، ليغادروا المكان بعد ذلك . فجأة صدرت صرخة كبيرة تلاها بكاء و عويل و صراخ بشكل استرعى انتباه الحضور . فإذا هي امرأة عجوز معمرة ، قد انكبت على قبر بعيد ، قديم جداً ، بمستوى الأرض ، حتى لا يبدو منه إلا آثار مطموسة بالكاد تكون واضحة . تساءل بعض الحاضرين عن هذه العجوز و صدرت بعض الهمهمات . كان العجوز تبكي و تصرخ بشكل عالٍ مؤثر و تقول " يا أخي .. يا أخي ... سألت

صديقي (ابن المتوفى) عن أمر هذه المرأة العجوز الطاعنة في السن ، فلم يعرف و سأل بدوره عمه (أخو المتوفى) الذي كان يقف بجانبه ، العم عرف العجوز و لكن لم يعرف القبر القديم الذي كانت تبكي فوقه و لا سبب بكاؤها ، و بدوره سأل أحد الكبار في السن عن هذه المرأة فقال الرجل : هذه أم فلان .. و عمرها / ٩٨ / عام و هي تبكي أخوها الصغير الذي مات منذ عهد الفرنسيين و كان عمره / ٧ / سنوات و كان عمرها هي عشر سنوات . يبدو أنها تذكرت أخوها بعد ثمانين عاماً .

نظرت إلى المرأة العجوز .. كان جاثية بركبتيها و يديها على القبر و تضرب بعنف و تصرخ بشدة ، باكية بشكل مؤثر جداً و عفوي ، و كأنه أخوها قد توفي الآن .

لم أتمالك نفسي من الحزن لهذه العجوز .. المنظر أثر بي كثيراً . اقتربت منها أرقبها بصمت . كانت لا تزال منكبة على القبر القديم المندثر و لا تعير أحد من حولها ، أي انتباه . لم تكن ترى الآن ، في هذه اللحظة ، إلا أخيها فقط .

منظر عجيب ، و حالة أعجب .. تساءلت في نفسي .. يا ترى ، ما هي الذكرى التي تراءت لهذه العجوز فجأة بعد / ٨٥ / عام حتى انتابتها هذه الحالة من البكاء الشديد ؟ هل هي ذكرى ما ، مع أخيها الصغير ؟ هل هي تذكرت مثلاً ، كيف كانت تطعمه أو تلاعبه أو تغطيه ليلاً أو تحنو عليه ، أو .. أو .. ؟؟؟؟؟ هنالك شيء ما ، سبب خفي مجهول ، ذكرى أو حالة ما .. لا أدري بالضبط .. و هذه الحالة قد حركت فجأة ، مشاعر هذه العجوز المعمرة . لكن ما هي هذه الحالة ؟؟!! و ما هي أسبابها ؟؟!! و كيف برزت فجأة بعد كل هذه السنين ؟؟!! .. الله العليم ....

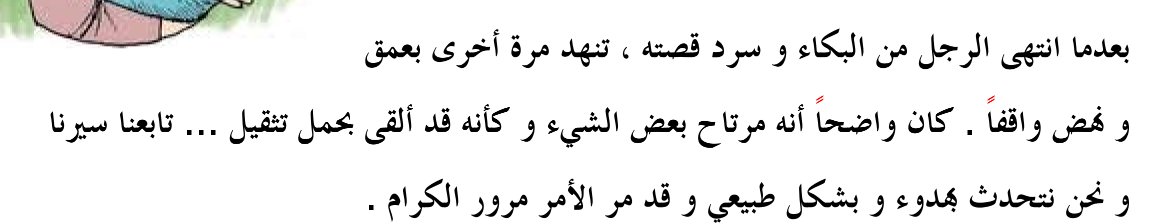
ـــ الحادثة الثانية : دعاني أحد الأشخاص مرة ، إلى زيارة في بلدته حيث يقيم . قضينا الوقت في حديث و مسامرة و ضحك و تسلية ، و بعد الغداء ، اصطحبني بالسيارة ، في جولة خارج البلدة للاطلاع على الطبيعة هناك . أركن السيارة في مكان جانبي ، ثم ترجلنا منها . و صعدنا طريق جبلي ترابي وعر قليلاً . و كان الصديق يشرح لي عن المنطقة و جمال مناظرها . بالفعل كان المنظر رائعاً و يثير البهجة و الراحة .

وصلنا إلى مرتفع صخري يطل على مناظر و وديان جميلة جداً . كان الرجل في غاية السعادة و الانشراح .. و عندما اقتربنا من مكان معين ، جلس صديقي فجأة على إحدى الصخور . أخذ ينظر من حوله و قد تجهم وجهه قليلاً .. أطلق زفيراً حاداً و صمت لفترة من الوقت ، و فجأة وضع يديه على وجه و بدأ بالبكاء بحرقة .

أسرعت إليه بفزع و أنا أسأله : ما بك ؟؟ ... ما الأمر ؟؟ هل تشعر بتوعك ؟؟ هل أنت على ما يرام ؟؟ هل تشعر بألم في صدرك ؟؟ هل .. هل .. . أشار لي الرجل بيده علامة (اصبر قليلاً) و هو لا يزال يبكي . بعد قليل هدأ روعه و طلب مني سيكارة ، علماً أنه لا يدخن بتاتاً قلت له : أنت لست مدخن ، و لا داعي للسيجارة ، دعك منها .. إنها مضرة لك . أصر الرجل على السيجارة ، فأعطيته واحدة و أشعلتها له . ثم جلست القرفصاء أمامه .. وضعت يدي على ركبتيه و قلت له : إن لم أكن مخطئاً.. أنا أعتقد أن البقعة التي نحن فيها الآن ، هي السبب في بكاؤك ، أليس كذلك ؟؟ .

نفث الرجل دخان السيجارة بطريقة مضحكة أجبرتني على الضحك ، فضحكت محاولاً جعله يضحك كي أخفف عنه . و لكنه نظر إلي و قال : نعم .. كلامك صحيح . صمت قليلاً و قد هدأ روعه و استعاد هدوءه .. أطلق زفيراً قوياً مرة أخرى و قال لي : منذ حوالي الأربعين سنة يا أستاذ .. و هنا في هذا المكان الذي نحن فيه الآن و تحديداً حيث نجلس ، كان صاحبك (هو يقصد نفسه) عائداً مع أمه من جمع الحطب ، و كانت أمي التي توفيت منذ خمس سنين ، تحمل رزمة كبيرة ثقيلة من الحطب على كاهلها .. أنا كنت طفلاً صغيراً عمري بحدود الخمس سنوات . طفلاً لا يحمل هم الدنيا و لا متاعبها ، همه كله ، هو كيف ينهي قطعة الحلوى التي كانت بيده .. كنت أمشي خلف أمي و هي تنوء تحت وطأة الحطب الثقيل . و فجأة .. هنا بالضبط حيث أنا و أنت نجلس الآن .. تعثرت أمي و سقطت بعنف على وجهها . كان من الواضح أنها أكلت ضربة قوية لأن الحطب كان ثقيلاً . أما أنا فقد كنت مغشياً من الضحك عليها .. نهضت أمي و حملت الحطب مرة أخرى و تابعت سيرها دونما كلام و مشيت خلفها و أنا لا أزال أضحك .

أثناء المشي سمعت همهمات أو صوت خافت يصدر من أمي كأنه همس ، فتقدمت أمامها و نظرت إلى وجهها ، كان منظراً لن أنساه بحياتي ، أمي تبكي بصمت و فمها و أنفها ممتلآن بالدماء . هالني المنظر و أخافني ، كطفل صغير لا يعرف من الحياة شيئاً ، فتوقفت عن الضحك قليلاً و سألتها : أمي ما بك ؟؟ هل تتألمين ؟؟ . و عدت بعدها أضحك . نظرت إلي أمي بحنان و قالت لي: جعل الله أيامك كلها ضحك يا ولدي . يومها ، ضحكت أنا الطفل الصغير ، كثيراً ، و لم أدرِ أنني في يوم من الأيام و في نفس المكان ، سأرد هذا الضحك بكاء شديداً على أمي الراحلة .



بعدما انتهى الرجل من البكاء و سرد قصته ، تنهد مرة أخرى بعمق و نهض واقفاً . كان واضحاً أنه مرتاح بعض الشيء و كأنه قد ألقى بحمل ثقيل ... تابعنا سيرنا و نحن نتحدث بهدوء و بشكل طبيعي و قد مر الأمر مرور الكرام .

ــ الحادثة الثالثة : في الفترة الأخير ، مررت أنا ، كاتب المقال ، بظروف صعبة و تعرضت لمواقف معينة فوجئت بها و لم أكن أتوقع أن من قام بها ، سيقوم بها ، مواقف تستدعي البكاء ، و لكنني للأسف لم أستطع البكاء .. كانت أمور تستدعي البكاء حقاً و لكن لم أستطع البكاء ، كنت أشعر بالضيق الشديد . أردت البكاء ، فلم أستطع ، حتى جاءت لحظة معينة في مكان ما و توقيت ما ، بكيت فيها .

عرفت حينذاك أنه أمر مؤلم جداً أن يكون المرء يريد البكاء لسبب ما و لا يستطيع .. حالة صعبة جداً .. أنت تريد أن تبكي و لا تستطيع البكاء .. أنت بحاجة إلى البكاء ، و البكاء يستعصي عليك . و من يومها عرفت أن للبكاء فلسفة ، فلسفة ربما تكون مجهولة .

و لهذا أطلقت شعار يقول : إذا تهيأت لك الظروف للبكاء ، فابكِ .. ابكِ و قل .. الحمد لله .

الشخصيات الحدية[1]



كنت أعيد ترتيب مكتبتي في المنزل تمهيداً لتصفية بعض الكتب القديمة و تنسيقها ، فعثرت في إحدى زواياها السفلية على مجلة قديمة اسمها (النبأ) .. تذكرت أنني قد قرأت هذه المجلة منذ زمن بعيد ، فلم أعد أتذكر محتوياتها . كان التعب قد نال مني بعض الشيء من جراء حمل الكتب و إعادة ترتيبها و تنسيقها . فجلست على الأريكة و بدأت أتصفح محتويات هذه المجلة .. حتى وصلت إلى مقال فيها يتحدث عن (الشخصيات الحدية) في صفحة علم النفس .. قرأت المقال

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠١٠/١/٥ .

كله فأعجبني مضمونه جداً .. كان يحتوي على معلومات هامة و مفيدة عن (الشخصيات الحدية) و تعريفها .

و نظراً لكوني قد وجدت تقاطعاً كبيراً بين تلك الشخصيات و صفاتها المذكورة في المقال ، و بين شخصيات نراها و نصادفها في حياتنا اليومية أو نسمع عنها ، و تقع بيننا و بينها مشاكل كثيرة ، فقد استهواني الأمر ، و قررت أن أتعمق أكثر في موضوع الشخصيات الحدية و بدأت أبحث عنها في المراجع و الكتب و النت ، و أسأل عنها أهل الخبرة و الاختصاص حتى خلصت إلى نتيجة كافية و وافية عن تلك الشخصيات . و ارتأيت أن أضع خلاصة ما قرأته في المجلة المذكورة و غيرها و ما سمعت عنه في الآتي ، كون الموضوع بنظري على درجة من الأهمية و الخطورة و الفائدة بآن معاً .

ما هي الشخصيات الحدية ؟؟

الشخصيات الحدية : هي الشخصيات التي تربك المحيطين بها بالمزيد من المعارك الدعائية و الكلامية و على أمور لا تستحق ذلك في الكثير من الأحيان . و تتسم بميلها الشديد لتحقيق الانتصارات و لو على حساب الآخرين ، لذا فهي هجومية في الغالب و منطقها هو منطق (الهجوم أفضل من الدفاع) و يصفها بعض علماء النفس بالعدوانية . و تنتمي في نظر البعض الآخر منهم إلى نطاق الشخصيات اللامتوازنة حيث تنحو في كثير من الأحيان إلى اللاعقلانية . إذ أن أصحاب هذه الشخصيات يزيدون المتعاملين معهم و المحيطين بهم توتراً و قلقاً و انزعاجاً . و يرى العلماء أن الحدية هي من أخطر الأمور التي تهدد العلاقات الإنسانية و تحولها إلى جحيم . و الخطير فيها أنها إذا لم تعالَج في بادئ الأمر ، فإن أمرها يستفحل و يتفاقم و تبدأ بالاقتران بنوازع الشر و الحقد و الغضب و الكره الشديدين ، و إذا تفجرت فإنها تصطبغ بصبغة العنف و العدوان .



في أحيان عدة ينجر أصحاب هذه الشخصيات إلى ما تحمد عقباه من الأمور . و قد حدد علماء النفس مجموعة من الخصائص التي تميز أصحاب هذه الشخصيات و منها :

١) ـــ عندما يعرض رأيه أو فكرته ، يغلق أمامها احتمال الخطأ أو النقصان . و بالتالي لا يكتفي بطرح فكرته ، بل يطرحها على أنها الواقع الذي لا يقبل النقاش . و إذا أراد استنتاج فكرة من خطاب أو كلام يحادثه به الآخرون ، يتسرع في استنتاجه و يحسم الرأي بفكرة واحدة قاطعة لا تقبل الشك أو النقاش .

٢) ـــ يتسرع في الحط من الآخرين و يتعالى عليهم و على أفكارهم و قدراتهم . و في أوقات الأزمة و المشاكل ، يتسرع في إلقاء اللوم على الآخرين لكي يتره نفسه من كل مسؤولية أو خطأ . و في الغالب لا تجده يشيد بفكرة أو موقف لأحد ما ، مهما كان هذا الموقف أو الفكرة يستحقان الإشادة بعين الإنصاف ، بل تراه يفتش عن العيوب في أفكار الآخرين و مواقفهم زاعماً أنه صريح و لا يجامل أو غير ذلك من المزاعم .



٣) ـــ إذا تحدث يكرر كلمة (أنا) و يشيد كثيراً بمواقفه و يحب التحدث عن آرائه و بطولاته و يستخدم الإيماءات اليدوية . و في الغالب يقدم النصح للآخرين حول الإنجاز أو التخطيط أو الممارسات .

٤) ـــ يصرخ حين يغضب و يتكلم بلغة التهديد و الإنذار و يقاطع كلام الآخرين إذا أراد إبداء رأيه و إذا قاطعه أحد يغضب .

٥) ـــ إذا لم يجد ما يرضيه من الآخرين كالاختلاف معهم بالرأي أو ما شابه ، فإن ردود أفعاله تتسم بالعدوانية أكثر مما تتسم بالعقلانية و في بعض الأحيان يشوبها العنف أو الإساءة المادية أو المعنوية كالتشهير و غيره .

٦) ـــ قليلاً ما يتسم صاحب الشخصية الحدية بالتسامح أو التغافل عن أخطاء الآخرين ، و غالباً ما تكون الاتهامات للغير ، جاهزة لديهم ومعدة سلفاً .

٧) ــ إذا استجاب لآرائه و رغباته الآخرون ، كان به ، و إلا فإنه يلجأ إلى الأساليب غير النبيلة و المتنافية ربما مع أبسط قواعد و أصول الأخلاق .

٨) ــ الأشخاص الطيبون من هذه الزمرة ، إذا أساؤوا لأحد فإنهم ربما يندمون بعد أن تهدأ ثائرتهم و لكنهم يلجأون للاعتذار بطريقة لا يتحملون فيها اللوم أمام غيرهم فيبدأون بإلقاء اللوم على الآخرين أو على الساعة التي كانوا فيها منزعجين و في أحسن الأحوال يحملون طرفاً ثالثاً (يكون مختَلقاً عادة) يحملونه السبب إذا كانوا لا يريدون لسبب ما أن يحملوا الطرف الآخر اللوم مباشرة .

٩) ــ يحبذون التعامل مع من هم تحت سلطتهم أو سيطرتهم بطريقة القائد العسكري الذي لا يقبل كلامه نقاشاً أو اعتراض أو إبداء رأي .

١٠) ــ يرون أنفسهم فوق البشر و أنهم يمتلكون أفكار و عقول لا توجد لدى أقرانهم من الناس و يصل الأمر أحياناً إلى اعتبار أنفسهم في مصاف الآلهة أو بدرجة أدنى قليلاً . و يميلون إلى تمجيد أنفسهم بطرق مختلفة مثل الصور أو التماثيل و ما شابه و لا ينطبق هذا الأمر على رجال السياسة و الفكر الكبار و العظام ، كالأباطرة أو القادة الكبار أو الفلاسفة المشهورين المتعارف عليهم لدى الناس أو المفكرين المبدعين في مجال ما لأن الحالة هنا تأخذ أمر يتعلق بعوامل أخرى ليست نفسية .

١١) ــ آخر أمر يقوم به مريض الشخصية الحدية ، هو الاعتراف بالخطأ . و إذا ما تصادف و أشارت كل الحوادث منطقياً إلى ارتكابه الخطأ و أحس هو بذلك و أن أمره انكشف أو قد ينكشف ، فإنه قد يلجأ إلى ارتكاب خطأ أكبر و أفظع لتغطية خطأه الأول الذي ارتكبه .

١٢) ــ العاطفة عند أصحاب هذه الشخصية تكون غالباً في أدنى مستوياتها و أحياناً تقارب الصفر ، حتى اتجاه أقرب المقربين منهم كالأولاد مثلاً و غيرهم . و عند إحساسهم بفقدان العاطفة تجاه شخص ما يتوجب عليهم عرفاً أن يكون لديهم عاطفة اتجاهه ، فإن المبرر لذلك هو

قمة جاهزة تُلصق بحق هذا الشخص . و قد اختلف علماء النفس حول ما إذا كان فقدان العاطفة هو بسبب مرض الحدية أم العكس هو الصحيح أي أن المرض هو بسبب فقدان العاطفة ، نتيجة لبيئة أو ظرف معين نشأ عليه المريض .



١٣) ــ يبحث صاحب الشخصية الحدية عن أي شخص ليلقي عليه اللوم (في مراحل متقدمة من هذا المرض) أو عن شخصية معينة يضع فيها كل عاهاته النفسية و يلقي عليها اللوم في أي تصرف من تصرفاتها و يعتبر صاحبها عدو لدود له و شخص متآمر يتربص به شراً ، و خطورة الأمر تصل إلى درجة يبدأ فيها مريض الحدية بإلحاق الأذى و الأضرار بهذا الشخص الذي أطلق عليه علم النفس اسم (الضحية) . و مهما حاول الضحية التعامل بكل أساليب الإيجابية ، فإن صاحب الشخصية الحدية لا يسمح له بالخروج من دائرة الذنب و يبقى هو الشخص المذنب بالنسبة له مهما فعل . و قد اعتبر بعض علماء النفس أن مريض الحدية يجد الملاذ و المبرر في الضحية لكي ينفس عن كبت أو تصرف معين لا يلام عليه كون حجر الأساس عنده (أي صاحب الشخصية الحدية) ألا يلام بأي شكل من الأشكال .

١٤) ــ في بعض الحالات و نتيجة لسبب معين يختار مريض الحدية شخصاً آخر و يغمره بعطفه و حنانه و يعتبره المفضل لديه . و فسر بعض العلماء هذه الحالة بكونه يريد أن يكون هذا الشخص في مواجهة الضحية و هو هنا بمثابة واجهة فقط لا غير ، كون العاطفة عند هذا الشخص مشكوك بأمرها .



إن الشخصية الحدية توجد في شرائح مختلفة من المجتمع و بالأخص أصحاب القرار كربّ الأسرة أو العمل أو المدير أو القائد و ما إلى ذلك . و في هذه الحالة تتحول الشخصية الحدية إلى جحيم لا يطاق يؤثر بشكل سلبي و خطر في بعض الأحيان على الأشخاص المحيطين بها . و هي تبدأ مع الشخص من حالة واحدة من الحالات الآنفة الذكر لتتطور فيما بعد و تشتمل عليها كلها .

الأنا الخبيثة و الـ (نحن) الأخبث[1]



الأنا .. كلمة ذات مدلول و معنى لغوي لحب الذات و النفس البشرية ، و هي في طياتها أيضاً ، تُعَد التعريف الأصلي للأنانية أو الوجه الآخر الحقيقي لها ، فالأنانية جاءت من الأنا و هي مشتقة منها .

الأنا هي حب الذات و حب التملك .. هي حب التفرد و حب التمييز و التميّز عن الآخرين .. حب التفوق عليهم .. حب النفس و الافتتان بها . و هي ملازمة لصفة الغرور و الكِبَر و العجَبْ (أي عجب المرء بنفسه) .

---

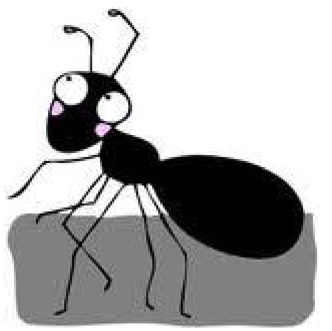
[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠١٠/١١/٩ .

الأنا موجودة عند كل الكائنات الحية ، فكل الكائنات لديها غريزة الأنا . و ذلك لحماية نفسها ، بدءاً بالحيوانات ، مروراً بالحشرات و انتهاء بالنبات الذي بدوره يمتلك هذه الغريزة أيضاً. ألا ترى إلى الحيوانات كيف تتقارع و تتصارع على الطعام و القوت و الغذاء . و يسعى كل منها للفوز بأكبر حصة ممكنة على حساب أقرانه . و إذا ما اصطاد فريسة ما ، تراه يلتقمها بفيه و يهرب بها مبتعداً ليخبئها بعيداً عن الأنظار و العيون ، فتراه يطمرها في التراب أو يعلقها على شجرة أو يضعها في مكان آمن . كذا الأمر تراه بالنسبة للنبات فالنباتات و الأشجار الأقوى في أرض ما ، تتقاتل و تتسابق على الماء و المكان و تتصارع جذورها في الأرض لتفني الأضعف منها و تصيبها باليباس و الجفاف أو تترك لها النذر اليسير بعد أخذ كفايتها أولاً .

على إن مفهوم الأنا الاعتبارية (و نحن هنا نتكلم عن الأنا البشرية الإنسية) في حالاتها الطبعية و حدودها المسموح بها عرفياً و ديناً و حتى قانونياً ، هي (أنا) موضوعة لمصلحة الإنسان و لسد احتياجاته المادية و الفيزيولوجية و النفسية و المعنوية . و إشباع شهواته و رغباته ضمن الحدود الإنسانية الأخلاقية المتعارف عليها .. هي في وجهها الإيجابي الفطري هذا ، لها وظيفة إضافية تتمثل بحماية الإنسان من الغير و صيانة نفسه و أمواله و أسرته و عدم إلقاءه بنفسه إلى التهلكة أياً كانت وجوهها و مواضعها ، كإهلاك النفس عمداً و عن سابق إصرار و تقَصّد أو بذلها في غير مواضعها المناسبة . أو الكَرَم و إهدار المال في غير مواضعه ، ما يؤدي إلى الفقر .. الخ . و الأنا بمعناها و مدلولاتها السابقة ، تتعلق عادة بشخص الفرد العاقل الواحد ، و لا تتخطى ذلك كمياً . و إذا تخطت هذا الكم المحصور بالعدد واحد ، فإننا و الحالة هذه ، سوف نطلق عليها - اصطلاحاً - الـــ (نحن) و هي هنا بنظرنا تشمل الجماعة في المجتمع أو العشيرة أو الطائفة أو المذهب أو الحزب السياسي أو كل ما من شأنه أن يوصّف لحالة اجتماعية أو سياسية أو دينية ، على أن الدينية برأينا هي الأقوى ، تليها و تتلازم معها أحياناً الحالة السياسة . و الـــ (نحن) التي نتحدث عنها هنا ، تستبعد الأمر و العامل الاقتصادي المرتبط بحالة خاصة لا تتعلق بحيثيات و سياق مقالنا هذا .

الـــ (نحن) هذه ، هي كمصطلح من حيث التعريف ، شبيهة إلى حد بعيد جداً بتعريف الـــ (أنا) مع فارق بسيط ، و هو أنها تقع على الجماعة أو المجموعة لا على الفرد .

الــ (نحن) موجودة أيضاً كما الــ (الأنا) ، لدى جماعات الحيوانات و الحشرات و النباتات . فأنت ترى إلى القطعان البرية و الماشية و السباع ، كيف تتعايش مع بعضها في جماعات منظمة لها سائس من بني جنسها يقودها و ينظم أمورها بما يضمن حمايتها و مصالح بقاؤها و وجودها ، لا تسمح لغريب عنها بالولوج إلى داخل تنظيمها أو التعايش معها ، و إذا تعرض أحد افرادها أو صغارها لخطر ما ، هب القطيع كله لنجدته . حتى تلك التي لا قائد لها ، ترى أن حس الجماعة و القطيع ، هو المهيمن و المُسيّر لأمورها . كذا الأمر بالنسبة للحشرات ، فلعلك رأيت إلى النمل و النحل كيف يعيش في مجتمع منظم تنظيماً عجائبياً ، بالغ الدقة و محكوم بقوانين شديدة صارمة راقية ، ناظمة له و لأفراده . إذا تعرض نظامه هذا ، إلى خطر محتم أو رامه دخيل ما ، هب أفراده كلهم للدفاع عنه و التصدي للغازي أو المتطفل الدخيل .



هذا الكلام ، يمكن سحبه و إسقاطه على الــ (نحن) الإنسانية فهو في حدودها الدنيا الطبعية ، ظهرت منذ قدم البشرية ، منذ تشكل نظام الجماعة الأولى بشكلها البسيط المتمثل بنظام الأسرة ، حيث كان يعيش الإنسان في الكهوف . كانت الــ (نحن) آنذاك لحماية الإنسان من الوحوش الضارية ، و عامل من عوامل بقاؤه على قيد الحياة في صراعه مع الطبيعة . و من ثم تطورت الــ (نحن) فيما بعد مع الإنسان العاقل لتصبح نواة تشكيل المجتمع و من ثم الدولة .

تلكم هما الأنا و الــ نحنِ الطبعيتان ، لدى الإنسان الفرد و الجماعة . و لكن ماذا لو تجاوز هذان المصطلحان حدودهما الطبعية التي وُضِعت لهما ، لحماية الإنسان الفرد و صيانة المجتمع ، كل حسب وجوده ؟؟ .

إن الأنا الإنسانية البشرية ، إذا تجاوزت حدودها ، تتحول إلى مظهر من مظاهر الأنانية و الغرور و حب الذات و إيثار النفس و لو على حساب الغير و إلحاق الأذى بالغير مهما كبر ، لمجرد المنفعة الشخصية مهما صغرت . و تصبح المصالح الشخصية الفردية هي المعيار الذي تقاس و تُسقَط عليه أعمال الإنسان الفرد و تصرفاته ، بغض النظر عن تبعاتها و عواقبها تجاه الغير . و

بنظري أن هذا المستوى من الأنا ، يبقى غالباً ضمن نطاق الجهل و الحمق الفطري و لا يتعدى ذلك إلى المرض . الذي هو المستوى الثالث من الأنا ، و هو المستوى الأعلى الذي يأتي كنتيجة متطورة عن المستوى الثاني على مبدأ الآية القرآنية (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرض ...) (البقرة – ١٠) .



في هذا المستوى المتقدم ، تتحول الأنا إلى (أنا) خبيثة متضخمة .. أنا قبيحة متقيحة لا تعرف منطقاً و لا عقل و ليس لها إلا العلاج و الدواء الذي يكون في آخر مراحله ، الكي . حيث يصبح الإفراط هو السمة الغالبة عليها .. الإفراط في الغرور .. الإفراط في التبجح و الثناء على النفس حتى بما هو ليس فيها .. عدم القبول بالخطأ و الاعتراف به مهما كانت الأسباب ، لدرجة تحميل الغير أي خطأ وهمي مختلق لإيجاد عذر واه أقبح من ذنب .. الأنا الخبيثة تصل لدرجة القتل أحياناً .. و أنا أشبّه هذا النوع من الأشخاص بالمجرم أو اللص الملثم الذي يدخل دارك ليسرق ، فإذا كشفته أو أمطت اللثام عن وجهه و تعرفت عليه ، قَتَلكَ في الحال كي لا تخبر عنه و يبقى جرمه مخفياً .. ما أشبه هذا بذاك !!.. الصورة نفسها و العقلية ذاتها .. إن الشخص الذي لا يقبل الاعتراف بالخطأ ، هو اللص الذي السارق الذي يرتكب القتل إذا تم كشفه .

هذه الأنا تصل بصاحبها إلى الحسد و النفاق و الرذيلة و ارتكاب كافة الموبقات و العيوب ، فقط لأجل إرضاءها ، و ليتها ترضى أو تتوقف بل هي خبيثة كالورم الذي لا ينتهي إلا باستئصاله أو يقتل صاحبه . صاحب الأنا الخبيثة لا يرضى إلا أن يكون هو صاحب الوجاهة و الصدارة في أي مجلس كان ، حتى و إن كان لا يستحقها و لو كان يعرف ذلك في قرارة نفسه .. و إذا صودف من كان في المجلس من هو أفهم منه و أقدر و أبلغ و أكثر علماً و أغزر دراية و جذب حديثه الحاضرين ، انبرى هو لفعل أي شيء كي يأخذ الأضواء حتى و لو فعل أي شيء فقط ليبين للحاضرين أنه فقيه متحدث و بليغ متكلم ، و لو كان كلامه خطأ . تماماً كما حصل مع تلك الأعرابية أيام الجاهلية ، التي اشتكى لها ابنها أنهم لا يعيرونه انتباه في مجلس القبيلة فنصحته تلك



النصيحة الشهيرة التي هي خير تعبير و توصيف للأنا الخبيثة ، قائلة له : يا بني ..إذا كنت في مجلس و أحسن غيرك الكلام ، فافعل أي شيء يلفت إليك الأنظار ، و لو علقت في عنقك (أ.....) حمار . هذه هي الأنا الخبيثة ، فهل عرفتموها ؟؟ .

الـــ (نحن) الأخبث ، هي أخبث من الأنا الخبيثة كونها تمثل حالة مرضية تصيب أفراد و قطعان بأكملهم و كونها تتعدى بآثارها ، مفاعيل الأنا و نتائجها . فهي أشد خطورة منها و أعم .. إنها الـــ (نحن الأخبث) تسببت عبر التاريخ بحروب أهلية و مجازر راح ضحيتها الآلاف ، بل الملايين .. الـــ (نحن الأخبث) معيارها التعصب الأعمى .. الـــ (نحن الأخبث) قد تقتلك في الحال إذا اختلفت معها مذهبياً أو طائفياً أو عشائرياً أو سياسياً .. الأنا الخبيثة قد ترضى عليك إذا سايرت غرورها و مرضها وصفقت و أطريت لها . بينما الـــ (نحن الأخبث) أحياناً قد لا ترضى عليك حتى و أن سايرتها و صفقت لها و لا تقبل بك حتى مجرد مجند في صفوفها .. الأنا الخبيثة في أقصى حالاتها محصورة في الشخص نفسه و تزول بزواله أو بقناعته و تكون محكومة بمكانته و قوته و صحته و موقعه فقط و يمكن له إذا أراد ، أن يغيرها . بينما الـــ (نحن الأخبث) تكون محمية بقوانين سياسية أو دينية أو اجتماعية و مستندة إلى أعراف قوية متجذرة لا يمكن المساس بها و لا مناقشتها و لا مجادلتها ، لا بالمنطق و لا بغيره .. الأنا الخبيثة ربما يمكن استئصالها أو التعامل معها أو تحجيمها أو ترويضها بما قد يقع على صاحبها من أهوال الدهر و نوائبه و صروفه التي تتسبب في مهانة نفسه، و كلالة سيفه ، و نضيض بأسه نتيجة لقارعة تحل به فتراه قد انكسر خاطره و تقصصت جارحاته ، فيروض و ينخ عناده و يُذَل خِطامه و يسلس قياده . لكن الـــ (نحن) الأخبث من الصعب المستصعب إزالتها أو تحجيمها أو ترويضها حتى من قبل بعض نخبها و قياداتها ، كونها لم تعد متعلقة بشخص تؤثر به عاديات الزمن . بل هي كمثل عاديات أثرية و أوابد تاريخية .



أذكر عندما كنت أدرس في الخارج ، أنه كان لدينا بعض الطلبة من الهند وحصل تعارف بيننا و تبودلت الزيارات .. أحياناً كان يتواجد عندهم زميل لهم من بني جلدتهم و اسمه بهرام في السنة الأخيرة لأطروحة الدكتوراه في العلوم الاجتماعية . كنت كثيراً ما أتناقش معه في أمور عدة و يعجبني نقاشه و أفكاره النيرة و العقلانية و دائماً ما كنت أقول له أننا نلتقي في أمور كثيرة فيهز الرجل رأسه موافقاً بابتسامة . هذا يا صاحبي و في ليلة ليلاء كنا في سهرة امتدت إلى الليل و كان بهرام موجوداً و دار بيننا نقاش فكري حول الدين و الوجود و الإنسان و المعتقدات ، فقلت له ممازحاً إننا نلتقي مع بعضنا البعض ، فنظر إلي الرجل متمعناً (و لا أدري إن كان سكران أو أنطقه الله أو .. لا أدري) و قال بجدية : مستر نازار (سيد نزار) إننا أنا و أنت نلتقي في حالة واحدة فقط . قلت له : و ما هي ؟؟!! . أجابني مشيراً إلى مجلة هندية أمامه : هل ترى هذه البقرة في المجلة .. إننا نلتقي فقط عندما أنت تعبدها .

لا أدري يومها ما الذي أصابني و ما نوع القشعريرة التي سرت في بدني ، نهضت بهدوء و خرجت من الغرفة عائداً إلى غرفتي . بعد يومين طُرق باب غرفتي و كان السيد الدكتور بهرام و معه اثنين من أصدقائه أحدهم كبير في السن نوعاً ما . طلبوا الدخول فأدخلتهم ، و قام بهرام بتعرفي على مرافقيه .. أحدهم كان معه في الدكتوراه و الآخر أستاذ هندي مقيم في موسكو . قدم بهرام اعتذاره عما حصل قبل يومين و قال أنه لم يكن يقصد العبادة بل الاحترام و التقدير و أنه حصل التباس بين كلمة العبادة و كلمة الاحترام من باب الرفق بالحيوان . الرجل الكبير اعتذر أيضاً و قال أن الإسلام دين عريق و أبدى احترامه و إعجابه بالإسلام و بالقرآن و أنه قرأه أكثر من مرة و تحدث عن بعض الآيات فيه (و الله أعلم بالنوايا ، ربما كانوا صادقين .. لا أعلم) . تقبلت اعتذارهم و اعتذار بهرام الذي قال أننا نلتقي مع بعض ، و ودعتهم و أنا أعرف في قرارة نفسي أننا لن نلتقي وتلك كانت فلتة من فلتات اللسان و زلة من زلاته تتكشف بها البواطن و النفوس .

مرت الأيام و عدت إلى وطني و تسارعت سني الحياة و همومها و مشاكلها ، و اكتشفت فيما بعد أن بهرام هذا موجود بيننا وبين ظهرانينا .. موجود عند صديقك الذي تختلف معه بالمذهب .. موجود عند صديقك الذي تختلف معه بالطائفة .. موجود عند صديقك الذي من نفس مذهبك

أنت و لكن لمجرد إبداء رأي ما بقضية ما ، يتحول إلى عدو .. موجود و يا للأسف عند صديقك الذي تختلف بالعشيرة أو الفرقة أو الحزب السياسي أو .. أو .. الخ .

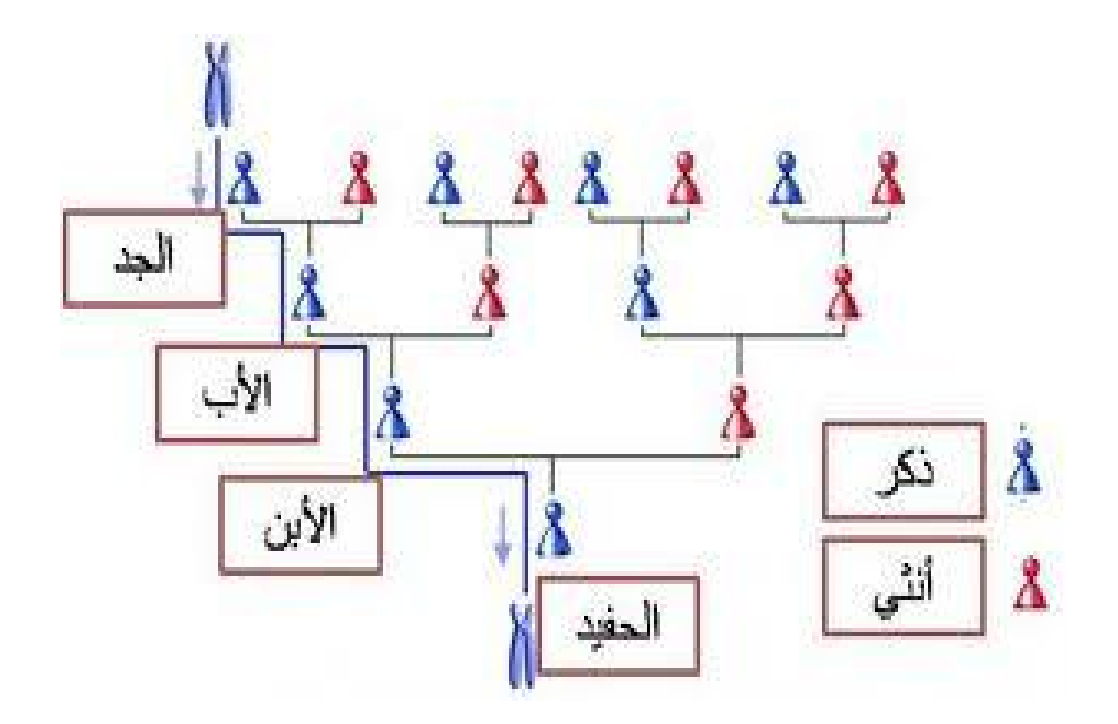
بهرام الغريب عنك في الدين و اللغة و العرق .. على الأقل اعتذر و احضر معه وجاهة كما يقال (ربما يكون صادقاً في كلامه و ربما لا) المهم أنه اعتذر و أدرك خطأه و استدركه . بينما أخوك في الدين أو المذهب أو الطائفة و المتحصل على الدكتوراه و الهندسة و التعليم و الثقافة ، تتفق معه على تسع و تسعون نقطة و عندما تختلف معه في النقطة المائة ، ينسف التسع و التسعون و يقاطعك و يهجرك و يحاربك و يعتبرك في سريرته عدواً .. هذه هي الـــ (نحن الأخبث) فهل عرفتموها ؟؟ .



قيل أنه عندما خلق الله (تعالى) النفس البشرية ، تجلى لها بصورة من الصور و سألها : من أنا فأجابت بتحدٍ : أنا من أنا .. فأرسلها في مسالك التعب و القهر سنين و دهور ، ثم تجلى لها مرة أخرى و سألها : من أنا ؟ فأجبت بخضوع : أنت الواحد الأحد القهار لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك .

هذا ما حصل مع الأنا .. فمتى يحصل مع الـــ (نحن) ؟؟ عسى موعده قريب .

الحـ سـ النبـ وسـ ب[1]



الفخر بالنسب من العادات الضاربة بجذورها في المجتمعات العربية و الإسلامية ، و توجد بكثرة في أدبيات الفكر و الأدب و التراث منذ عصر الجاهلية و إلى هذه الفترة التي بين ظهرانينا الآن . فكثيراً ما كانت الناس تتذاكر بأنسابها و أحسابها و أصولها ، و تعتبر ذلك مدعاة للفخر و الجاه و العلو في المجتمع ، و ربما طلباً للرياسة و الزعامة . و قديماً .. في المناظرات الشعرية و الأدبية و السياسية ، كثيراً ما كان النسب و الافتخار بالقبيلة ، يتخذ كأداة للإعلاء من شأن الذات و الحط من شأن الخصم . حيث يفتخر الشخص بحسبه و نسبه و يعدد مآثره و أخلاقه و مآثر آباءه و أجداده أو بانتمائه لقبيلته . و يعيّر الخصم بهوان نسبه و فَسْل أرومته . و أحياناً إذا ما كان الخصم مجهول النسب أو الأب ، فإنه يصبح مادة للتهكم و الغمز و اللمز من قناته . فكثيراً ما عُيّر أناس بنسْبهم إلى أمهاتهم ، كناية عن أنه لا أب لهم ، أو أنهم مجهولي الأب . و قد كان لهذه

---

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠١١/٢/١٥ .

القضية الباع الكبير في الهجو و المدح في الشعر العربي للعصور السالفة . فإذا ما أُريد مدح شخص ما ، كان نسبه إحدى مواد المدح . كذلك الأمر إذا أُريد ذم شخص و هجوه ، كان نسبه من الأهداف التي يتم تناولها و سوقها للحط من شأنه .

إن الشائع في أيامنا الآن أن التفاخر بالأنساب قد أصبح مادة إعلامية و تسويقية لكل من هب و دب . و أصبح يستخدم كبطاقة ائتمان أو بطاقة هوية اجتماعية للشخص يستخدمها للتباهِ أو البروز في المجتمع و قبوله في إطار فئات و شرائح معينة ، أو لتسويق نفسه سياسياً أو دينياً أو اجتماعياً ، بل حتى فكرياً و ثقافياً . بخاصة و قد أضحى النسب في هذه الأيام غامضاً مبهماً لا يمكن التكهن بمصداقيته و صحة ما ينسب إلى أشخاصه الذين هم مادة النسب ، سواء من حيث الأحداث التي قاموا بها أم من حيث هويتهم الحقيقية و صحة نسبهم للشخص الفرع المدعي نسبه إليهم .



السوآل المطروح.. هل التفاخر بالنسب يُعَد فعلاً مصداقاً كافياً لرفعة الشخص و علو شأنه و سمو أخلاقه و مناقبه ؟؟ و يشكّل دلالة حقيقية على هويته ؟؟ و هل التفاخر بالنسب هو بحد ذاته أمر ممدوح و مقبول ؟؟ .

بنظري أن موضوع النسب و الافتخار بالنسب يأخذ شقين أساسين يُنظِرَ إليه من خلالهما .. الشق الديني و الشق الاجتماعي . و بداية أقول أن الافتخار بالنسب جائز و مقبول في حال توفر الحَسَبْ ، أي لا نَسَبْ بلا حَسَبْ ، فيجوز للرجل صاحب الحسب و المروءة و الشهامة و الأخلاق و العلم إذا كان له نسب يتلائم و صفاته الخُلقية تلك ، أن يفتخر بنسبه الذي هو على شاكلته في حال دعت الضرورة و اضطره موقف من المواقف إلى ذلك .

لقد جاء المنظار الديني لموضوع النسب برمته ، سواء كمفهوم و مصطلح ، أم كافتخار و ذم .. جاء بصورة سلبية واضحة المعالم تماماً . فقد رفض الدين مبدأ التفاخر بالأنساب و ذمه و اعتبره

لا طائل منه و من الموبقات و بدا ذلك واضحاً قاطعاً في القرآن الكريم حيث جاءت آيات قرآنية عدة تنبذ مبدأ التفاخر بالنسب و تبطل مفعوله و تعتبره باطلاً لاغياً بالنسبة لله تعالى منها :

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا } [لقمان : ٣٣] .

{لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الممتحنة : ٣]

{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ} [المؤمنون : ١٠١]

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات : ١٣]

{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [البقرة : ١٣٤]

كما جاءت السنة النبوية بتفاسيرها و أحاديثها مؤيدة لما ورد في القرآن الكريم بهذا الصدد

قال رسول الله (ص) : افتخر رجلان عند موسى (ع) فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان حتّى عدّ تسعة. فأوحى اللّه تعالى إلى موسى: قل للذي افتخر بآبائه إنّ كلّ التّسعة في النّار و أنت عاشرهم.

و روي رسول اللّه (ص) قال : ليدعنّ قوم الفخر بآبائهم، فقد صاروا فحماً في جهنّم، و هم أهون على اللّه من الجعلان التي تذوق بآنافها ، العُذْرَة .

و عنه أيضاً (ص) : يا بني هاشم ، لا يأتيني الناس يوم القيامة بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم ؟؟ .

و قال أيضاً : ائتوني بأعمالكم، و لا تأتوني بأنسابكم، إنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم .

و قال : إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد ، كلكم بنو آدم طف الصاع لم يملؤوه ليس لأحد على أحد فضل على أحد إلا بدين وتقوى ، وكفى بالرجل أن يكون بذيّاً بخيلاً فاحشاً . (تفسير ابن كثير ج٤) .



و عنه أيضاً : إن الله تعالى يقول يوم القيامة إني جعلت نسباً وجعلتم نسباً فجعلت أكرمكم أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم أين المتقون أين المتقون . (تفسير القرطبي ج ١٦) .

وأخرج الحاكم وابن مردويه والبيهقي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله يقول يوم القيامة أمرتكم فضيعتم ما عهدت إليكم ورفعتم أنسابكم .

و عن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) قال : أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كل سبب ونسب فإنه منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي .

تتصفح كتاباً ما . فترى نبذة عن المؤلف وضعها عن نفسه أو وضِعَتْ عنه و فيها يفخر بآبائه و أجداده بما لا علاقة له بموضوع الكتاب و مادته و حيثياته . فيتحدث عما فعله أبوه و عن مناقبه و مآثره و عن جده و أبو جده .. كيف كان مثال الكرم و الجود و الأخلاق . و جد جده الذي كان سيد قومه و سائسهم و مؤدبهم . و آخر يتكلم عن شجرة عائلته و أنه من نسل النبي محمد (ص) . أي بما معناه أيها القارئ الكريم .. أنا من نسل الرسول .. أو جدي كان سيد قومه و لذلك وجب عليك القبول منطقياً بما في هذا الكتاب دونما نقاش أو اعتراض .. اللهم لا اعتراض . و هذا بنظري إما نوع من الإرهاب النفسي أو الفكري على القارئ لقبول أفكاره و آرائه . أو أن كتاباته نوع من التسويق لأفكاره التي قد تكون حشواً لا يقدم و لا يؤخر . أو حب الظهور و التسيّد الذي أصبح سمة لدى البعض في هذا العصر و الزمان .

ما علاقة الأفكار التي أقدمها في كتابي ، بحسبي و نسبي ؟؟!! أيش دخل جدّي و ستّي ببحوث تاريخية و فكرية و علمية أو حيثيات ثقافية أو سياسية أو اقتصادية موضوع كتابي ؟؟!! شخصياً

.. أنا لم ألحظ من خلال قراءتي لكتّاب أجانب و غربيين ، و لم أذكر .. أو لم يقع تحت يدي كتاب لهؤلاء يفخر فيه مؤلفه بحسبه و نسبه و يذكر أصوله و سلالته . فقط عندنا توجد هذه العادة السيئة ، فلا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم .

و المشكلة أن البعض في الوقت الحالي ، يتوغل بنسبه بعيداً في الأعماق حتى يصل به إلى عصر الجاهلية و ما قبلها و يسلسل نسبه بدقة متناهية أباً عن جد . و آخر يدعي علم النسب و ينسب الناس إلى أصول تاريخية بعيدة الزمن . فمن أين له أن يعرف ؟؟ و بناء على أي مصداقية و أدلة استنبط هذه المعلومات ؟؟ و أنّى له أن يحدد سلالة الشخص بدقة و قد مر عصور من الغزوات و الحملات على الأرض العربية جرى فيها ما جرى من تلاقح جنسي إلى جانب التلاقح الحضاري و الفكري ؟؟!! أمم اختلطت بعضها ببعض نتيجة حروب و حملات متوالية لا تحصى و لا تعد امتدت على قرون طويلة .. فرس .. أتراك .. سلاجقة .. مغول و تتر .. مماليك .. صليبيون .. هنود .. يونان .. الخ . و هذه حكمة من حكم الباري عز وجل كيلا يدعي أحد بأحد ممن قد سلف و لا يفخر .

روى شخص يدعى النسابة الكلبي عن نفسه ، قال دخلت على الإمام جعفر الصادق ، فسألني الإمام : أأنت تعرف الأنساب ؟؟ قلت نعم .. قال فضرب الإمام جعفر يده على جبهته و قال كَذَبَ العاذلون بالله و ضلوا ضلالاً بعيداً و خسروا خسراناً مبيناً .. يا أخا كلب ، إن الله عز و جل يقول (وعاداً و ثمود و أصحاب الرس و قروناً بين ذلك كثيراً) أفتنسبها أنت ؟ فقلت لا ، جُعِلتُ فداك . فقال لي أفتنسب نفسك ؟ قلت نعم . قال : فافعل . فقلت : أنا فلان بن فلان بن فلان حتى ارتفعت . فقال لي قف ، ليس حيث تذهب .. ويحك أتدري من فلان بن فلان ؟! قلت نعم ، إنه فلان بن فلان .. قال : لا بل هو فلان ابن فلان الراعي .. إنما كان فلان الراعي على جبل آل فلان فنزل إلى فلانة امرأة فلان من الجبل الذي كان يرعى غنمه عليه فأطعمها شيئاً و غشيها فولدت فلاناً .. و فلان بن فلان من فلانة .. ثم قال أتعرف هذه الأسماء قلت لا و الله جُعِلتُ فداك ، فإن رأيت أن أكف عن هذا فعلت . قال : نعم . فقلت : والله لا أعود إلى ذلك أبداً .. (المسكين أكل صواب ماكن) .

الشق الثاني الذي تعلق به مفهوم النسب و التفاخر بالأنساب ، هو الشق الاجتماعي . و بالمنظور الاجتماعي يتبدى لنا أن موضوع الفخر بالنسب ، نُظِرَ إليه من بعض الزوايا بالمنظار السلبي و عن طريق النخبة الاجتماعية الواعية المتعلمة الحكيمة ، و ليس قواعد العوام و من أعلى منهم بدرجة . على أن هذا الأمر ارتبط بِحَسَبْ الشخص ، فجاء ذم الفخر بالنسب لمن لا حسب له أو من كان ذا حسب وضيع قليل . فارتبط نَسَب الرجل بِحَسَبه . فمن كان ذا حسب عالٍ و كبير ، و له نسب أصيل يعتد به ، حُقَ له أن يَفخر أو يُفخر به ، و لم يشكّل ذلك معضلة أو استهجان . بل الاستهجان والذم وقعا على من يفتخر اعتباطياً بنسبه المجهول أو حتى المعلوم ، و لكن له حسب مرذول .

حُكيَ عن بعض الحكماء أنه افتخر عليه بعض رؤساء زمانه فقال له الحكيم : إن افتخرت علي بفرسك فالحُسْن و الفراهة للفرس لا لك ، و إن افتخرت ببزّتك و آلاتك، فالحسن لهما دونك، و إن افتخرت بآبائك فالفضل كان لهم دونك، فإذا كانت المحاسن و الفضائل كلّها خارجة عنك و أنت منسلخ منها ، فقد رددناها على أهلها بل لم تخرج عنهم حتّى تُردّ إليهم فأنت من أنت ؟؟!! .

أن حالة الفخر بالآباء و الأجداد ، هي بنظري حالة إفلاس من قبل الشخص المفتخر و المدعي لنسبه ، فهو شخص ليس لديه شيء يفخر به ، و لا يملك ذخيرة من علم أو ثقافة أو أخلاق أو عمل مفيد للناس و المجتمع ، فلا يجد أمامه غير الماضي المجهول لسامعيه و محدثيه ، يحدثهم عن جده و مآثر جده على مقولة ذلك البهلول الذي كان يترنم مغنياً في الأسواق : ياااااااا جدي .. ياااااا جدي . هي حالة هروب من الذات إلى الوهم و العجز .

لقد أدرك العرب قديماً هذه الحالة المنتشرة الآن بين ظهرانينا انتشار النار في الهشيم وعبروا عنها بقصصهم و أشعارهم قال الشاعر المتلمس :

و مَن كان ذا نَسْبٍ كَرِيمٍ و لم يَكُنْ لَه   حَسَبٌ كان اللَّئِيمَ المُذمَّما

وقال الشاعر أيضاً :

ليس الفتى إذا قال كان أبي   إن الفتى من يقول ها أنذا

و قال آخر :

وَالمَرءُ مَن كَسَبَ العُلى لَم تَرفَعِ   الأَنسابُ مَن لَم تَرفَعِ الأَحسابُ

و عن أولوية الافتخار بمآثر النفس و أخلاقها و فعالها على الافتخار بالنسب قال المتنبي صاحب الحكم و البلاغة الشعرية المعبرة و الذي لم تفوته مثل هكذا قضية :

لا بقومي شُرفت بل شُرفوا بي   و بنفسي فخرت لا بجدودي

نهاية ، تبقى لنا قصة الشاعر العربي الحطيئة الذي عاش عيشة فقر و عوز و كان أخواله و أعمامه من قبائل عربية ذات سيرة و شهرة . و كان هنالك قبيلة عربية صغيرة الحجم خفيفة الوزن ضئيلة الشهرة ضعيفة الجانب يقال لها (أنف الناقة) كان أفرادها يخجلون من ذكر اسم قبيلتهم أمام الناس ، فإذا سُئِل أحدهم من أين أنت يا أخا العرب ؟؟ كان يجيب مطرق الرأس خجل المقلة خفيف الصوت : أنا من أنف الناقة . و صادف في تلك الفترة أن وقع الشاعر الحطيئة في فقر شديد و كان له بنيّات صغيرات زغب الحواصل ، يصرخن من الجوع ، فقصد الشاعر قبيلة أخواله فما أجابوه و قصد قبيلة أعمامه فما أجابوه و كذلك فعل مع القبائل الكبيرة ، فلم يلق نتيجة . و ظل يجوب القبائل حتى وصل إلى قبيلة أنف الناقة ، فاستقبله القوم و أحسنوا وفادته و أكرموه غاية الإكرام و أطعموه و حملوه المؤن و الكساء . فقال فيهم قصيدته الشهيرة التي يقول فيها :

قَومٌ هُمُ الأَنفُ وَالأَذنابُ غَيرُهُمُ   وَ هل يُسَاوىَ بأَنفِ الناقَةِ الذَنَبا

فأصبحت قبيلة أنف الناقة تفخر بالقصيدة و بهذا البيت خصوصاً . و أصبح الرجل منهم إذا سُئِل عن نسبه يرفع رأسه بفخر و يقول عالي الصوت : أنا من قبيلة أنف الناقة .

الحقيقة[1]



حقيقة الشيء ، هي أصله و جوهره و لبه و معدنه الذي يدل عليه عياناً أو عقلاً أو اعتباراً .. و الحقيقة هي أساس العلوم و عمادها الذي قامت عليه و لا زالت تقوم إلى الآن . و الحقيقة حسب التعريف المنطقي ، جاءت من الحق .. هي أيضاً اتفاق العقل مع نفسه بلا تناقض ، هنا يقال لها الحقيقة الصورية أو الذهنية . و الحقيقة تُحمَل أيضاً على الصح و الصواب و العقلانية و المنطق .

و في اللغة، حقيقة الأمر أي يقين شأنه ، و حقَّ الأمر أي صار واجباً و ثابتاً لا خلاف فيه ، و حقَّ الرجل الأمر ، أي أصبح على يقين منه . و الحق هو الواجب ، فعندما يقال حق عليك أن تفعل كذا و كذا ، أي واجب عليك . و من ذلك أيضاً الحقوق التي هي الواجب و الموجب .. الواجب على الشخص و الموجب له (البعض يفهمها الموجب فقط) أي هي الأمور المنطقية التي

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠١١/١/٤ .

لا خلاف فيها و التي على الشخص القيام بها و أداؤها تجاه المجتمع أو الغير .. و ما يجب له من المجتمع و الغير و لا يمكن أو يجوز لأحد منازعته إياه أو نزعه منه .. الحقيقة مرتبطة بالعقل و حقيقة الشيء هي شرط وجوده و تحققه واقعياً أم منطقياً . و يقال أيضاً حقائق الأشياء أو الأمور ، أي قوانينها الدالة عليها و التي لا تتحقق إلا فيها و بواسطتها و بسببها و لا تقبل سواها .



كالقوانين الفيزيائية و الرياضية و الكيميائية و غيرها من قوانين العلوم التطبيقية التي هي عبارة عن حقائق ثابتة لا تقبل التغيّر و لا التبدل و لا التحوير و لا التزوير أو التزويق و التنميق أو التلاعب .. فالعملية الحسابية (١ + ١ = ٢) هي حقيقة منطقية ثابتة على مر العصور لا تقبل الجدل و لا النقاش و لا التلاعب ، و لا يمكن تغييرها بأي طريقة كانت ، و لا يمكن البرهان على عكسها أو تخطئتها .

و من الحقيقة جاء التحقق أي التثبت من أمر ما أو قضية معينة و خصمها إما بالقبول أو الرفض .. بالصحة و الصواب أو الخطأ و البطلان . و كذا الأمر التحقيق أي التمحيص و التدقيق وصولاً إلى نتيجة قاطعة ثابتة مؤكدة كالتحقيق من قبل البوليس مع شخص حول جنحة أو حادث معين تثبت فيه إما براءته أو إدانته .. أو تحقيق الكتب مثلاً أي إثبات صحة المعلومات الموجدة فيها و تدقيقها و تصويبها ، و تحقق عنده الخبر أي صحَ .

باختصار .. حقيقة الشيء أو حقائق الأشياء هي أصولها و ثوابتها الدائمة التي لا يمكن نقضاها أو تغييرها ، و هي الأصول التي يعتمد عليها في مجالات العلوم التطبيقية و الحياة العامة للوصول إلى الهدف النهائي . و لولا ذلك لما وصل الإنسان اليوم إلى ما وصل إليه من تقدم هائل في التكنولوجيا و العلوم التطبيقية الأخرى . و لو حاول الإنسان التزوير في هذه الحقائق أو ليّها و تحويرها إشباعاً لغريزة عاطفية معينة ، لما وصل إلى ما وصل إليه و لما كان الذي نراه الآن من تقدم و حضارة ، قد كان .. فالحقيقة أو الحقائق هي بالنهاية ثوابت عقلية و ليست مشاعر عاطفية .

و رغماً عن ذلك ، يتم التعامل الآن مع مفهوم الحقيقة بعمومياته المثلى أو قيمته المطلقة و مفهومه العام ، بشكل مغاير لمنطق التعامل ، ذلك إذا اعتبرنا هنا أن الحقيقة هي أحد أوجه الصدق و الأخلاق و الثابت الغير متحول .

فـــ هنالك من يجهلها و هم كثر .

و هنالك من يتجاهلها و هم كثر .

و هنالك من يكرهها و هم كثر .

و هنالك من يحذرها و هم كثر .

و هنالك من يتحرج منها و هم كثر .

و هنالك من يخفيها و هم كثر .

و هنالك من ينكرها و هم كثر .

و هنالك من يترعج منها و هم كثر .

و هنالك من يهرب منها و هم كثر .

و هنالك من لا يريدها و هم كثر .

و هنالك من يتجنبها و هم كثر .

و هنالك من تؤذيه و هم كثر .

و هنالك من هى تصدمه و هم كثر .

و هنالك من هو يصدم بها و هم كثر .

و هنالك من تجرحه و هم كثر .

و هنالك من يراها و يعمى عنها و هم كثر .

و هنالك من يحورّها و هم كثر .

و هنالك من يحرفها عن مواضعها الأصلية و هم كثر .

و هنالك من يبدلها و هم كثر .

و هنالك من لا يهمه أمرها و هم كثر .

و هنالك من يخاف منها و هم كثر .

و هنالك من لا يجرؤ على قولها و هم كثر .

و هنالك من هو مغَيّب عنها و هم كثر .

و هنالك من هي مغَيّبة عنه و هم كثر .

و هنالك من لا يتقبلها و هم كثر .

و هنالك من لا يطيقها وسعاً و هم كثر .

و هنالك من هو بعيد عنها كل البعد و هم كثر .

و هنالك من يدّعيها زوراً و بهتاناً و هم كثر .

و هنالك من هو جاهل بها و هم كثر .

و هنالك من لا يحتمل معرفتها و هم كثر .

و هنالك من يقلبها عكسها و هم كثر .

و هنالك من يخلطها بما هو غيرها و هم كثر .

و هنالك من يتاجر بها و هم كثر .

و هنالك من يتوهمها و هم كثر .

و هنالك من يطمسها و هم كثر .

و هنالك من يحاربها و هم كثر .

و هنالك من يقتلها و هم كثر .

و هنالك من يقولها و لا يعمل بها و هم كثر .

و هنالك من يدوسها بقوائمه الاثنين أو الأربع و هم كثر .

و هنالك من يفر منها فر الحُمر الوحشية من القسورة و هم كثر .

و هنالك من يلوكها بلسانه لا تبلغ حناجرهم و هم كثر .

و هنالك من لا يسطع لها فهماً و لا علماً و هم كثر .

و هنالك من يزعم حيازتها و هم كثر .

و هنالك من يزعم أنه ممثلها على الأرض و هم كثر .

و هنالك من يخدع الناس و يسوسهم بها و هم كثر .

و هنالك من يستعبد الناس بها و هم كثر .

و هنالك من يحتكرها لنفسه و هم كثر .

و هنالك من يبحث عنها كادحاً كدحاً لأجلها .. متجرداً من أي عاطفة أو تبعية فكرية ألا تبعية العقل و الاستبصار العقلي المنطقي .. متحملاً المشقة و الأذى و التعب و النبذ من المجتمع .. و أولئك هم القلة القليلة .

(وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة:٤٢)

(لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) (الزخرف:٧٨)

زعموا أن ... !!![1]

زعموا أن تاجراً كانت له قافلة من جِمال ثلاثة و حمار . و كان هذا الرجل يقوم بتجارته من بلد إلى آخر ، يجوب الصحراء و يقطع الفيافي و الدروب .. يشتري و يبيع . و ظل الرجل على هذه الحال مدة طويلة إلى أن مرض مرضاً شديداً ألزمه الفراش . و عندما



اشتد عليه المرض و أدرك أنه لن يقوم من وعكته هذه و أنه مشرف على الهلاك . استدعى جماله الثلاثة و بدأ معهم جردة حساب عن الماضي .. كان يريد أن يبري ذمته قبل الرحيل . نظر إلى الجمل الأول و قال له : سامحني أرجوك فأنا كنت أحياناً أنسى أن أقدم لك عشاؤك و كنت أنت تبيت جائعاً و هذه غلطة غير مقصودة مني و الإنسان مُعَرّض للنسيان .. أنت تعرف .. جلّ من لا ينسى و أرجو أن تغفر لي خطيئتي تلك . ثم نظر إلى الجمل الثاني و قال له : أيها الجمل العزيز سامحني .. فأنا أحياناً كنت أضربك بقسوة و أعرف أن ذلك كان مؤلماً بالنسبة لك و أنا الآن نادم أشد الندم على ذلك .. أنت تعرف .. أحياناً يمر المرء بنوبات غضب يفقد معها اتزانه و تقديره للأمور . و لذلك أرجو منك أن تغفر لي هذه الخطيئة الشنيعة . ثم التفت إلى الجمل الثالث و قال مخاطباً إياه : صديقي الجمل .. أنت أيضاً سامحني .. أنا كنت أحياناً أحمّلك بضاعة أكثر من

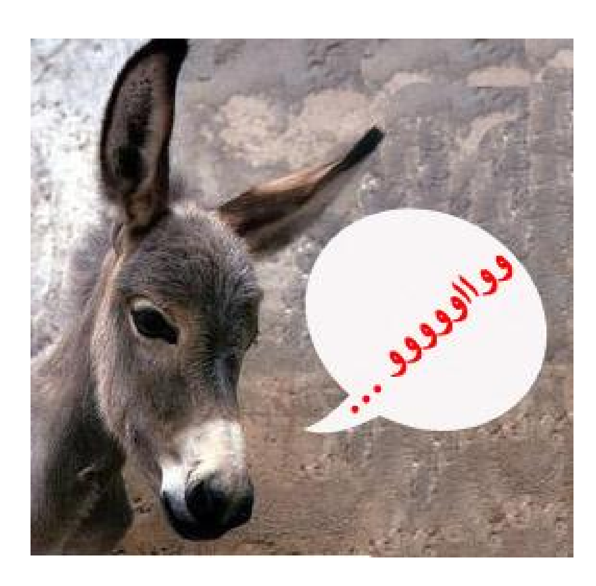
---

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠١١/٧/٢٨ .

غيرك من بقية الجمال و أنا أعرف أن هذا كان مجهداً بالنسبة لك . و لذلك أرجو أن تغفر لي هذه الزلة .



نظرت الجِمال الثلاثة إلى الرجل و هزت برؤوسها متفهمة القضية ثم قالت : نحن غفرنا لك يا سيدي كل زلاتك و أخطاؤك بحقنا ، فهما كان .. أنت تبقى مالكنا و صاحبنا ، و نحن قد عشنا معاً في السراء و الضراء كما أنك أيضاً كنت معنا رجلاً طيباً و على كل حال ، ليس هذا الوقت وقت حساب بل وقت وداع . صمتت الجِمال قليلاً ثم نظرت إلى الرجل بحدة و قالت جميعها بصوت واحد : لكن هنالك غلطة واحدة شنيعة ارتكبتها أنت بحقنا و نحن لن نغفرها لك أبداً .



بهت الرجل المسجى على الفراش و سأل بدهشة و ذهول و قد بلغ منه الإعياء مبلغاً : غلطة ؟؟!! ما هي هذه الغلطة ؟؟؟؟؟!!!!!!!

أجابت الجمال بصوت واحد : كنت دائماً أثناء السفر ، تضع الحمار في مقدمة القافلة .

زعموا أنه في العصر العثماني كان يوجد فلاح فقير له ولد يساعده في عمل الأرض .

و كثيراً ما كان الفلاح الفقير يغضب من عمل ولده و أخطاءه الكثيرة و بلادته المستديمة ، فكان دائماً يعنفه قائلاً له : و الله يا ولدي ، بحياتك لن تصبح رجلاً و لن تكون رجلاً في يوم من الأيام

. دائماً مع الزمن كان الفلاح يعنّف ولده الوسيم البليد بهذه العبارة . و عندما كبر الولد و أصبح يافعاً ، كان يشتاط غضباً من عبارة والده تلك .

في يوم من الأيام ، تم استدعاء الولد إلى الجندية ، فسافر لأداء الواجب ، و هنالك ترقت به السبل و تعرف إلى إحدى محظيات السلطان . فتوسطت له هذه بعد فترة عند السلطان فعينه وزيراً . و عندما استلم الشاب منصبه الجديد ، كان أول عمل قام به ، استدعاء والده الفلاح المسكين الذي قد أصبح عجوزاً ، و بعث في أثره الجنود طالباً إحضاره موجوداً .



تم إحضار الوالد ، و كان الولد قد جهز نفسه لاستقباله في قصر فخم و قد لبس أفخر الثياب و جلس على أريكة مرتفعة تزينها الطنافس محاطاً بأبهة العز و الجاه .

أدخل الجنود الوالد العجوز واقفاً أمام ولده الذي نظر إليه و قال له : مرحباً بك يا أبي .. ألم تعرفني ؟؟ نظر العجوز إلى ولده و قال له : نعم يا ولدي لقد عرفتك . سأل الوزير أباه : ما رأيك الآن يا أبي ؟؟ سأل العجوز : بماذا يا بني ؟؟ قال الولد بما أنا عليه الآن ؟؟ أجاب الفلاح العجوز باقتضاب شديد : خيراً إن شاء الله (و لم يزد.(

أعاد الولد السوآل : و لكنك لم تجبني عن سوآلي يا أبي ؟؟ قال العجوز : أي سوآل يا بني ؟؟!! قال الولد : أنا أسألك عن كلامك الذي كنت دائماً تقوله لي .. ألا تذكر ؟؟ كنت دائماً تعيّرني و تقول أنني لن أصبح رجلاً ، و ها أنا الآن قد أصبحت وزيراً ، فما رأيك .

نظر العجوز الذي كان لا يزال واقفاً ، إلى ابنه و قال له بهدوء : و الله يا ولدي أنا لم أكن أقول لك أنك لن تصبح وزيراً .. أنا كنت أقول لك أنك بحياتك كلها لن تصبح رجلاً ، و مازلت إلى الآن مصرّ على كلامي .. السلام عليكم . قال العجوز ذلك ثم قفل عائداً إلى بيته .

زعموا أنه في الحرب العالمية الثانية ، كانت ترد التقارير من عملاء الـــ (إم آي ٥)

في الجستابو إلى رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل ، بأن مسؤولاً رفيعاً بالدولة .. فلان الفلاني هو عميلاً للمخابرات الألمانية لكن دون معرفة الدور الذي يقوم به . أعطى تشرشل أوامره بمراقبة الرجل ، و لكن لم يتم إثبات أي أمر مريب عليه أو ما يدل على نشاط مشبوه له . و تم إهمال الأمر .

لكن ما لبثت التقارير أن عادت مرة أخرى لتؤكد وجود اسم الرجل في قوائم العملاء لدى الألمان و لم يستطع عملاء الـــ (إم آي ٥) أن يعرفوا نوع العمالة و ما هي . فأعاد تشرشل إصدار الأوامر ، لكن هذه المرة بمراقبة مشددة للرجل . و مرة أخرى لم يتم إثبات أي أمر مريب على الرجل .

مرة ثالثة عادت التقارير بعد مدة من الزمن لتؤكد ورود اسم الرجل في قائمة العملاء الانكليز للألمان مع أوراق لتحويلات مالية سنوية من قبل الألمان لحساب الرجل في جنيف ، و أيضاً لم يستطع عملاء الـــ (إم آي ٥) تحديد طبيعة علاقة الرجل بالاستخبارات الألمانية .

هنا .. لم يستطع تشرشل التحمل ، فطلب إحضار الرجل للمثول أمامه . و عندما حضر الرجل ، اجتمع تشرشل و إياه على انفراد و قال له : باختصار شديد نحن نعرف بعلاقتك مع الألمان ، و هذه هي تحويلاتهم المالية لحسابك في جنيف و لكن لا نعرف ما هي طبيعة علاقتك معهم .

أنكر الرجل الأمر بداية . لكن تشرشل ضغط عليه غاضباً مهدداً متوعداً ، ثم قال له بحزم : اسمعني جيداً .. لا أريد منك شيئاً .. عليك الأمان و أتعهد لك بشرفي بعدم محاسبتك ، و هذه

ورقة موقعة و مختومة مني باستقالتك و براءة ذمتك من أي شيء و لا يتعرض لك أحد .. بشرط واحد ، فقط أن تخبرني ما هو دورك بالضبط .. لا أريد منك غير ذلك .



نظر الرجل إلى تشرشل و قال : في الواقع لقد قال الألمان لي .. لا نريد منك أية معلومات و لا تجسس .. حتى ولا تجنيد .. و لا أن تتصل معنا .. كل ما نريده منك هو أمر واحد بسيط جداً و لا يكلفك شيء .. فقط أن تضع الرجل غير المناسب في المكان المناسب .

(يقال أن هذه الحادثة قد تكررت فيما بعد في الاتحاد السوفييتي سابقاً) .

قال الإمام علي بن أبي طالب : إياك و معاشرة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك .

سُئل السيد المسيح : أنت تحيي الموتى ؟؟ قال نعم بإذن الله .. قيل له : و أنت تشفي المرضى ؟؟ قال نعم بإذن الله .. قيل : و تداوي الأحمق ؟؟؟؟ قال : هاااااااااااااذا الذي أعياني .

كلمة أخيرة : لا محاربة أصعب من محاربة الغباء .

المرأة .. ما لها و ما عليها[1]



لقد أخذت قضية المرأة في العالم العربي ، حيزاً كبيراً من الجدل و النقاش ضمن حقل الاجتماع و الدين . و تم التعاطي بها بقدر كبير من الإشكالية و الالتباس . و طُرح ذلك كله ضمن ما عرف و يُعرف باسم (حقوق المرأة) . و بنظري ، فإن جوهر و لب القضية هو في أسلوب التعاطي مع مفهوم (حقوق المرأة) و التعامل معه و كيف نُظِر إليه . فقضية (حقوق المرأة) تأرجحت بين طرفين اثنين .. المعترض عليها ، و المؤيد إليها .

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠١١/٣/٦ .

في الماضي الذي سلف ، لم تكن (حقوق المرأة) مطروحة على مائدة الكلام و الجدل و النقاش ، ذلك بسبب سواد الأمر الديني الذي حسم قضية المرأة التي تحولت إلى عرف سائد مستمد من الأحاديث و التفاسير الدينية التي رضخت في بعضها إلى حوادث الأمور السياسية و الاجتماعية . و كانت بعيدة كل البعد عن جوهر و روح الإسلام الحقيقي في بعض مفاصلها و نواحيها . و بذات الوقت بعيدة عن المنهج القرآني و روحيته . ذلك المنهج الذي نأى بالمرأة عن أن تكون متاعاً رخيصاً جامداً و أداة للمتعة البحتة ، لا كرامة لها و لا رأي . بل اعتبر المرأة كائناً إنسانياً مثل الرجل تماماً ، معادل له ، صنوان معه . ما عدا القوة البدنية و الناحية الفيزيولوجية و الواجبات الاجتماعية المرتبطة بذلك ، و المترتبة على الرجل كأولوية للقيام بها . ذلك ما عبرت عنه الآية القرآنية (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ) (النساء٣٤) .

ذلك ما تحدْثتُ عنه بمقالة سابقة لي في موقع إيلاف تحت عنوان (مساواة المرأة مع الرجل .. ظلم للمرأة) و يتضح ذلك من معنى و مفهوم القوامة ذات الجذر اللغوي (قوم) حيث جاء في المعجم : قوم .. القيام نقيض الجلوس . و عن ابن الإعرابي أن عبداً قال لرجل أراد شراءه : لا تشتريني ، فإني إذا جعت أبغضت قوماً ، و إذا شبعت أحببت نوماً .. أي بمعنى أنني إذا جعت كرهت القيام من موضعي و النهوض من مكاني . فجاءت قوامة الأمر هنا بمعنى القيام و النهوض به . و قيّم المرأة هو بعلها أو زوجها ، لأنه يقوم بأمرها و يلبيها ما تحتاج إليه . و فلان يقوم بالأمر ، أي يطيقه و يقدر عليه . و إذا لم يستطع المرء أمراً يقال : ما قام به . كما جاء معنى القيام بالعزم و القدرة ، كقول النابغة الذبياني :

نُبِئتُ حصناً و حياً من بني أسد   قاموا فقالوا حِمانا غير مقروب

أي عزموا فقالوا كذا .

ما ينبغي ملاحظته من خلال ما سبق ، هو أن مفهوم القوامة قد ارتبط بالقوة البدنية و الجهد الفيزيائي الفيزيولوجي ، حيث يتفوق الرجل على المرأة في هذه النقطة بالذات . و لهذا فهو القائم في الأمور التي تتعلق بالأعمال المجهدة الجبارة و التي قد ينجم عنها مخاطر جسدية كحفر الأنفاق



و المناجم و أعمال البيتون و البناء و الفلاحة أو مخاطر معنوية اعتبارية كالحروب و الوقوع في الأسر و غيرها .. و لذلك كانت الأولوية للرجل للتنطح لهذه الأمور ، فهو الأولى أن يتحمل العبء . و بنظري فإن القرآن الكريم قد أجبر الرجل دون المرأة ، على القيام بالعمال الجسدية ذات المخاطر الكبيرة ، كونه يتمتع بهذه الميزات البدنية الفيزيولوجية . فهي بنظري قوامة إجبار و إكراه ، لا تفضيل و تمييز ، لأن المفاضلة بالقرآن الكريم هي بالعقل و التقوى في العبادة بمفهومها العام الشامل ، لا بمفهومها المحدود الضيق كما يراه البعض و المقتصر على أداء الطقوس و الشعائر ، و المنحصرة فيها .

و فضلاً عن ذلك ، فإن موضوع المرأة و قضيتها في القرآن الكريم ، قد جاءء في غالب الأحيان ضمن نطاق العلاقة الزوجية ، أي بين زوج و زوجة ، كون الزواج متعلق بعقود و مواثيق و اتفاق . و كون الزواج مرتبط بثنائية طرفها الآخر هو الطلاق ، و ما يترتب على ذلك من حقوق مالية و اجتماعية . و نادراً ما نظر القرآن الكريم إلى قضية الرجل و المرأة من حيث الجنس ، أي بمعنى هذا رجل و هذه امرأة ، بل على العكس من ذلك جاء ذكر المرأة بصورة مساوية للرجل و بآيات كثيرة لا يمكن إيرادها جميعاً هنا لكثرة عديدها ، و منها على سبيل المثال لا الحصر :

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ) (النحل:٥٨) لم يذكر امرأة أو ابنة أو بنت أو فتاة ، بل ذكر (أنثى) و هي إشارة واضحة و قوية إلى ذم و استهجان عملية التفريق بين ما هو مذكر و ما هو مؤنث . و بالمنطق فإن استهجان شيء ، يقابله استحسان نقيضه أي استحسان المساواة بين الرجل و المرأة – خلا القوة البدنية – و السبب واضح ، و هو أن كلمة (أنثى) هي الوعاء الشامل المحتوي لكل الألفاظ التالية و مرادفاتها و ما يشتق عنها (امرأة – ابنة – بنت – طفلة – مولودة – شابة – كهلة .. الخ) .

من خلال إعادة دراستي للآيات القرآنية المتعلقة بالمرأة ، رأيت انحيازاً و دعماً لها (حاشا لله الظلم) أي بمعنى تدقيق و تشديد على حقوقها أكثر من الرجل . و كأن الله سبحانه و تعالى ، يعلم أن الرجل قد يستخدم تفوقه البدني لنيل مكاسب إضافية أخرى على حساب المرأة بما قد

يظلمها و يهضم حقوقها (الإنسانية الطبعية) في نواح معينة . و لعل الآية القرآنية التالية (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) (القصص:٢٣) تعبّر عن هذا المدلول بوضوح . حيث تحدثت الآية عن النبي موسى (ع) عند هروبه من فرعون و وصوله إلى قضاء مدين و لقاؤه هناك بفتاتين عند نبع ماء تزاحم عليه الرعاة و هم من الرجال . و لم تستطع الفتاتان أخذ حصتهما من الماء بسبب تزاحم الرعاة على الماء و تدافعهم و احتكاكهم ببعض للوصول إليه بسبب ضعفهما البدني و حرجهما من دخولهما بين الرجال ، بينما أبوهما الذي هو رجل و ينبغي أن يقوم بدوره ، لم يستطع ذلك ، بسبب كبر سنه و ضعفه . فتدخل موسى (ع) مستخدماً قوته البدنية و عدم حرجه من وجوده بين الرجال كونه رجل مثلهم ، و عبئ للفتاتين الماء .

يلاحظ مما سبق ، التصوير القرآني الدقيق لدور كل من الرجل و المرأة المختلفان . و أن القوة البدنية هي ما يميز المرآة عن الرجل . و أن المرأة في قضايا و أمور معينة لا يجوز أن تكون موجودة أو ليس من مهمتها أن تكون موجودة لأنها ستفشل في مهمتها أو ستتعرض لخسائر مادية و اعتبارية معنوية . و لاحظوا أن عبارة (أبونا شيخ كبير) لم تأت عبثاً أو تكن حشواً لا معنى له بل كانت أداة تصويرية على غاية من الأهمية . كذلك عبارة (الرعاء) . فماذا لو دخلت الفتاتان في غمرة الرجال الرعاة البدائيون و قررتا بالقوة أخذ حصتهما من الماء ؟ ما هو الموقف الجسدي و الاعتباري المهين الذي من الممكن أن تتعرضا له غير الاغتصاب ربما أو التحرش الجنسي ؟؟ فاضطرتا للاستعانة بالرجل كيلا تضعا نفسيهما في موقف حرج مخزٍ كهذا . هذا الموقف شبيه بموقف ركوب الباص (الحافلة أو الأوتوبيس). المرأة في حافلة النقل العام المزدحم بالركاب معرضة لهكذا موقف مهين و لن تكون بمنأى عن التحرش الجنسي بطرقه المتعددة و المعروفة . و لهذا يقوم البعض و يجلسها مكانه في المقعد . تأتي من تقول لك أنا لا يهمني الوقوف بالباص إذا كان ذلك سيحرمني من المساواة مع الرجل و مرحباً بالوقوف في الباص . و لو أنها تعلم أن عواقب المساواة مع الرجل هي أبشع من موقف الأتوبيس لما قالت ذلك .

أذكر مرة في أحد المراكز الثقافية أني كنت في حوار مع مجموعة من الشبان و الشابات حول موضع المرآة و حقوقها ، فطرحت أنا بسياق قضية معينة أن أعمال البيتون (الباطون) من الأعمال المجهدة المميزة لعمل الرجل و يصعب على المرأة أن تقوم بها ، فانبرت إحدى الموظفات تجلس خلفي مباشرة و التي كانت تستمع الحديث و صاحت فجأة بطريقة أجفلتني : كلامك غلط يا أستاذ و هذا لا يعيب المرأة و الدليل أنني أنا مستعدة أن أعمل بالباطون . فقلت لها : يا سيدتي رجاءاً .. رجاءاً حاراً أن تعملي بالباطون .. أرجوك و أتوسل إليك أن تعملي بالباطون ، كرماله لـــ الله اشتغلي بالباطون .. الله يلعنه لأبوه اللي ما بيشتغل بالباطون ، أي شو شايفتني جاي أنازعك مهنة الباطون يعني ؟؟!! أنا أعرف رئيس ورشة باطون و أطلب منكِ أن تعملي من الغد ليوم واحد فقط عنده .. تجبلين الأسمنت و ترفعين تنك الباطون و الخشب و الحديد إلى الدور الخامس ، و تقفين بين العمال الأميين الذين من ستة أشهر لم يأكلوا لحم ، و على مرأى من الناس في الشارع . و كرامتك محفوظة .. افعلي هذا فقط ليوم واحد . فتلكأت في مقعدها و قالت : لكن أنا لدي وظيفة هنا و لست مضطرة . فقلت لها : إذن لا داعي لهذا الكلام و المزايدة العقيمة التي لا معنى لها .



بالعودة إلى الآية القرآنية السابقة نرى أن القرآن الكريم قد أورد مشهد تصويري لعدم المساواة بين المرأة و الرجل لجهة القوة البدنية و العضلية فقط . كما أورد مشهد تصويري آخر لتثبيت هذا الأمر في الآية التي جاءت مباشرة بعد حادثة الرعاء ، حين أظهر أن تلك الفتاة الضعيفة عضلياً هي التي كانت صاحبة الرأي و المشورة التي تم تطبيقها ، إذ أنها قالت لأبيها عند قابل موسى (ع) بعد ذلك (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) (القصص:٢٦) مشهد قرآني يظهر أن المرأة هي صاحبة رأي و مشورة (يا أبت استأجره) فرضت رأيها على أبوها . و أبوها قبل به .. و هي أيضاً صاحبة فراسة و رؤية ثاقبة (إن خير من استأجرت القوي الأمين) أدركت بفراستها و حكمتها و ذكاؤها أن موسى قوي و أمين . بينما

عندنا الآن إذا فعلت ذلك .. إذا قابلت رجل غريب و عبأ لها الماء و ذهبت به إلى المترل ، ربما تُقتَل بدواعي الشرف بما يعرف زوراً و بهتاناً بـــ (جرائم الشرف) .

بملاحظة الآية التي تقول (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (الممتحنة:١٢) نرى أن ما طُلب من المرأة كشروط للمبايعة هي ما يطلب من أي إنسان عادي من أمور أخلاقية عالمية متعارف إليها منذ أمد الحضارات الإنسانية البعيد .. لا تسرق .. لا تزني .. لا تقتل .. لا تفتري .. لا تفعل المنكرات . و لم تُحمّل المرأة أي عبئ إضافي آخر يميزها عن الرجل .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً) (النساء:١٩) آية قرآنية واضحة تمام الوضوح جاءت بصيغة الأمر بعدم الاستيلاء على الحقوق المالية للمرأة بالغصب أي استخدام القوة البدنية و العرفية للرجل ضد المرأة و الضغط عليها لاستحصال مكاسب منها لا تريدها هي ، ليس ذلك فقط بل تعدى الأمر إلى ذم الشعور بالكره تجاهها حيال ذلك ، مع أن الكره هو حالة شعور عاطفية من خصوصيات المرء .

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً) (الأحزاب:٥٨) مساواة إنسانية واضحة يضاف عليها عدم الأذية و اعتبار ذلك من البهتان و الذنوب الكبيرة . و كلمة (البهتان) هنا ذات مدلول لغوي واضح أي التجني على المرأة لأمور مزاجية مخالفة للشرائع و القوانين الصريحة الواضحة المعترف عليها . و جعل الهفوات أو الأخطاء الصغيرة ذنوباً كبيرة ، أو مصادرة أخطاءها الخاصة بها و التي تتحمل هي وحدها مسؤولية عواقبها ، و معاقبتها عليها بالقتل أحياناً . فالبهتان هو الافتراء و الباطل الذي يُحتار في أمره فيبدو حقاً .

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى) (الطلاق ٦) ضمان مساواتها الإنسانية مع الرجل بالمكان و المسكن و عدم التضييق عليها ، لا بل واجب النفقة عليها عند الإرضاع و هو جزء من واجب الدولة التي تمنحها إجازة الأمومة مع بقاء مرتبها ساري المفعول ، إلى جانب زوجها الذي مجبر بالإنفاق عليها .. ضمان حتى حقوق الإرضاع التي هي من واجب المرآة تجاه وليدها و ليس زوجها أو المجتمع ، و مع ذلك فالرجل و المجتمع ملزمان بالقيام بالواجب تجاهها ، إذ جاء الأمر بصيغة الجمع . و هذا ما عززته الآية الأخرى التالية (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (البقرة ٢٣٣)

(وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً) (النساء - ٢٢) تحرير المرأة من العبودية و التبعية كون هذا النوع من الزواج العرفي الإجباري الذي كان منتشراً و سائداً قبل الإسلام و في حضارات و أماكن مختلفة ، يجعل من المرأة سلعة و شخصاً فاقد الإرادة و الأهلية .

(وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً) (النساء ١٢٨) ضمان حق الزوجة إذا تعرضت لسوء معاملة من الزوج حتى و إن كانت معنوية اعتبارية و حق لها أن يكون زوجها سليم مهيأ للزواج جسدياً و نفسياً .

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ) (التحريم ١١) أكبر دليل قاطع على أن المرأة كاملة الإيمان تماماً لا ينقص منه شيء و أنها ليس ناقصة دين و إيمان . لا بل ضُرب المثل بها للإيمان للرجال و النساء . فعبارة (للذين آمنوا) تشمل الذكر و الأنثى . و هو أكبر تكريم

للمرأة في القرآن الكريم على الإطلاق ، و هو الذي ذكرنا فيما سبق ذكره (حاشا لله الظلم) أنه تفضيل للمرأة . يقال أن الحيض و الولادة تمنع المرأة عن الصلاة و الصيام و بقية الفرائض ، لذلك فهي ناقصة دين و هذا غير صحيح لأن هذه علة (سبب) فيزيولوجية من طبيعة المرأة و لا علاقة لها به و لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، الله منح المرأة ترخيص عدم أداء الشعائر إذا تقاطعت مع هذه العلل (الأسباب الفيزيولوجية) بينما ناقص الدين هو الشخص القادر على أداء الشعائر و الفرائض و لا يوجد سبب يمنعه من أدائها ، و يقصّر هو عامداً متعمداً في ذلك . و إلا ماذا عن المشلول و الأبكم و المُقعَد و الأعمى المادي و ذوو الأعضاء المبتورة ؟؟ هل كل هؤلاء ناقصوا دين ؟؟؟!!! .. إن ناقص الدين هو الشخص الذي يتعد أوامر الله و نواهيه و حدوده (عدم الكذب – تحريم القتل – تحريم النميمة – تحريم الظلم – عدم النفاق – حرمة السرقة – عدم الغش – عدم الزنا - العمل الصالح – الصدق – العدل ... الخ) التي هي الفرائض الحقيقية ، و من يخالفها و يتعداها هو ناقص الدين ، من ذكر أو أنثى . ثم كيف تكون المرأة ناقصة دين و يضرب الله بها المثل للإيمان ؟؟؟!!! .

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ) (النمل ٣٢ - ٣٣) تصوير لقيادة المرأة للمجتمعات و نظام الدولة و الاعتراف لها بهذا الحق . التصوير الثاني هو قدرة المرأة على اتخاذ قرارات خطيرة مصيرية تتعلق ليس بشخصها فقط ، بل بنظام دولة و مجتمع . ليس ذلك فقط بل تصوير إمكانية خضوع قوة الرجل البدينة و شدته و بأسه لعقل و حكمة المرأة .. بلقيس تستشير قومها و رجالها و تطلب منهم الرأي و المشورة فيجيبونها أنهم الرجال أصحاب الشدة و العزم يتبعون لرأيها و قرارها و حكمتها . و الآية (٣٣) السابقة الثانية ذات معنى و مدلول قوي جداً و يحمل عبارة و دلالات كبيرة ذات مغزى عميق (نحن أولو قوة و بأس شديد .. الأمر إليك .. انظري ماذا تأمرين) دلالات عميقة قوية تدحض و تنفي مقولة أن المرأة ناقصة عقل .

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً) (يوسف ٢١) تفويض الأمر و السلطة و القرار للمرأة في أمور قد تكون من اختصاص الرجل أو اختصاصه و المرأة معاً .

(وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ) (النساء ١٢٧) تفويض أمر المرأة إلى الله تعالى لا إلى البشر . و التفويض في القرآن الكريم يعني أن الله سبحانه و تعالى هو صاحب الحساب و العقاب في الحدود إلا التي شرع للناس تطبيقها و التي تتعلق بالحق العام و حقوق العباد من سرقة و قتل و غيرها . و تشديد على إيفاء الحقوق المالية للمرأة .

(وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً) (النساء ٢٠) تشديد على ضمانة حقوق الزوجة في حال تزوج بعلها زوج أخرى و اعتبار ذلك من البهتان و الإثم الواضح الكبير .

(وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ...) (النساء ٤) .

(فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ...) (النساء ٢٤) حُصِرت المتعة فقط بالرجل مع أن العلاقة و الوصال بين الرجل و المرأة ، تحصل فيها الممتعة للطرفين . و الواجب المادي يقع على الطرفين . و مع ذلك يعتبر القرآن الكريم أن المرأة هي التي قدمت شيء منها و خسرت شيء من جسدها و تستحق تعويضاً ، حتى و لو كانت المتعة بالتراضي بينهما .

الجانب الآخر الذي ركز عليه القرآن الكريم هو قضية المساواة الإنسانية بين المرأة و الرجل ، و هي كثير عديدها و منها على سبيل المثال لا الحصر : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ...) (النساء ١) .

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ) (الأنعام ٩٨)

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ...) (الأعراف ١٨٩) .

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الروم ٢١) .

(مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) (لقمان ٢٨) .

(وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ...) (النساء ٣٢) .

ذاك كان التساوي لجهة التركيب الفيزيولوجي و الجسدي و الأساس أو المصدر الخَلقي الواحد للذكر و الأنثى ، بمعزل عن القوة الجسدية و الفروق العضلية



. لكن هنالك تساوٍ آخر ، هو التساوي في الحقوق و الواجبات و العواقب المتفرعة عن ذلك ، أي بما معناه ، التساوي القانوني ، لا فرق بين رجل و امرأة أو ذكر و أنثى . و الآيات التالية تعطي دلالة واضحة على المساواة القانونية بين الرجل و المرأة في العواقب الجزائية للأفعال و التصرفات و المساواة في الدين أمام الله و هي دعوة إلهية واضحة لتطبيق هذه المساواة في المجتمع و القانون الوضعي .

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ...) (آل عمران ١٩٥) .

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَـدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً) (النساء ١٢٤) .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل ٩٧) .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات ١٣) .

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) (التوبة ٧١) إشارة واضحة إلى دور المرأة و حقها و صلاحيتها و مساواتها مع الرجل في التوجيه و النصح و الإرشاد و حتى التشريع . يتضح ذلك من عبارة (بعضهم أولياء بعض) أي جواز تبادل الأفعال السابقة من رجل لامرأة و امرأة لرجل .

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) (غافر ٤٠) المساواة التامة في الدين ، و دحض لمفهوم نقص الإيمان .

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) (النور ٢) .

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا) (المائدة ٣٨) التساوي بالعقوبات بين الرجل و المرأة . و جاء التفصيل الدقيق للعقوبات كيلا يحصل تفريق بتطبيق العقوبة ما بين الرجل و المرأة . و هو ما يحصل الآن فيما ما يسمى زوراً و بهتاناً بـــ (جرائم الشرف) فإذا كان الحكم الإلهي للزنا يطال الاثنين ، الذكر و الأنثى ، فيلزم أن الجريمة المزعومة (جريمة الشرف) أن تطال الشريك الآخر أيضاً ، هذا إذا افترضنا جدلاً و مجازاً شرعية ذلك النوع من الجرائم و هو ما ليس له أساس من الصحة و الوجود في القرآن و الشريعة .

(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) (آل عمران ٦١) مشاركة المرأة في القرارات المصيرية الهامة و الخطيرة و القبول بها إلهياً كطرف مشارك معتمد ، حتى تلك التي يدخل فيها الأمر الإلهي كطرف .

(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) (المجادلة ١) آية ذات دلالة قوية جداً في قضية مظلومية المرأة ، و صورة تدخل الله مباشرة .

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَ الْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ) (النور ٦ - ٩) هذه الآية تعطي الدلالة الواضحة القوية على المساواة القانونية بين الرجل و المرأة حتى في الشهادة ، أي شهادة المرأة تعادل شهادة الرجل في الأمور التي تخصها . و بالمقياس بين الآية التي تقول (وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) (البقرة ٢٨٢) نرى أن الشهادة هنا قد جاءت فيما هو غير متعلق بالمرأة ، أي أن المرأة هنا تشهد في أمور لا تخصها مباشرة و لا تمسها شخصياً . فهي هنا شاهد لقضية لا تتعلق بها . و معادلة امرأتان لرجل لا تتعلق بتاتاً بنقص عقل المرأة أو أنها معرضة للنسيان ، فإذا كان الأمر كذلك فإن المرأة الثانية هي أيضاً ناقصة عقل و معرضة للنسيان ، حتى و لو كانوا مائة امرأة فإنهن معرضات للنسيان . لكن القضية بنظري هي أن القرآن الكريم قد وضع احتمال أن المرأة ربما قد تكون معرضة للضغط إليها من قبل رجل ما ، زوجها أو أخوها أو شخص ما ، فتكون الثانية غير معرضة لهكذا موقف فتذكر الأخرى . و جاءت العبارة (تضل إحداهما) و لم يقل (تنسى إحداهما) و الضلال هو بفعل عامل خارجي عادة .

(إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى) (آل عمران ٣٥ - ٣٦) صورة المرأة تخاطب الله سبحانه و تعالى و تدعوه و يستجيب الله لها ، تماماً كما يفعل الأنبياء و الرجال .

(وَ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ قالَتْ يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَ أَنَا

عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً إنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجيد) (هود ٦٩ – ٧٣)

(هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ فَراغَ إلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إلَيْهِمْ قالَ أَلا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها وَ قالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) (الذاريات ٢٣ – ٣٠) مشهد قرآني تصويري يبين دخول المرأة في النقاش و الجدال و مشاركتها الحوار في القضايا الإلهية المتعلقة بها و قبولها كطرف محاور و اعتبار ذلك كحق من حقوقها . لاحظوا كيف تَقَبَّل ملائكة الله المرسلين المكرمين و رسله القادمون في مهمة جليلة خطيرة إلى إبراهيم ، تقبّلوا دخول امرأة عليهم (فأقبلت امرأته) و بلّغوها موافقة الرب الحكيم العليم لرأيها (كذلك قال ربك أنه هو الحكيم العليم) .

في حوار لي مع إحدى النساء المتحمسات لقضية المرأة و حقوقها قالت لي : إن الشريعة الإسلامية فيها تهميش لحقوق المرأة و حريتها و جعلها تابعة للرجل و أنا أرى أنه فيما يتعلق بالمرأة ، يجب عدم اعتماد نصوص الشريعة الإسلامية في الزمن الحاضر . فقلت لها : يا سيدتي إنك بذلك تكونين قد أسديتي أكبر خدمة لنا نحن الرجال ، لأنك لو تدركين معنى كلامك هذا ، لتشبثتي بالشريعة الإسلامية الحقيقية ، لأن الآيات القرآنية قد جاءت لصالح المرأة . و في الأمور البدنية العضلية الشاقة ذات الخطورة المادية و الاعتبارية و المعنوية ، فَرَضَت على الرجل القوامة في تحمل هذه الأمور . قالت لي : و لكن ماذا لو أردت أنا أن أتحمل تلك الأخطار ؟ أنا حرة و من حقي إذا أردت ، أن أتحمل تلك الأخطار و لا أحد يمنعني . قلت لها : أهلاً و سهلاً و أنا أرحب بذلك و أرجوك متوسلاً أن تفعلي ذلك لأنك بكل بساطة تزيحين عن كاهلي التعب و المشقة .. عندما تُفرض

خدمة العلم على المرأة كما الرجل ، يخف الضغط على الرجل . و عندما يكون عدد الرجال مساو لعدد النساء في الدولة تصبح فرصة الرجال أكثر للعمل (حيث أننا ندخل الآن إلى دوائر الدولة فلا نرى إلا النساء) و إن كنتِ معلمة مدرسة و تزوجت و أصبحت حاملاً ثم وضعت مولودك ، لا يحق لك إجازة أمومة من باب مساواتك مع الرجل ، أو من باب هذه المساواة نفسها يحق للعامل الذكر بإجازة أبوبة إذا أتاه ولد . قالت لي : و لكن أنا أرضع و لدي وضع خاص . أجبتها : إذن أنت تعترفين أن لك وضع خاص ؟ يعني اختلاف ؟ يعني فروق فيزيولوجية ؟ يعني لا مساواة ؟ و هو الشيء الذي أعطاك إياه القرآن الكريم ، و هو الشيء الذي تريدين أنت رفضه الآن و تريدين حرية الاختيار في تحمل الأخطار و المسؤوليات . أنت الآن حامل فهل أنت مستعدة عند الولادة أن تمارسي حريتك و جرأتك و ترفضين إجازة الأمومة و تكملي مهمتك الإنسانية النبيلة في تعليمك للأطفال المحتاجين لك ؟؟ قالت : أنا من حقي كامرأة أن آخذ إجازة أمومة . فقلت لها : أنت الآن هربت من المساواة إلى الحقوق .. تبنيت قضية المساواة ، و عندما أُحرجت و وجدت نفسك في مأزق ، قفزت إلى قضية الحقوق .. عندما تقولين (من حقي كامرأة) .. مجرد لفظك لعبارة (من حقي كامرأة) هذا ينفي أو يعفي قضية مساواتك مع الرجل التي تعني أموراً كثيرة .. تعني أن لا يكون لك مهر و لا مقدم أو مؤخر عند زواجك لأنك أصبحت متساوية مع الرجل . و يصبح الزواج هنا على عاتق الطرفين ، الطرفين يتحملان هنا تكاليف بين الزوجية و الأثاث و العفش كما يقال و غيرها . لأنك تخليت عن خصوصيتك و حقوقك كامرأة . مساواتك في كل شيء تعني تخليك عن حقوقك كامرأة .

إن الكلام السابق الذكر يقودنا إلى قضية ذات إشكالية كبرى هي قضية (حقوق المرأة) و هو بنظري مفهوم غامض و ملتبس فأنا شخصياً ضد ما يسمى (حقوق المرأة) . لأنه بنظري أن المرأة ليس لها حقوق خارج الإطار الإنساني العام و خارج الفروق الفيزيولوجية بينها و بين الرجل . و أحياناً تكون قضية (حقوق المرأة) أداة للحط من المرأة و تصغير شأنها و المزايدة إليها أو حتى سوقها إلى مأرب و أمور لا علاقة لها بالمرأة .

بنظري أن كلمة حقوق ، تعطى عادة للأشخاص الضعفاء أو المعاقين أو ذوي الاحتياجات الخاصة ، بسبب كون هؤلاء لهم ظروف و أوضاع خاصة طبعية بديهية مألوفة و متعارف عليها و لا تمثل

استثناءات شاذة متفرقة .. زمنية أم عرفية أم اجتماعية ، بل هي قواعد عمومية شاملة طبعية . و أنا شخصياً أنزه المرأة عن مثل هكذا أوضاع . فالحقوق تعطى لأشخاص لهم أوضاع معينة ، و المرأة بنظري ليس هذا الكائن الضعيف الناقص حتى يكون له حقوق . و الملاحظ في المجتمعات الغربية مثلاً في بعض الأمكنة وجود أشارات معينة لأشخاص معينين .. مثلاً رأيت في بعض المسارح معبر للحضور و عليه لافتة تشير إلى أنه مخصص لذوي الاحتياجات الخاصة . أو لافتات في أماكن أخرى تشير إلى أمكنة مخصصة للأطفال . و نادراً ما توجد لافتات مخصصة للمرأة .. إلا في الأمكنة التي تحتاج فيها أن مميزة عن الرجل لدواع اعتبارية خاصة . كدورات المياه مثلاً حيث توجد لافتات مخصصة للنساء و أخرى للرجال . و خلا ذلك لا توجد مثل هكذا أمور أو إشارات . فهل المرأة كائن ناقص أو مشلول حتى نجأر و نطالب لها في كل شاردة و واردة بحقوقها ؟؟!! .

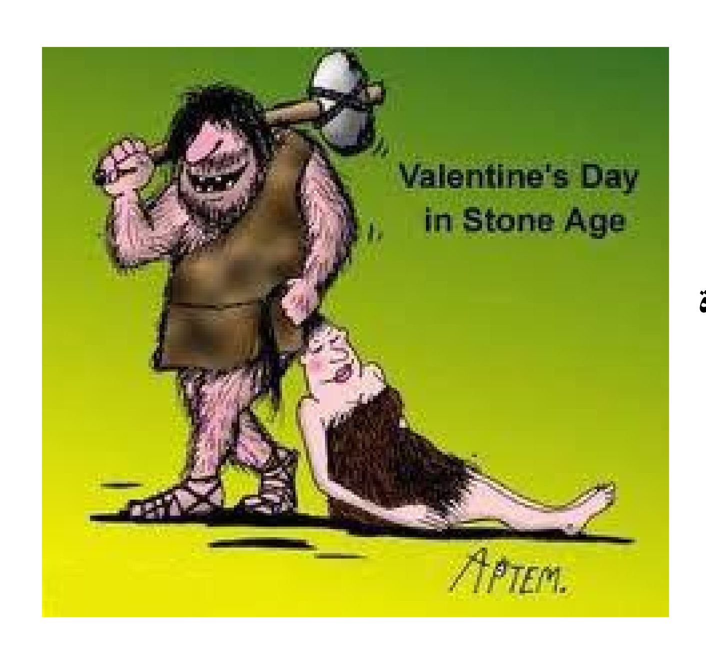
أنا أفهم أن يكون هنالك حقوق للطفل مثلاً لأن الطفل كائن ضعيف و عاجز و غير مكتمل العقل و التفكير ، و هو بالعرف القانوني و حتى الديني يسمى (القاصر) و لا يعرف مصلحته و معرض للأخطار و الظلم أكثر من غيره . و لهذا فهو من حقه أن يكون له حقوق و أن يكون له اتفاقيات تضمن له هذه الحقوق كاتفاقية الطفل المعروفة . كذلك الأمر ما يسمى بالمعاقين و ذوي الاحتياجات الخاصة ، هؤلاء جميعهم من الطبيعي أن يكون لهم حقوق خاصة بهم ، و يتوجب أن يكون لهم حقوق كونه لديهم نقص معين في حيز معين بالمقارنة مع الغير . و المرأة ليست كائن فاقد الأهلية ناقص الإدراك و الشعور ، حتى نطالب لها بحقوق .. ليست كائن عاجز مشلول لا يعرف مصلحته ، حتى نركّب لأجله و نفبرك له حقوق براقة مصطنعة .. بل هي كائن إنساني عاقل واع اعتبره القرآن الكريم عضو عامل و فعال و مساو للرجل و لا يختلف عنه إلا لجهة القوة العضلية البدنية و جعلت له حقوق محدودة محددة فقط في هذه النقطة بالذات كي لا يصيبه غبن أو ظلم . إنها حقوق طبعية بديهية تمثل مسلمات عقلية منطقية ، لا يمكن للمخالف المعارض حرمان المرأة منها ، و لا المؤيد المفرط المزايدة عليها و إضافة حقوق أخرى لا حاجة للمرأة بها ، و استغلالها و جعلها أداة للتكسب و موجة للركوب ، فهي حقوق لا تُسلب و لا تُوهب لأنها بالأساس موجودة و كامنة في المرأة و ملازمة لها و متلازمة معها ، اعترف بها القرآن الكريم و

اعترفت بها الأديان الأخرى السابقة و اعترفت بها قوانين الحضارات القديمة السالفة و اعتبرتها ليست حقوق ، بل أمور و مسلمات لا يمكن لأي عاقل تجاهلها . و أنا لا اعتبر هذه حقوق بقدر ما أعتبرها خصوصيات من خصوصية الولادة و ما يتبعها من حاجات خاصة ، إلى خصوصية الإرضاع .. إلى خصوصية الضعف البدني .. إلى خصوصية ترقق العظام بعد سن اليأس .. إلى خصوصية الدورة الشهرية .. إلى خصوصية الأمراض التي لا تصيب إلا النساء فقط كسرطان الثدي مثلاً .. إلى .. إلى ما هنالك من خصوصيات يلاحظ أن أكثرها فيزيولوجي عضوي . لاحظوا في القرآن الكريم أنه حيث وجدت المساواة الإنسانية انتفت الحقوق بالنسبة للمرأة ، و حيث وجدت الحقوق انتفت المساواة البدنية و العضلية و الاعتبارية . و لاحظوا في القرآن الكريم أن الحديث عن الاختلاف بين الذكر و الأنثى جاء في الفترة التي تقع ما بين مرحلة البلوغ إلى مرحلة الكهولة حيث تتبدى فقط الفروق الفيزيولوجية العضوية بين الجنسين ، و خلا هذه الفترة لم تذكر الفروق ، بل حتى المسميات جاءت عامة شاملة في معظمها (أبناءكم – اليتامى – أولادكم – يرضعن أولادهن – لن تغني عنهم أموالهم و لا أولادهم – قد خسر الذين قتلوا أولادهم – إنما أموالكم و أولادكم فتنة – المال و البنون زينة الحياة الدنيا – الذين آمنوا و اتبعتهم ذريتهم بإيمان – أصابه الكبر و له ذرية ضعفاء – ذرية بعضها من بعض – هب لي من لدنك ذرية طيبة .. الخ) .

السوآل الذي يُطرح هنا و قد ُطرح علي فعلاً ، هو ماذا حول المظالم التي تعاني منها المرأة و الحرمان الذي تتعرض له ؟؟ أقول أن ما يسمى بحقوق المرأة هو الحقوق الآنفة الذكر التي يجب أن تنحصر بها كامرأة و المتعلقة بطبيعتها و وظائفها الفيزيولوجية البدنية . و ما خلا ذلك ليس لها حقوق بمعنى أن خارج هذا الإطار ليس هنالك حقوق امرأة بل حقوق إنسان و المظالم التي تتعرض لها ضمن هذا المجال هي مظالم إنسانية تتعلق بما يسمى حقوق الإنسان فلا يجب أن نقول مثلاً من حق المرأة أن تتعلم ، لأن ذلك فيه إهانة لكيان و شخص المرأة و لأنه يفترض في طياته و حيثياته دوافع خفية بأن المرأة ربما في مجالات معينة و ظروف ما ، ليس بالضرورة أن تتعلم . كذلك الأمر بالنسبة لضرب المرأة و إيذاؤها جسدياً تخرج أصوات تركز على هذه القضية و تحصرها بالمرأة بطريقة تجعل من المرأة كائناً أقل مرتبة و كذلك الأمر تخفي في طياتها دوافع خفية بأن المرأة يجب

أحياناً أن تُضرب . بل يجب طرح هكذا قضايا لكونها مظالم إنسانية أخلاقية ضد الإنسان . و هنا بهذه النقطة بالذات يجب أن تُطرح مساواة المرأة مع الرجل و كما يتم التعامل مع الرجل يجب أن يتم التعامل مع المرأة تماماً ، و ما يقع على الرجل ، يقع على المرأة فكلاهما من نفس واحدة هذا هو تفسير (النفس الواحدة) الواردة في القرآن الكريم .

عندما يتم الكلام و التكرار دائماً عن حق المرأة في العمل و حقها في تدبير شؤونها الخاصة و حقها في كذا و كذا و حصر ذلك في المرأة لأنها امرأة .. هذا يعني خلق شعور خفي أو منطقية خفية (إذا جازت التسمية) بوصاية مخفية على المرأة . و هذا الأخطاء يقع فيها البعض من المدافعين و المنافحين عن المرأة .



المرأة لا يجب أن تُضرب أو تُظلم أو تمنع من العمل و تدبير شؤونها الخاصة .. ليس لأنها امرأة ، بل لأنها إنسان .. لأنها كائن بشري معادل و مساوٍ للرجل ، فهما من نفس واحدة لها الخواص ذاتها و الطبيعة ذاتها . لكن الفرق أن هنالك أنفس نزلت في أجساد ذات طبيعة أنثوية و أخرى في أجساد ذات طبيعة ذكرية .

من ناحية أخرى فإنه من المتعارف عليه أن مفهوم الحقوق كمصطلح و تعريف ، يقتضي وجود بنود ثابتة محددة تعرّف تلك الحقوق و تدل عليها . فأية حقوق مهما كانت سياسية أم اجتماعية أم عرفية أم دينية أم اقتصادية تتألف دائماً من بنود (آ – ب - جـــ - د .. الخ) مثلاً . و هذا معناه أن الشخص أو الجهة التي لها حقوق ضمن هذه البنود ، ليس لها أية حقوق خارج (أ – ب – جـــ - د ... الخ) و حقوقها تنحصر حتماً في دائرة تلك البنود و تنتهي بمجرد خروجها منها لتدخل في نطاق حقوق أخرى أو في نطاق الواجبات عليها .. يعني أن الحقوق خارج نطاق بنودها ، هي إما ليست حقوق أو واجبات تجاه الغير يجب تنفيذها أو على الأقل احترامها .

في الواقع إن واحد من جملة الأسباب التي دفعتني لكتابة هذا المقال ، هو حادثة حصلت معي .. كنت على موعد مع أحد الأشخاص للذهاب سوية للقيام بواجب اجتماعي . و عندما وصلت إلى منزله و دخلت ، لاحظت أن الجو مكفهر و متوتر بينه و بين زوجته ، فلم ألق بالاً للموضوع و لزمت الصمت ريثما يرتدي صديقي ثيابه للخروج . و بينما أنا في الصالون ، تناهت إلى مسامعي أصوات صراخ بينه بين زوجته في الداخل و بعد قليل دخل الرجل إلى الصالون متوتراً و تبعته زوجته . نظر إلي و قال : يا رجل إنها تريد أن تذهب مع صديقاتها في رحلة إلى تركيا تستغرق أياماً عدة و أنا لدي ضغط هذه الفترة في العمل و لا أعود إلى المنزل إلا في السادسة مساء . و لدينا طفلين صغيرين أكبرهم عمره سبع سنوات . و قد طلبت منها مراراً و تكراراً تأجيل الرحلة إلى وقت آخر لأنه لا يوجد لدينا من يتكفل بالأولاد و لا نستطيع تركهم في المنزل لوحدهم . و هي مصرة على السفر . فقلت للمرأة : ممكن أن تؤجلي على الأقل رحلتك إلى وقت آخر ريثما ينتهي زوجك من ضغط العمل . فقالت : لا أستطيع لأن هذا برنامج سياحي محدد من قبل الشركة السياحية و قد اتفقنا في العمل مع زملائي و لا يمكن تأجيل الموعد لأنه ليس بيدي ، ثم أنه من حقي كامرأة أن أسافر . قلت لها : و الله بعرف أنه من حقك كامرأة أن تسافري . لكن ماذا عن أولادك ؟؟ من سيهتم بهم ؟؟!! . قالت : هو .. هو رجل و مسؤول عن تربية الأطفال كما أنا مسؤولة عن تربيتهم . فنظرت إليه مستفسراً الرد :فقال لي : يا صديقي أنا الآن في ضغط عمل مفروض علينا فرضاً .. و أنا عضو في لجنة لمراجعة حسابات و أوراق تخص الشركة التي أعمل بها و الإجازات ممنوعة علينا منعاً باتاً لمدة أسبوعين حتى ننتهي من الجرد و تدقيق الأوراق . أنا أعود إلى البيت في السادسة مساء منهكاً تعباً و أذهب إلى الفراش لاستيقظ في السادسة صباحاً من اليوم التالي . و قد اقترحت عليها حلاً أن نذهب في الصيف معاً نحن و الأولاد برحلة إلى تركياً و هذا وعد مني أمامك . نظرت إلى المرأة و قلت لها : مدام .. أعتقد أن المشكلة قد أصبحت محلولة . نظرت إلي و قالت : لا .. أنا أريد أن أذهب مع زملائي بعيداً عن همّ الأولاد و هذه فرصة لا تتكرر . ليس أنتم الرجال فقط من يحق لكم السفر لوحدكم . سألتها باستغراب : و لكن يا مدام ما دخل موضوع الرجال و جنسهم بالموضوع ؟؟!! أنتم في قضية أن أولادكم معرضين للأخطار و لكذا موقف و موقف .. دار نقاش بسيط بيني و بينها و كان كل

كلامها حول .. من حقي كامرأة .. . أنتم الرجال و أنتم الرجال . فقطع علينا الجدال زوجها الذي قال : أنا لن أسمح لك بالذهاب أبداً .. نحن في ظرف لا يسمح لك بالذهاب . فقالت له بسرعة و على الفور : إذا دعنا نتطلق . هنا أنا لم أعد أستطيع التحمل فقلت لأبنهما الذي كان حاضراً يستمع إلينا : عمو .. طالما الشغلة وصلت إلى الحقوق و صار فيها حقوق .. غداً اذهب إلى قسم الشرطة و قدم بلاغ بأن أمك مسافرة إلى تركيا لمدة أربعة أيام و أبوك لا



يعود للمنزل إلا في السادسة مساء . و أنت بموجب اتفاقية حقوق الطفل بحاجة لمن يرعاك ، و تطالب بحق الحماية و الرعاية . فصرخت المرأة صرخة مدوية مرعبة و قالت : لا اسمح لك بالتدخل و إذا سمحت احترم نفسك .. إذا سمحت أنا غير مستعد الآن لاستقبال أحد في البيت . نظرت إلى صديقي و قلت له : أنا في المقهى المجاور .. سلام يا صاحبي .

خرجت من المنزل متوتراً بعض الشيء و ذهبت إلى المقهى ، طلبت قهوة و أشعلت سيجارة و أخذت أفكر في قضية الحقوق و مشكلة الحقوق عندنا في العالم العربي . بعد قليل جاء الزوج كان متوتراً جداً و كان من الواضح أن معركة حصلت بعد خروجي . جلس و قال لي : هل تعرف أنه بعد خروجك أخذت تنعتك بأقذع الألفاظ . فقط لأنك قلت للصغير أن يذهب إلى الشرطة و ذكرت اتفاقية حقوق الطفل ، بالمناسبة هل هذا البند موجود فعلاً ؟؟. بالرغم من توتري لم أستطع منع نفسي من الضحك و قلت له : لا و حق ربك ما بعرف ، لأني شلفته شلف و كان قصدي أن أخفف الأمر و لكن هذه النقطة بالذات وضحت لي أموراً كثيرة كنت أجهلها .. وضحت لي أننا أناس لا نعرف الحقوق و لا نقدرها و نرعاها و لا ننظر إلى إلا حقوقنا فقط حيث نصبح حملان وديعة تظهر المسكنة و الضعف و تتشدق بالديمقراطية ، و عندما يتعلق الأمر بحقوق غيرنا نتحول إلى ديكتاتوريين و جلادين و وحوش تخرج لنا أنياب و مخالب .

بعد أربعة أيام التقيت بالشخص نفسه و سألته عن الموضوع و ماذا حصل . فقال لي : و الله يا عمي سافرت . سألته فوراً : و ماذا عن الأطفال ؟؟؟؟ نظر إلي بحسرة و قال : اضطررت أن آخذ

الصغيرة ذات الثلاث سنوات معي إلى العمل . ثم أخطف نفسي في الظهيرة و أحضر طفلي بعد خروجه من المدرسة إلى العمل .. هذا هو أفضل حل توصلت إليه . صمت قليلاً ثم أخذ يتمتم بضيق : راحت .. و الله يا عمي راحت .. راحت .

نظرت إليه و أخذت أغني لعاصي الحلاني : راحت و شو بيضل غير الهمّ ، من بعد مايروح الفرح و العيد ، و يسافر الزهر الخلِق للشم ، و يصير كل العمر عني بعيد . ثم انفجرت ضاحكاً .

من أمثلة ما سبق من الظلم الذي يحيق بالمرأة ، ما يسمى أو يعرف بـــ (جرائم الشرف) و هي ظاهرة كانت موجودة من قبل ، لكن تم تسليط الضوء عليها الآن من قبل الهيئات و المنظمات الاجتماعية و الإنسانية . في محاولة لاستئصالها و إزالتها ، كونها تمثل أقصى حالات الظلم الذي يحيق بالمرأة و ممارسة شاذة منحطة تعرضت لها المرأة في الماضي و تتعرض لها الآن في الوقت الحاضر . و الانحطاط الذي يتمثل في ما يسمى زوراً و بهتاناً (جرائم الشرف) هو القتل العمد المخطط و المنظم لنفس إنسانية بريئة مظلومة و إزهاق الروح لسبب قد يكون أحياناً شرعي و لا يخالف لا القانون و لا الدين ، بل على العكس من ذلك معترف به من الجهتين .. القانونية و الدينية (كالزواج الشرعي الرسمي) و يتبع في هذا النوع من الجرائم أحياناً أقصى أساليب الغش و النفاق و التمثيل ، حيث يوهم القاتل الذكر الضحية الأنثى بأنه لا تثريب عليها و لا يوجد أي ضغينة اتجاهها حتى تطمئن له ، ثم يقوم بقتلها غيلة و بدم بارد . أما الشذوذ الذي يتمثل في هذا النوع من الجرائم ، فهو أن (جرائم الشرف) لا علاقة لها باسمها بتاتاً ، لا من قريب و لا من بعيد ، و تحظى بتغطية صامتة من المجتمع الذي تحصل فيه و لا تعتبر جرائم . و ربما يكون اسمها المزعوم هو السبب في ذلك ، أو أحد المسببات . فالقائمون إليها و المنفذون لها يدعون الشرف فيها زوراً و بهتاناً ، و المعارضون لها يسمونها (جرائم شرف) مغالطة و تسرعاً . فيكونون من حيث لا يدرون قد أضفوا إليها شرعية صامتة و قبول خفي من المجتمع على مبدأ المثل الشعبي القائل (جاء ليكحلها فعماها) . و حتى نوضح مغالطة التسمية لا بد من التعريف الحقيقي (لجرائم الشرف) .

إن مفهوم جريمة الشرف تاريخياً هو بالأساس ليس جريمة بمعنى الجريمة و إنما هو إزهاق النفس أو القتل لأجل الشرف ، ولكن قتل من ؟؟؟ إنه قتل النفس ، أي أن يقوم المرتكب لجريمة الشرف بقتل نفسه بسبب أن شرفه قد مسه الأذى أو تعرض لفضيحة ما مست بشرفه .. فهي نوع من الانتحار و هي فعلاً جريمة لأن الشخص عملياً ، يجرم بحق نفسه و لا يتعرض للغير بسوء . و هذا النوع من الجرائم أو القتل كان و لا يزال شائعاً عبر التاريخ . فكثيراً ما قرأنا عن قائد عسكري يقتل نفسه بعد هزيمته في معركة معتبراً أن شرفه العسكري يقتضي ذلك . أو شخصية معينة تطلق النار على نفسها عند خسارتها لقضية ما أمام خصومها أو فضيحة تلوث سمعتها . و هذا الأمر كان معروفاً و منتشراً عند محاربي الساموراي على سبيل المثال .. هذه هي جرائم الشرف الحقيقية .



أما أن تأتي فتاة و تتزوج على سنة الله و رسوله و بشكل قانوني و تسجل عقد زواجها بالدولة نظامياً بمهر معلوم و تسكن و زوجها بيت الزوجية و يكوّنان أسرة هادئة مستقرة ، ثم يأتي أبوها أو أخوها و يقتلها لأجل الشرف لأنها لم تأخذ رأيه أو لأن العريس لم يعجبه أو لأنها لم تتزوج بالشخص المفروض إليها فرضاً من قبل أهلها . فهذه و الله .. هزلت . و يأتي بعد ذلك شخص ناقد ليصف هذه الجريمة بأنها جريمة شرف !! فهذا ما لا يصح . يأتي شخص و يقول : أوقفوا جرائم الشرف .. يا سيدي هذه ليس جرائم شرف و لا علاقة لها بالشرف و الشرف منها براء قبل الدين و الشريعة و القرآن أو الكتب المقدسة .

نعم .. أنا ممكن أن أقبل تسمية هذه الجرائم بجرائم الشرف إذا أقدم والد هذه الفتاة أو أخوها مثلاً على قتل نفسه هو بدلاً عنها غسلاً لعاره و شرفه المزعومين . فالشرف لمن لا يعلم ، هو حالة متعلقة بالشخص نفسه و بذاته و لا علاقة لغيره بها . و هو ملزم بفعال المرء ذاته لا فعال و خلاق غيره (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ) (الإسراء ١٣) .

و حسب المفهوم القرآني ، فإن الحريص على شرفه و دينه و يدعي أنه ممثل الله على الأرض ، ينبغي له أن يقاصص نفسه أولاً (إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الجمعة ٦) . إذن فلماذا يقتل هؤلاء و يدعون الشرف في القتل ؟؟ أو بالأحرى ما هي الخلفية الفكرية لهؤلاء في دعواهم تلك و هم كلهم أو بعضهم يعلم تمام العلم أن الدين يحرم هذه الجرائم ؟؟ .

إن التفسير الوحيد لهذه الجرائم ، هو أن هؤلاء لا يعتبرون المرأة كائن بشري بل هي متاع و رقيق و هي من فئة العبيد . لإن الحالة الوحيدة في تاريخ البشرية كله و التي أباحت قانونياً .. أو فسرت قتل شخص بداعي الشرف ، هي العبودية ، فالعبد في التاريخ إذا قام بفعل شائن أو مهين أو خارج عن حدود الأخلاق و الأدب ، كان يحق لسيده أو مالكه قتله ، باعتبار أن حياته ليست ملكه بل ملك لسيده ، و ليس له دية ، و يكفي تسويغ أي مبرر لتغطية جريمة قتله و قبولها في المجتمع ، فما يميز العبد عن الحر ، أن حياته ليست ملكه و المجتمع لا يلق بالاً لإزهاق روحه . يضاف إلى ذلك أن أقصى الحالات سوءاً في حالات الإخلال بالآداب ، هي الخيانة الزوجية من أحد الطرفين و هي أشد من حالة الأعزب . و قد ذكر القرآن الكريم هذه الحالة و لم يذكر معها القتل لأجل الشرف بل فوض عاقبتها إلى الله و كانت الناس هنا نساء أنبياء و هم من الذين يفترض بهم جدلاً تطبيق العقوبة ومع هذا لم تذكر العقوبة الفورية بدليل الآية التي تقول (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) (التحريم ١٠) . فكيف بفتاة تقتل لأنها نظرت إلى شاب أو تكلمت معه أو تزوجت شرعاً دون رضا أهلها ، و من يقتلها ليس نبي ، بل إنسان عادي ربما يرتكب الموبقات أكثر منها ؟؟!! .

إن الجرائم المزعوم أنها (جرائم شرف) و التي لا علاقة لها بالشرف ، و الشرف منها براء . هي بنظري جرائم قتل من الدرجة الأولى و ليس لها مبرر و لا يجوز أن يكون لها أي مبرر . و بعض الذين يناهضون هذه الجرائم ، يقعون أحياناً في فخ التبرير لها دون أن يقصدوا ذلك . تقرأ في الصحف عنوان مثل .. قتل أخته لأنها تزوجت أو قتل ابنته لأنها تكلمت مع ابن الجيران ... الخ . إن عبارة (قتل لأن) هي خلق مبرر وهمي افتراضي تخفيفي عن صاحب الفعل الجرمي . و إنني

أدعو و أتمنى على جميع الهيئات و المنظمات التي تدافع عن هذه القضية ، أن تلغي اسم (جرائم الشرف) من توصيف مثل هكذا جرائم و استبدالها بأي اسم آخر .. مثلاً جرائم قتل المرأة .. جرائم القتل بلا سبب .. أو جرائم القتل العنصرية .. نعم هذه جرائم قتل عنصرية طالما تقتل المرأة و يترك الفاعل الذكر . انتقوا أي تسمية أو تصيف غير (جرائم الشرف) .



تقرأ في الصحف عن أب يقتل ابنته لأنه وجد في حقيبتها وردة من زميلها في المدرسة أو أخ يقتل شقيقته لأنها تزوجت على سنة الله و رسوله من شاب ترضاه و يرضاها . ثم نفاجئ بالعنوان الصحفي المهين المعيب . القتل لأجل أمور تتعلق بالشرف و النزاهة أو القتل لأسباب تمس الشرف و العفة .. أهو شرف ؟؟؟!! و أهو عفة ؟؟؟

كلمة أخيرة .. تمنوا الموت إن كنتم صادقين

الحكام و المدربين العرب

نشر هذا المقال بتاريخ ٢٠١١/١/٢٣ قبل ثلاثة أيام من بدء التظاهرات المصرية و التي انتهت بتنحي الرئيس حسني مبارك .



درجت العادة في مجتمعات العالم السادس – عفواً الثالث - أنه بعد أية حادثة أو عند كل مأزق و مشكلة تنتج عنها كارثة أو خطأ فادح أو إشكال ، أن تشخص الأنظار و تتجه أصابع الاتهام إلى العنصر الهرمي الأعلى الموجود في دائرة الحادثة الخطأ بغض النظر عن مسؤوليته عن الخطأ أم عدمها . و تتم المطالبة بالإطاحة بهذا الشخص الذي يكون هو كبش الفداء عادة بغض النظر كما قلنا عما إذا كان هو المسبب المباشر أم لا . و تختلف القضية هنا عما هو الحال في بلدان العالم الأول حيث أنه عندما تتبدى مشكلة عصية أو تحل كارثة خطيرة أو أخطاء كبيرة ينتج عنها نتائج سلبية أو خسائر معينة ، يتم و الحالة هذه اعتماد مبدأ تقصي الحقائق وفق منهج حيادي عقلاني غايته مجرد تتبع الخطأ و الوصول إلى أسبابه و مقدماته الحقيقة و التي أدت إلى وقوعه ، تمهيداً إلى تلافيه في المستقبل ، بغض النظر عن أية عوامل أو اعتبارات غرائزية عاطفية أو اجتماعية أو دينية أو سياسية أو عشائرية أو أياً كانت ، حيث يتم فصل الأخطاء الفردية عن الأخطاء الإدارية .. و عند تحديد مواطن الخطأ والخلل و اكتشاف أسبابهما ، يتم الإشارة إليها و إلى الشخص المسؤول

عنها دونما اعتبار لمركزه و مقامه و دونما أية انفعالات عاطفية غوغائية أو غرائزية . بينما يختلف الأمر في بلدان العالم الثالث و منها البلدان العربية حيث تلعب العاطفة و الغزيرة دوراً كبيراً في الحكم على أية قضية أو إشكال أو حادث ما ، مهما بلغت درجته ، سواء من بساطة أم فظاعة . و يتم الاتجاه فوراً إلى الحكومة و تحميلها المسؤولية دونما تتبع الأسباب و المسببات الحقيقية .

إن اعتماد منهج النقد العشوائي الغوغائي الغريزي بأقصى حالاته ، في مجتمعات العالم الثالث و خصوصاً من القواعد الشعبية و فئات العوام . له تأثير سيء أيما تأثير و ضرر بالغ أيما ضرر على المجتمع و الناس و الممتلكات و الأرزاق و الأرواح حيث يصل إلى مستوى يخرج به عن حالاته و أهدافه الأولية و التي هي قد تكون خاطئة من الأساس أو مبالغ فيها أو ملعوب بها ، كما حدث مثلاً في اليونان فيما مضى من سنتين حين نشبت أعمال شغب أكلت الأخضر و اليابس لأجل فتى قتل برصاص قوات الأمن ، علماً و حسبما قيل أن دورية شرطة تعرضت للرشق بالحجارة من قبل بعض المتظاهرين فأطلق أحد الشرطيين النار مما أدى إلى مقتل الفتى . و قد تم تجميد الشرطيين كما ابتدأ التحقيق في أسباب الحادث و أصدر وزير الداخلية اليوناني بياناً قال فيه " إن التنديد يجب أن يوجد و المواطنون لهم كل الحق في الدفاع عن أفكارهم و مبادئهم و لكن دعوني أوضح أن هذا لا يكون بتدمير ممتلكات الناس و لا بالتعدي على الأشخاص الذين لم يرتكبوا أي ذنب " .



و مع هذا قامت مظاهرات غاضبة حاشدة منددة بالحادثة ، و صاحب المظاهرات أعمال شغب بحرق مئات السيارات و إشعال النيران في عدد من واجهات البنوك و تكسير واجهات المحال التجارية كما امتدت أعمال الشغب إلى مدن أخرى و قامت عمليات سلب و نهب و تخريب و قتل لأنفس و إزهاق لأرواح و استمرت المظاهرات و لم تنته إلا بعد أسابيع . فراح نتيجة لذلك أناس و أشخاص أبرياء لا علاقة لهم بالغلام المقتول و لا بالشرطة و ليس لهم في كل ما حصل ناقة

و لا جمل . فسُرقت أموالهم و نُهبت ممتلكاتهم و زُهقت أرواحهم . و المثير في ذلك كله أن هنالك أحزاب سياسية مناوئة للحكومة قد تبنت قضية الغلام المقتول و تسببت بحوادث الشغب و التخريب بتحريضها الجمهور على الحكومة حيث لا علاقة لها أيضاً لا بالقاتل و لا بالقتيل .

أيضاً نجد مثال ذلك ما حصل في تونس من مظاهرات و أعمال شغب و عنف كان السبب فيها أن شاب قد أضرم النار في نفسه نتيجة للوضع المالي الصعب الذي يمر به و نتيجة للتعدي عليه من قبل شرطية قامت بتحطيم عربة الخضار خاصته و هي مصدر رزقه الوحيد و في رواية أخرى ، موظفة في دار البلدية صفعته بعد ملاسنة كلامية عندما ذهب ليسترد عربة الخضار خاصته فشعر بإهانة شديدة و ظلم كبير فقام بإحراق نفسه (يعني ليست القضية قضية بن علي أساساً) و الشاب هو خريج جامعي لم يجد عملاً بعد تخرجه من الجامعة .

أولاً : بالنسبة إلى الشاب فأنا قد تضامنت معه تماماً و أعتبرته صاحب حق ، لا جدال في ذلك .

ثانياً : لست في معرض الدفاع عن الرئيس زين العابدين بن علي و لا انتقاده و المؤكد أنه كان هنالك خطأ بعيداً من قبل الحكومة و بالتحديد جهة معينة ، و خطأً قريباً مباشراً تمثل بشخص تلك الشرطية التي حطمت له عربة الخضار أو الموظفة التي صفعته . أما الخطأ العام فيتمثل بالبطالة الموجودة و التي تشمل فئة الشباب الجامعي أو المتعلم . إذن فالمشكلة هي اقتصادية - اجتماعية لا علاقة لها بالسياسة ، و هكذا مشاكل أو قضايا تكون عادة متعلقة بالمجتمع و حصراً بالنخب الاقتصادية و الاجتماعية و الدينية أكثر منها النخب السياسية . و ما جرى في تونس كان من الواضح أنه انحرف انحرافاً كبيراً عن مسار الشاب ، حيث بدأت أعمال عنف شبيهة تقريباً إن لم يكن تماماً بما حصل في اليونان لجهة رد الفعل و ليس لجهة الأسباب .. قتل – حرق – تكسير – تخريب للممتلكات العامة و الخاصة و إزهاق أرواح أناس أبرياء . و فجأة يتحول الرئيس السابق زين العابدين بن علي إلى مجرم و ديكتاتور وإرهابي وسفاح .. إلى ما هنالك (أكرر القول بأنني لست في وارد الدفاع عن .. أو الهجوم على شخص الرئيس السابق من تخطئة أو تصويب بقدر تقييم الحالة) و الملفت للنظر أنه فجأة و دونما سابق إنذار يتحول الرئيس

السابق إلى هذه الصفات السابقة ، ليس من داخل تونس بل من خارجها و هنا بيت القصيد ، هنا مربط الفرس .

فجأة بلا مقدمات يصبح (بن علي) العدو رقم واحد لوسائط الإعلام العربية من صحف و قنوات فضائية و محطات إذاعية و تنهال التهنئة من كل حدب و صوب على تونس .. الاتحاد الأوروبي يوقف و يجمد أرصدته و أرصدة أعوانه و أفراد حزبه . أين كان كل هؤلاء قبل يوم واحد من ترك بن علي للسلطة أين كان هؤلاء الشياطين الخرَّسْ المنافقين ؟؟. العمى .. حتى في الاسكيمو صاروا يشتمون بن علي !!! أنا لا أعرف بن علي و نادراً ما كنت أسمع عنه شيء في الصحف و المجلات و القنوات الفضائية و ليس لي علاقة به لا من قريب و لا من بعيد و لم يخطر على بالي يوماً . و لكن بعد ما حصل و شاهدناه و سمعناه أقول أن نتائج الأحداث التي حصلت في تونس لا علاقة لها بالمقدمات التي حصلت قبلها علماً ان (بن علي) في النهاية استجاب للضغوط الشعبية الغاضبة و تنحى عن السلطة ، فكان من المفترض أن تتوقف الأمور عند هذا الحد ، لكنها حتى هذه اللحظة لم تتوقف .

بناء على ماذا يوقف الاتحاد الأوروبي أرصدة الرئيس بن علي و أعوانه ؟؟!! لماذا لم يوقفها من قبل ؟؟!! لماذا يخرج رجل دين لا علاقة له بتونس و لم يذكر تونس أو (بن علي) في يوم من الأيام ، فيتهجم على (بن علي) و ينعته بالجلاد و الديكتاتور و المجرم و يبارك للشعب التونسي ثورته ، و يمدح قبل مدة في حلقة تلفزيونية أحد الحكام في أحد العصور الإسلامية السالفة و الذي كان مشهوراً بسفكه للدماء و قتله الناس على الشبهة و الذي تسبب بمجازر دموية لا تعد و قمع ثورات شعبية خرجت عليه بسبب فسقه و فجوره . و عندما مات أحصي لديه آلاف الجواري و الإماء و العبيد و الأرقاء ؟؟!! لماذا ؟؟؟!! أهذا ديكتاتور ، و ذاك ليس ديكتاتور لماذا ؟؟!! لماذا ؟؟!! لماذا تثور الشعوب على الحاكم دائماً و لا تثور على التجار و بعض رجال الدين ؟؟!! أليس هؤلاء يتحملون وزر المشاكل الاقتصادية و الاجتماعية .. غلاء الأسعار معروف دائماً بسبب التجار و لا دخل للحكومة به . عندما تزيد الحكومة عندنا الرواتب و الأجور ، يسارع التجار فوراً إلى رفع الأسعار بمعدل أعلى من الرواتب ، فلماذا ؟؟!! و الشعب يتجه فوراً إلى شتم

الحكومة و الدولة بدل التجار ، فلماذا ؟؟!! أين رجال الدين من هؤلاء المجرمين أين الشعب من هؤلاء ؟؟؟ و أين هؤلاء من هؤلاء ؟؟.

من إحدى الممارسات الخاطئة المضلِّلة و التي نسوقها كمثال على التصرف اللاواعي في رد الفعل واتخاذ القرار في العالم العربي هي إقالة المدربين في مباريات كرة القدم ، فحالما يخسر فريق ما اللعبة تتم إقالة المدرب فوراً دون مراجعة أو تدقيق في الأسباب الحقيقية المتمثلة في الأخطاء الفردية لأحد أفراد الفريق أو أكثر .. أو على الأقل تخرج المطالبة بإقالته فوراً . وهذه حالة شائعة في الوطن العربي بشكل مألوف . منذ فترة شاهدت مباراة كرة القدم بين المنتخب السوري و المنتخب الأردني (علماً أنني لست من هواة متابعة هذه الرياضة) و كانت النتيجة (٢/١) لصالح المنتخب الأردني و فوراً بعد ذلك خرجت الأصوات من البعض تطالب بإقالة المدرب و استقالة اتحاد كرة القدم السوري ، علماً أن الأخطاء كانت فردية و لا علاقة للمدرب بها ، الأخطاء كانت من حارس المرمى للمنتخب السوري الذي كان يترك مرماه دائماً و قد تلقى إنذار من الحكم في المرة الأولى لتركه مرماه و في الثانية كرر الخطأ و خرج أيضاً بتوقيت خاطئ دونما داعٍ لذلك فتسبب بدخول هدف .. و الهدف الآخر كانت نتيجة لخطأ لاعب دفاع . فما هو ذنب المدرب أو اتحاد الكرة في ذلك ؟؟ و ما علاقته بشيء هو ليس مسؤول عنه ؟؟ فوراً خرجت الأصوات للإطاحة برأس المدرب و اتحاد الكرة فلماذا ؟؟!! لماذا ؟؟!! . في الغرب عندما يخسر الفريق عدة مباريات ، لا يقيلون المدرب إذا كان الأخطاء فردية و يفعلون ذلك إذا كانت الخسارة بسبب الخطة الموضوعة للفريق .

هنالك أيضاً إشكالية خاطئة مضلِّلة عندنا في العالم العربي و هي التبجح والتشدق بالديمقراطية الغربية و التهليل لمحاسبة الحكام و المسؤولين في الدول الغربية عند أصغر خطأ أو هفوة أو التبجح باستقالة المسؤول الغربي عند ارتكابه خطأ معين أو حصول خطأ ما في دائرة نطاق عمله حتى و لو لم يكون هو المسؤول المباشر عنه .

هل تعرف يا حضرة جناب المواطن العربي لماذا هذا الأمر يحصل عندهم و لا يحصل عندنا ؟؟ ليس لأن الديمقراطية موجودة عندهم و غير موجودة عندنا .. علماً أن هذا الكلام في قسم من جزئياته صحيح ، و لكن ليس هو السبب .. السبب هو أنه عند حدوث أية مشكلة يتعرض فيها المجتمع لأذى ما أو ظاهرة فساد ما أو خطأ حكومي ، فإن المواطن الأوربي لا يتحمل ذلك أبداً و لا علاقتة له به لا من قريب و لا من بعيد و لا يد له في ذلك و هو ليس المسؤول عنه و السبب بسيط جداً و هو إن المواطن الأوروبي أو الأمريكي أو الياباني أو الصيني هو مواطن صالح يحترم قوانين دولته و يطبقها بحذافيرها و لا يخالفها من مبدأ إيمانه بوطنه من مبدأ إيمانه بمقولة (حب الوطن من الإيمان) و ليس حب الطائفة الكريه أو حب المذهب البغيض أو حب العشيرة المقيت .. المواطن الغربي عنده إيمان و دين لكن ليس عنده تعصب ، عنده طائفة دينية و لكن ليس عنده طائفية ، عنده مذاهب دينية لكن ليس عنده مذهبية .. المواطن الغربي مواطن صادق مع نفسه و مع الغير لا يكذب على نفسه و لا على الغير .. المواطن الغربي لا يعرف النفاق .. المواطن الغربي لا يسرق لا يرتشي و لا يسيء للممتلكات العامة .. و يحرص على بقاء بلده نظيفاً خالياً من الأوساخ و القاذورات .. المواطن الغربي هو إنسان مثقف عقلاني مخترع منتج للصناعات .. المواطن الغربي لا يهمه المنصب الرسمي و لا الكرسي ، و المنصب بالنسبة إليه ، هو وظيفة خدمية لها أعباؤها و تعبها و لذلك يهرب منها . منذ سنتين أو أكثر قرأت في الشريط الإخباري لأحدى الفضائيات عن إعلان في هولندا (على ما أظن) عن شغور لمنصب عمدة المدينة (يعني المحافظ) و لا يوجد من يتقدم له فاضطرت الدولة للإعلان في الصحف عمن يتقدم له لأنه لا أحد يهمه ذلك و لا أحد يقبل بذلك لأن المنصب عندهم تعب و همّ و خدمة للناس و ليس مصدر غنى و سرقة و نهب . و بالتدقيق في هذه النقطة بالذات علمت أن الكثير من وظائف الدولة يتهرب منها المواطنون في الغرب (و منها مقاعد البرلمان التي تقتصر عادة على الأحزاب السياسية) بينما المواطن عندنا يدفع الملايين لشغل منصب أو وظيفة حكومية أو عضو في البرلمان و تحدث معارك بالأيدي و السكاكين و يذهب ضحيتها العديد من الناس لأجل مقعد في مجلس الشعب .. شيء مضحك .. عجيب .. غريب .. يدفع عشرات الملايين لكي يخدم الناس بمجلس الشعب ؟؟؟؟!!!!! يشتبك مع منافسيه بمعارك بلطجة دامية فقط ليخدم أفراد شعبه بمجلس الشعب

؟؟؟؟!!!! يا عمي ما هذه الفضيلة الغربية العجيبة التي لم تحدث في التاريخ يوماً إلا عندنا نحن العرب ؟؟؟!!! لهذه الأسباب كلها من حق المواطن الغربي أن يحاسب حكامه لأنه بالأساس هو يتبع للسياسة الاجتماعية و الخارجية و القوانين الداخلية التي يضعها رؤساؤه و يمشي عليها و لا يخالفها فشيء طبيعي أن لا يُحاسب و لا يتحمل المسؤولية . لأنه أساساً يطبق سياسة لا يتدخل بها و لا يضعها .. المواطن الغربي يقرأ في السنة (حسب الإحصائيات الرسمية) ثلاث أو أربع كتب على الأقل .

نرى في البرامج الوثائقية أنه عندما تتحطم طائرة ما كيف يبدأ فريق عمل متخصص و من مختلف المجالات و الألوان ، عملية بحث و تدقيق و تحقيق و تحري لاكتشاف سبب الحادث ، و خلال هذا الفترة لا يتم تحميل اللوم لأحد أو اتهام أحد حتى انتهاء التحقيق الذي يكون تحقيقاً علمياً عقلانياً بحتاً مجرداً من العاطفة و الغوغائية . طائرة ركاب تتحطم بالجو و تتناثر قطعها في أربع دول أوروبية و تبدأ عملية بحث مضنية لجمع القطع من أراضي الدول كافة قد تستمر سنوات و يعاد تركيب الهيكل من جديد ، كله أو معظم أجزائه و يتم التحليل بالأجهزة الالكترونية و كاميرات التصوير و إفادات السكان و الشهود و الكثير الكثير من المعطيات و الأدلة حتى يتم تحديد السبب الرئيس و من ثم يلقى اللوم على المسبب .

شاهدت برنامجاً وثائقياً عن مكوك فضائي ينفجر بالفضاء الخارجي أثناء عودته إلى الأرض و تتناثر قطعه فوق قارات و محيطات عدة فتبدأ عملية بحث مضنية لجمع حطامه ، تتضافر فيها كل الجهود السياسية و الحكومية و الشعبية و الاجتماعية و العلمية حتى يتم بالنهاية جمع قطعه و تركيبه في عملية (يا عالم يا بشر) مثل الكذب و الخيال حتى تم التوصل إلى السبب الرئيس و هو خدش صغير تسببت به قطعة معدن متطايرة ضرب نقطة ضعيفة من سيراميك سطح المكوك أثناء إقلاعه إلى الفضاء ، و عند عودته إلى الأرض و احتكاكه بالغلاف الجوي و ارتفاع حرارته بشكل هائل أدى إلى تسرب الحرارة من ذلك الخدش الصغير البسيط إلى داخل المكوك ما أدى إلى انفجاره .. هذا غيض من فيض من فياضٍ كُثر .

هذه العملية أو الطريقة العلمية العقلانية المنطقية موجودة بالقرآن الكريم قبل أن يطبقها الغرب و لكن هَجْرَنا لكتاب الله عز و جل أعمانا عنها . عرّف القرآن الكريم هذه العملية بـــ (اتباع السبب) أي تتبع السبب للوصول إلى الحقيقة و النتيجة المنطقية الصحيحة . وردت هذه القاعدة المنطقية في سورة الكهف عن ذو القرنين الذي هو حسب بعض التفاسير (الاسكندر المقدوني الأكبر)

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) (الكهف ٨٣ – ٩٢) .

لاحظوا عبارة (آتيناه من كل شيء سبباً فاتبع سبباً) لاحظوا المنهج العلمي العقلاني ، منهج البحث و التقصي ، منهج الاستدلال و الاستنتاج . و لاحظوا تكرار عبارة (ثم اتبع سبباً) في كل مرة يحصل فيها تطور معين . ما يمكن استنتاجه من الآيات السابقة هو أن إمبراطورية الاسكندر المقدوني و الحضارة السياسية العسكرية الفكرية التي قامت عليها و التي أنشأها بين جميع الممالك و الدول و الحضارات المختلفة اللغات و الألسن و الأعراق بما فيها أقوى حضارات البشرية آنذاك اليونانية و الفارسية و بلاد الرافدين و الحضارة المصرية و غيرهم من دول و شعوب ، قد قامت على مبدأ التقصي العلمي العقلاني و مبدأ اتباع السبب .

هكذا مجتمع حق له أن يحاسب حكامه و مسئوليه على أخطائهم و حق له أن يثور لأنه بالأساس هو مجتمع ديمقراطي قبل حكامه لأن المواطن هو ديمقراطي يقبل بأخيه المواطن من المذهب الآخر و العرق الآخر و الحزب الآخر و العقيدة الأخرى و اللون الآخر في ظل الانتماء الوطني قبل أن يكون حكامه كذلك . أما المجتمع الذي يكون فيه المواطن طائفي مذهبي عشائري تافه بغيض منافق يدعي الوطنية و هو يتمنى من كل قلبه قيام دويلته الطائفية أو المذهبية و ربما العشائرية (

إذا استطاع) على قياسه .. مواطن يكره أخيه المواطن كره العمى ، فقط لأنه على خلاف دينه أو عقيدته أو مذهبه أو عشيرته أو حزبه السياسي ثم ينافق ختالاً و رياء بالوطنية و الديمقراطية .. مواطن لا يطبق قوانين دولته و لا مراسيمها و يحتال عليها إذا استطاع .. مواطن يسرق و يرتشي و يخرب و ينهب و يختلس .. يسرق الماء يسرق الكهرباء .. مواطن يكره النظافة و يرمي بالأوساخ و القاذورات أمام بيته و في الشارع ، لا يردعه في ذلك رادع .. لا ضمير و لا قانون و لا رقيب و لا حسيب .. مواطن تبني له الدولة منشآت عامة و حدائق و جسور و غيرها فيقوم بتخريبها و الإساءة إليها .. مواطن تبني له الدولة مراكز ثقافية و مكتبات عملاقة ضخمة فلا يدخلها بحجة الوضع المادي الصعب و هو يعلم أنه كذاب منافق في ذلك لأنه يشتري كل ما يمثل الرفاهية الزائفة لغريزته و جهله و يدفع فيها المبالغ الطائلة و يبذل لأجلها الغالي و النفيس .. مواطن حسب المتوسط الحسابي للإحصائيات الرسمية المعتمدة يقرأ في السنة ربع صفحة .. تصوروا .. ربع صفحة .. يا عيب الشوم بس .. مواطن و خلال تاريخه كله لم يقدم للحضارة البشرية و لا اختراع واحد منذ ألف سنة و إلى الآن .. مواطن غير قادر أن يصنع شيء لا سيارة و لا طائرة و لا آلة و هاتف و لا تلفاز و لا حتى قلم أو ممحاة و لا حتى خرم إبرة أو خِطام بعير . و رجاء لا تقولوا الدولة .. الدولة لا علاقة لها بذلك .. هذا المواطن لا يحق له الانتقاد و اللوم لأنه بالأساس لا يحترم مواطنته لأنه بالأساس يعتبر مفهوم الوطن كفر و تجديف و زندقة و خروج عن الدين .

كل ما دق الكوز بالجرة .. نَسبّ الحكام العرب و ننتقد الحكام العرب و نحمل الحكام العرب كل الأخطاء و الأوزار .. أنا قد لا أعفي الحكام العرب من المسؤولية و لكن لا أحملهم وحدهم إياها و لا أحملهم ما فوق طاقتهم و أعفي غيرهم من المسؤولية .. المجتمع و نظام الدولة لا يقومان على الحاكم وحده فقط بل على التجار و رجال الدين و الطوائف و العشائر و الأحزاب و الهيئات الاجتماعية و المنظمات الشعبية و الحرفية و غيرهم من متسلمي مواقع اجتماعية أو روحية أو اعتبارية ، فلماذا نستثني كل هؤلاء ونلقي باللائمة على الحاكم فقط في ظاهرة مثل ظاهرة الخوارج حينما رفعوا شعار (لا حكم إلا لله) فأجابهم الإمام علي بن أبي طالب بقوله (نعم .. لكنه كلام حق يراد به باطل) و ردّ عليهم بمقولته الشهيرة القاطعة (لا بد لهذه الأمة من

إمام بر أو فاجر) و إلا كانت الفوضى .. الفوضى و الخراب اللذان يحصلان عند كل عملية خلع للحاكم العربي و ثورة عليه و يأكلان الأخضر و اليابس و يذهب الضحايا و الأبرياء و هو ما يحصل و ما نراه الآن .. الفوضى التي يستغلها اللص لإشهار اللصوصية .. و السارق للسرقة و النهب .. و الجاهل الهمجي لتفريغ كبت طال انتظاره من تكسير و تحطيم .. و القاتل للقتل .. و المجرم لتنفيذ الجريمة . تماماً عندما يخسر فريق لكرة القدم تخرج جماهيره في أحداث شغب خارج الملعب ، تحطم و تكسر و تحرق و أحياناً تقتل . هذا من ذاك .. هذه القرعة من ذاك الرأس . إن المبرر و السبب الذي تخرج فيه جماهير كرة القدم للشغب و التحطيم و التكسير و الحرق و القتل بع خسارة فريقها لمباراة في كرة القدم ، هو نفسه السبب الذي تخرج فيه للعصيان و الثورة . لا بل هو الجمهور ذاته .

يقع حادث طائرة في إحدى الدول الإفريقية لشركة طيران أجنبية و يصادف وجود ركاب لدولة عربية يقضوا في الحادث ، فتثور ثائرة شعب تلك الدولة فوراً و باللاشعور يشتمون و يسبون حكومتهم و يحملوها السبب و يطالبون بإسقاطها مع أنه لا علاقة لها لا من قريب و لا من بعيد بالحادثة و لا ناقة لها فيها و لا جمل . لا الطائرة طائرة أبوها و لا الطيار طيار أبوها و لا المطار مطار أبوها و لا المكان مكان أبوها . فسبحان الذي أنطق الحجر . تسقط طائرة ركاب تابعة لخطوط جوية أوروبية بالبحر فيقوم أهالي الضحايا بإلقاء أكاليل الزهور و الورود فوق مكان الحادث لقناعتهم بأنه لا يمكن انتشال الجثث و إيمانه بقضاء الله و قدره و ينتهي الأمر عند هذا الحد إلى جانب التحقيقات التي تبدأ لمعرفة السبب . بينما عندنا تسقط طائرة ركاب أجنبية فوق البحر و بها ركاب من كل الجنسيات فلا تثور إلا ثائرة أهالي الضحايا العرب على حكومتهم لإنها لم تستطع أو لا تعرف كيف تنتشل الضحايا من البحر و يبدأ السباب و النقد و الشتيمة ، فلماذا ؟؟؟؟!!!! لماذا ؟؟!!! .

إن قضية إسقاط الحاكم لأسباب تافهة أو أسباب قاهرة لا علاقة له فيها أو لأسباب شخصية طمعاً بالوصول إلى السلطة ، و قضية أن يكون الجمهور و الأتباع السبب الرئيس ، موجودة في التاريخ القديم و العربي و بشواهد و حوادث كثيرة نسوق منها كمثال قضية الخوارج أنفسهم عندما خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب في حربه مع معاوية بن أبي سفيان في قضية التحكيم

المشهورة و يعرفها الكثيرون (سوف سنتناول قضية التحكيم فقط من زاوية عسكرية وسياسية بحتة و لن ندخل في باب الخطأ و الصواب للأطراف المتحاربة) .

إن مالا يعرفه الكثيرون عن قضية التحكيم هو أن علي بن أبي طالب رفض التحكيم جملة و تفصيلاً عند رفع المصاحف على أسنّة الرماح ، ليس ذلك فقط بل أُجبر عليه من قبل بعض أتباعه و منهم الخوارج أنفسهم و هُدِدَ بالقتل إن لم يقبل بالتحكيم . و بعد أن حصل ما حصل في التحكيم انشق الخوارج عنه و رموه بالكفر . و عندما جاءه اثنان من كبرائهم هما حرقوص بن زهير السعدي و زرعة بن البرج الطائي ، دخلا عليه و قالا له : لا حكم إلا لله. قال الإمام علي : لا حكم إلا لله . فقال له حرقوص : تُبْ من خطيئتك، و ارجع عن قضيّتك، و اخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا. فقال لهم علي : قد أردتكم على ذلك فعصيتموني، و قد كتبنا بيننا و بينهم كتاباً، و شرطنا شروطاً، و أعطينا عليها عهودنا و مواثيقنا، و قد قال الله عز و جل (وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَ لا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ) .

فقال حرقوص: ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه. فقال الإمام علي : ما هو ذنب، و لكنّه عجز من الرأي فيكم و ضعف من الفعل منكم ، و قد تقدّمت إليكم في ما كان منه، و نهيتكم عنه. فقال له حرقوص : أما و الله لئن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله، قاتلتك أطلب بذلك وجه الله و رضوانه. فقال له علي : بؤساً لك ما أشقاك كأني بك قتيلاً تسفي عليك الريح.

و في مناظرة له مع ابن الكواء و هو من زعماء الخوارج عندما طلب منه معاودة قتال أهل الشام ، قال له الإمام علي : ألا تعلمون أن هؤلاء القوم لما رفعوا المصاحف قلت لكم: إن هذه مكيدة و وهن ؟؟ و لو أنهم قصدوا إلى حكم المصاحف لأتوني أنا ، و سألوني أنا التحكيم ؟؟ أفتعلمون أن أحداً أُكره على التحكيم مني ؟ قالوا : صدقت. قال : فهل تعلمون إنكم استكرهتموني على ذلك حتى أجبتكم، فاشرطت أن حكمهما نافذ ما حكما بحكم الله، فمتى خالفاه فأنا و أنتم من ذلك براء، و أنتم تعلمون أن حكم الله لا يعدوني ؟ فقال ابن الكواء: صدقت . فقال علي : فأجبتكم كارهاً و لو وجدت في ذلك الوقت أعوانا غيركم لما أجبتكم، و شرطت على الحكمين

بحضوركم. أن يحكما بما أنزل الله من فاتحته إلى خاتمته. و السنة الجامعة، و إنهما إن لم يفعلا فلا طاعة لهما عليّ ، أكان ذلك أم لم يكن ؟؟ قال ابن الكواء : بلى و الله صدقت، كان هذا كله و حكّمت في دين الله برأينا نحن و ليس برأيك ، و نحن مقرون بأنا كفرنا و لكننا الآن تائبون فاقرر بمثل ما أقررنا به، و تب و ارجع الآن إلى حرب القوم و انهض ننهض معك إلى الشام . قال الإمام علي : كلا حتى تنقضي المدة التي بيننا و بينهم .

و من كلام له قاله لأبن مسهر الطائي و كان من الخوارج ، عندما صاح به بحيث يسمعه : لا حكم إلا لله . فرد عليه : اسكت قبحك الله يا أَثْرَمُ .. فو الله لقد ظهر الحق فَكُنْتَ فِيهِ ضَئِيل الشخوص خَفِيّ الصوت حتى إذا نَعَرَ الباطل نَجَمْتَ فيه نُجُومَ قَرن الماعز .

إن قضية شبهة الخروج على الحكام و الأمراء لأغراض و غايات ليس من منطلق رد الظلم و الحيف و درء الجور و العسف ، هي قضية معروفة من قبل للقادة و الحكام منذ القدم فهذا أزدشير احد أمراء الفرس يقول لبنيه و الملوك من بعده : رشاد الوالي خير للرعية من خصب الزمان ، و لا بد للدين من حارس فأما ما لا حارس له فضائع و ما لا أس له فمهدوم .. إنّ أخوف ما أخاف عليكم ، مبادرة السفلة إيّاكم إلى دراسة الدين و تأويله و التفقّه فيه، فتحملكم الثقة بقوة الملك على التهاون بهم، فتحدث في الدّين رياسات منتشرات سراً فيمن قد وتّرتم و جفوتم، و حرمتم، و أخفتم، و صغّرتم من سفلة الناس و الرعية و حشو العامة، ثم لا تنشب تلك الرئاسات أن تحدث خرقاً في الملك و وهناً في الدولة و اعلموا أنّ سلطانكم على أجساد الرعية لا على قلوبها، و إن غلبتم الناس على ما في أيديهم فلا تغلبوهم على ما في قلوبهم و آرائهم و مكايدهم. و اعلموا أنّ العاقل المحروم سالّ عليكم لسانه و هو أقطع سيفيه، و إنّ أشدّ ما يضرّ بكم من لسانه على ما صرف الحيلة فيه إلى الدّين، فكان للدنيا يحتج و للدين فيما يظهر يتعصب، فيكون للدين بكاؤه و إليه دعاؤه، ثم هو أوحد للتابعين و المصدّقين و المناصحين و المؤازرين، لأنّ تعصّب الناس موكّل بالملوك، و رحمتهم و محبّتهم موكّلة بالضعفاء المغلوبين، فاحذروا هذا المعنى كلّ الحذر. و اعلموا انّه ليس ينبغي للملك أن يعرّف للعبّاد و النّسّاك بأن يكونوا أولى بالدين منه و لا أحدب عليه و لا أغضب له، و لا ينبغي أن يخلي النسّاك و العبّاد من الأمر و النهي في نسكهم و دينهم، فإنّ خروج النسّاك و غيرهم من الأمر و النهي عيب على الملوك و على المملكة

و ثلمة بيّنة الضرر على الملك و على من بعده . و اعلموا أنّ كثيرا من وزراء الملوك من يحاول استبقاء دولته و أيامه بإيقاع الاضطراب و الخبط في أطراف مملكته ليحتاج الملك إلى رأيه و تدبيره ، فإذا عرفتم هذا من وزير من وزرائكم فاعزلوه فإنّه يدخل الوهن و النقص على الملك و الرعية لصلاح حال نفسه و لا تقوم نفسه بهذه النفوس كلّها.

و اعلموا أنّ بدء ذهاب الدولة ينشأ من قبل إهمال الرعيّة بغير أشغال معروفة و لا أعمال معلومة، فإذا نشأ الفراغ تولّد منه النظر في الأمور و الفكر في الفروع و الأصول، فإذا نظروا في ذلك نظروا فيه بطباع مختلفة فتختلف بهم المذاهب و يتولد من اختلاف مذاهبهم تعاديهم و تضاغنهم، و هم مع اختلافهم هذا متفقون و مجتمعون على بغض الملوك، فكل صنف منهم إنّما يجري إلى فجيعة الملك بملكه، و لكنّهم لا يجدون سلّما إلى ذلك أوثق من الدّين و الناموس، ثم يتولّد من تعاديهم أنّ الملك لا يستطيع أن يجمعهم على هوى واحد، فان انفرد باختصاص بعضهم صار عدوّ بقيتهم .. و اعلموا أن من طباع العامة استثقال الولاة و ملالهم و النفاسة عليهم و الحسد لهم، و في الرعية المحروم و المضروب و المقام عليه الحدود، و يتولّد من كثرتهم مع عداوتهم أن يجبن الملك عن الإقدام عليهم، فإنّ في إقدام الملك على الرعية كلّها كافة تغريراً بملكه، و يتولّد من جبن الملوك عن الرعية استعجالهم و هم أقوى عدو له و أخلقه بالنظر لأنّه حاضر مع الملك في دار ملكه .

ختاماً : إني لا أبرّئ الحكام من كل شيء و لكنني و الله لن أعجل عليهم في كل شيء . و إنني و الله ضد الظلم ، و لكنني و الله ضد النفاق . و لو خيرت بين عسف الحاكم و نفاق البعض لاخترت والله عسف الحاكم .. و إن هَرجْ و مَرجْ الرعاع عند كل شاردة و واردة لهو الفوضى و الشر المستطير الذي عند وقوعه يصبح عسف الحاكم أمنية كل متمنٍ و حلم كل حالم ، و ما نراه من خراب اليوم أمام ناظرنا و مسمعنا لهو عبرة لكل معتبر و عظة لكل متعظ .. أيتها الشعوب العربية يا!!!!!!! جماهير أمتنا الغراء و فحولها الشماء . هذا الوقت الذي فيه تنفصل الأراضي و تتقطع الأجزاء و تتفتت الدولة و تظهر الدويلات ، ليس

وقت لوم الحكام و الخروج عليهم و ليس وراء ذلك إلا الفوضى و التقسيم و التشرذم و الخراب و لتبكوِّن والله بكاء الثكلى على وليدها و الفجيع على فجيعته و لتذرفّن دموع النجيع و تتمنون لو تردَّن كَرّة أخرى و عودة أخرى فلا عودة و لا رجوع . و اعلموا أن الحاكم الآن في زمن الفضائيات و زمن حقوق الإنسان و زمن الهيئات الدولية و المنظمات العالمية و حقوق الإنسان و زمن الإعلام الحر و زمن التظاهر ، لهو قمة الديمقراطية أمام الحاكم السالف لعصركم و أوانكم و السابق لزمانكم حيث لا كلام و لا نقد و حيث كان السابق ظل الله في أرضه و حيث القتل على الشبهة و حيث لا تظاهرات و لا نقد و لا رد إلا و يقابلها السيف . و اعلموا أن الحاكم قديماً لم يكن ليركب ناقته (على اعتبار لا يوجد طائرات) و يرحل عند أول مظاهرة كما هو الآن ، بل كان يُعْمِل السيف مؤيداً بفتاوى من يتمنى الآن عودته من جديد باسم الديمقراطية .

و الله من وراء القصد

التعصب[1]

من كتابي الزمن العربي الرديء

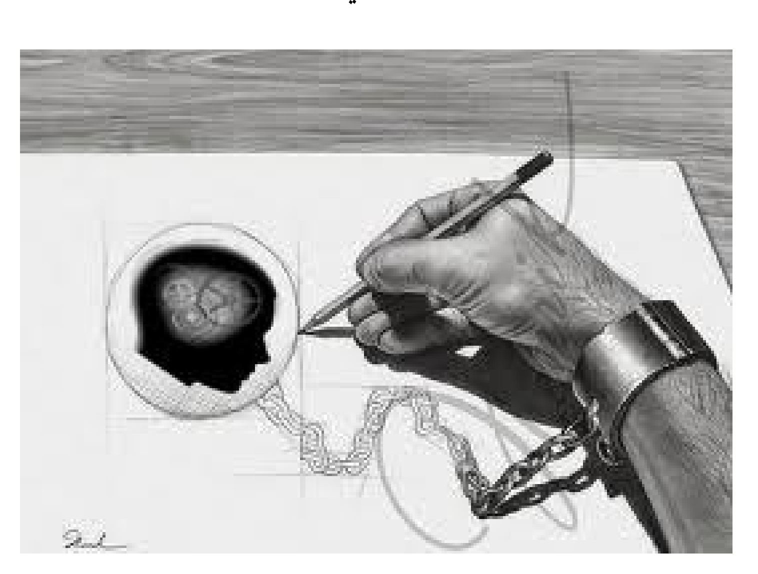


مع تطور الخلافات العربية في العصر العباسي ، وانقسام المجتمع العربي إلى مذاهب وطوائف متعددة ، وبتأثير الأحداث الحاصلة مع مرور الزمن ، وصل الأمر فيما بعد إلى بروز مفهوم جديد في حياة الإنسان العربي وهو مفهوم التعصب الديني ، الذي هو النتيجة النهائية للخلافات والصراعات الدينية بين العرب . وقد ساعد التعصب الديني على تكريس التجزئة والتناحر بين مختلف الطوائف الإسلامية وأدى - نتيجة لذلك - إلى فسخ الرابطة الإسلامية وإراقة دماء كثيرة بين المسلمين .

إن التعصب الديني يختلف عن العصبية القبلية في الجاهلية بمسألتين :

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٨/٥/٢٠١٠ .

الأولى : العصبية القبلية ارتكزت في الأساس على الولاء للقبيلة . و هذا الولاء لم يكن ولاءً عقائدياً أو فكرياً أو دينياً بل كان عبارة عن محض ولاء اجتماعي ، مقوماته رابطة الدم والقرابة والطاعة لشيخ القبيلة الذي يدير شؤون قبيلته . أي أنه نوع من الولاء الإداري أيضاً أو ولاء الجماعة . كما أن التحمس للقبيلة في العصبية القبلية ، هو تعصب أفضلية ، تتوقف اعتباراته عند إبراز محاسن القبيلة والسعي لأفضليتها وتفوقها بين القبائل الأخرى . بينما التعصب الديني هو تعصب ومغالاة فكرية عقائدية دينية متشددة للفرقة أو الطائفة أو المذهب الديني ، وهو تعصب حق ومبدأ ، تنتفي فيه الأفضلية ، و يرتكز على الصواب والخطأ .. على الوجود أو عدم الوجود ، و هذا ما لا نلحظه في العصبية القبلية .



الثانية : إن التعصب الديني الطائفي ، اقترن بالكره و الحقد على الغير والإبادة ، بينما العصبية القبلية في الجاهلية لم تقترن بهذه الأمور ، حيث أن الصراع بين القبائل العربية لم يكن صراع وجود أو إبادة جماعية أو قتل لمجرد أن الغير ليسوا من القبيلة نفسها ، بل كان صراعاً مؤقتاً حيث أنه كان مقترناً بالغزو من أجل الماء أو الرعي أو الغنيمة وأحياناً الثأر ، أو لأجل خلاف معين وينتهي الصراع بانتهاء مسبباته وتعود الأمور بعد ذلك إلى طبيعتها ، كما أن القبائل العربية لم تكن لتكره أو تحقد على بعضها البعض أو تُحرِم الزواج من خارج القبيلة ، إذ كانت هنالك ، مناسبات عدة لالتقاء تلك القبائل التي وجدت بينها قواسم مشتركة ، حيث كان أي فرد من أي قبيلة إذا ما مر بقبيلة أخرى يترل فيها ضيفاً معززاً مكرماً . وكان الزواج بين القبائل العربية شائعاً ومألوفاً . وهذا ما ليس له وجود في التعصب الديني . فـمن هذا المنطلق نستطيع أن نلمس الفارق بين التعصب الديني والعصبية القبلية .

إن التعصب الديني عندما يبلغ مرحلة متقدمة أو إذا صح القول المرحلة النهائية من مراحله حيث يشتد التزمت و يفقد الإنسان صلاته بالغير ، فإنه في ذلك يكون قد أدخل هذا الإنسان في مرحلة



من الشلل الفكري ، وفي هذه الحالة فإنه يأخذ مفهوماً آخر غير مفهوم الانتماء الديني أو المذهبي بل مفهوم السيطرة الدينية المذهبية الطائفية على فكر الإنسان وتصرفاته ، فتنتفي بذلك كل إمكانات الوعي لديه كما تنتفي إمكانية التحليل والمحاكاة العقلانية والمنطقية لديه ، ويصبح الإنسان في تلك الحالة ليس فقط مقيداً اسمياً للطائفة أو المذهب الذي ينتمي لهما بل مقيداً فكرياً وعقلياً وخاضعاً تماماً وبدون إرادة لعلاقات طائفته أو مذهبه مع الطوائف أو المذاهب الأخرى . وهذه المرحلة النهائية من التعصب قد انتشرت في جميع المناطق العربية منذ أن أفرزت الخلافات والصراعات العربية الفِرق والمذاهب الدينية ، وحصلت بينها عمليات تصفية وتكفير وإبادة .

والجذور الأولى لها بدأت منذ نشوء الكيان السياسي للدولة الإسلامية ونستطيع القول وبدون مواربة ، أن التعصب هو السبب الرئيسي لكل الصراعات والفتن وعوامل التخلف التي ألمت بالإنسان العربي فيما بعد وحتى الآن . فالإنسان المتعصب و بغض النظر عن دينه ومذهبه ، هو أشبه بالحجر ، إنه عبارة عن قطعة من الحجر لا تنطق ولا تتحرك ولا يمكن تحويلها أو تليينها ، وإذا ما حاولنا أن نغير في شكلها انكسرت فوراً .

ولعل العامل الأساسي الذي نشأ عليه التعصب الديني عند العرب إنما يعود إلى بداية نقطة اللاعودة تلك ، التي وصلت إليها الخلافات والأحداث الدينية الأولى في بداية عصر نشوء الدولة الإسلامية حيث وصلت المعارك والثورات والنزاعات والحروب في تلك الفترة إلى وضع لا يمكن إصلاحه أو إيجاد قواسم مشتركة فيه بين الأطراف المتنازعة لعدة أسباب منها : أن تلك الخلافات كانت بالدرجة الأولى خلافات عقائدية دينية روحية أساسها القتل وأول ما ابتدأت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان ثم تلا ذلك مقتل الإمام علي بن أبي طالب ثم مقتل الحسين بن علي ، وارتباط كل هذه الحوادث بمعارك وحروب دامية كانت في البداية حروب آراء وعقائد ووجهات نظر ،

انتهت بعد دخول السياسة بالدين ، بحروب أساسها السيطرة والحكم والدفاع عن الوجود والمصالح .

فأساس وبداية تلك الخلافات هو قضية الخطأ والصواب ضمن أمور معينة ، وهذه الخلافات كانت لها جذور ، و كانت ترتكز على محض أمور دينية أساسية .. على الأقل في نظر أصحابها ، لكنها ومع ذلك كانت هامدة ولم تظهر للعلن إلى أن جاء مقتل الخليفة عثمان بن عفان ، ففجر تلك الخلافات وأخرجها للعلن . لكنها بالرغم من ذلك ، بقيت خلافات خطأ وصواب ، خلافات عقيدة ومبدأ ، وجاءت الحروب المرافقة لها لتثبت تلك العقائد والآراء المتضاربة المتنافية مع بعضها البعض وترسخها في أذهان أصحابها ولتبرهن على صحتها ومصداقيتها وشرعيتها في نظر أصحابها .

والسبب الثاني .. هو دخول السياسة في النزاعات وظهور الدولة الإسلامية . فقد برز عن ذلك معطيات وأحداث ساهمت بشكل مباشر في تكريس التعصب وزيادة حدته وتحويله إلى قضية جوهرية وأساسية في وجود الإنسان العربي حيث أصبح التعصب لجماعة ما هو من أمن تلك الجماعة وأمن الفرد فيها ، فالسياسة والسلطة والحكم جعلت وجود فئة ما ينفي وجود فئة أخرى أو على الأقل يهمشها بشكل كبير ، وهذا ما حصل بالذات من خلال تعاقب الخلافة من العصر الراشدي إلى العصر الأموي ومنه إلى العصر العباسي وما بعده ، كما أن الاحتلال الأجنبي فيما بعد للأمة الإسلامية قد جاء أيضاً ليكرس هذه المقولة ويطورها .

ونحن هنا لن نعيد ذكر الأحداث التاريخية لتلك الفترة حيث أنه عند وصول كل فئة من الفئات المتنازعة إلى السلطة كانت الفئة الأخرى تتعرض للقتل والتنكيل والاضطهاد . وبالتالي فإنها (أي تلك الفئة المضطهَدة) تلجأ إلى رد الفعل إما من خلال الثورات أو تشكيل الجماعات السرية للإطاحة بسلطة الفئة الأولى وحالما يتم لها ذلك فإنها أول ما تبتدئ به هو تصفية الحساب مع الفئة الأخرى .

وخلال القرون التي تلت العصر الراشدي حصل الكثير من التعاقب على السلطة بين الفئات و الطوائف الدينية العربية وحصل معه بالتالي الكثير من عمليات تصفية الحساب الدموية والتي طالت الكثير من الناس .

لقد أبعد التعصب العرب عن كل شيء ، أبعدهم عن دينهم وعن أنفسهم ، وغفلوا بالتالي عن الأجانب الذين احتلوا أرضهم واستعمروهم مئات السنين وأعملوا السيف في رقابهم .

لقد جعل التعصب العرب في غمرة صراعهم وأوج معاركهم يبتعدون عن دينهم الأساسي ويلتفتون إلى طوائفهم ومذاهبهم . جعلهم ينسون شريعتهم ودينهم الذي يدعوهم إلى المحبة والتسامح (حتى مع الغرباء) ، ويدعوهم إلى الاتحاد ونبذ التفرقة والقتال . جعلهم ينسون دينهم وعقيدهم التي وحدهم وجعلت منهم أمة قوية واحدة متماسكة كانت نداً لأعظم إمبراطوريتين في ذلك الحين فجاء التعصب وهدم هذا الصرح الكبير ، ومزق الأمة الواحدة إلى أشلاء متنازعة ، و الوقت في نفسه أيضاً ، فإن التعصب قد جعل العرب لا يعون الخطر المحدق بهم من جراء صراعاتهم وحروبهم الدموية ، ولا ينتبهون إلى تغلغل الأعاجم في السلطة والذين كانوا هم (أي العرب) السبب في ذلك .

وحتى بعد احتلال الأمم والشعوب الأخرى للأرض العربية ، فإن ذلك لم يغير أبداً من تأثير التعصب على عقلية الإنسان العربي أو يخفف من حدته ، بل على العكس ، لقد سَخَرَ العرب احتلال الأمم والشعوب الأخرى للأرض العربية ، لخدمة تعصبهم وتثبيته ، فتغاضوا عن احتلال تلك الشعوب لأرضهم وتسلطها عليهم وتسخيرهم وتابعين لها ، بل و رحبوا بذلك ، وكل هذا إرضاء لغريزة التعصب لديهم ، وهم الذين كانوا يأنفون في الجاهلية تحكم الأعاجم بهم وتسلطهم عليهم .

أعراف السوء (طاعة الوالدين العمياء)[1]



من البديهي أنه يوجد في كل أمة و تراث كل شعب ، أعراف و تقاليد تكون بمثابة عادات اجتماعية في أساسها ، وضعت و درجت العادة عليها من قبل الناس كونها مفيدة للصالح العام و لا ضير فيها و لا أذى منها و لا تخالف القواعد و النصوص الدينية الصريحة و الفاصلة و لا القوانين الشرعية الرئيسة .. ذاك هو المفترض أن يكون ، فالعرف هو ما درجت العادة عليه لمنفعة تتحقق و فائدة يصاب بها المجتمع و لا ينتج منها أضراراً معنوية أو مادية أو أخلاقية .

و النتيجة التي وضعت لأجلها الأعراف الاجتماعية ، تنال في آثارها عادة و غالباً الجماعة و ليس الأفراد فلا يعقل أن يوضع عرف ما لأجل فرد بحد ذاته أو حتى مجموعة أفراد . و لكن آثرها يصيب الفرد الذي يطبق هذا العرف أو ذاك ، من كونه عضو في الجماعة أو المجتمع و يجري عليه ما يجري على الجماعة . و قد تدرجت عواقب مخالفة الأعراف في المجتمعات من العواقب

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠٠٩/١٠/٢٢ .

الاعتبارية (كاللوم و الازدراء أو النبذ) وصولاً إلى العواقب المادية الجسدية (الضرب أو التصفية الجسدية) من منطلق أمور عدة كاعتبار الفرد يعرض أمن المجتمع للخطر أو يخالف قواعد دينية و اجتماعية أو أخلاقية معينة تؤدي إلى أحداث ضرر أو فوضى اجتماعية و ما إلى ذلك . ذاك هو التعريف الافتراضي للأعراف و التقاليد الاجتماعية الشعبية و الغاية التي وضعت لأجلها . و لكن هل هي في الواقع على ما هو من المفترض أن تكون عليه ؟ .

إن نظرة فاحصة و قراءة متمعنة في أمر الأعراف و التقاليد التي نراها الآن ، تدل على أن قسماً منها لا تنطبق عليه الشروط المذكورة آنفاً ، بل هو نتيجة عشوائية لمصالح ضيقة محدودة إما أن تكون سياسية أو فئوية أو اجتماعية تخدم طبقة معينة أو نخبة ما من نخب المجتمع و التي عادة ما تكون زعامات دينية أو اجتماعية أو مفرزات لوضع معين (سياسي – ديني – اقتصادي) زال و لم يعد موجوداً . أو هي نفسها أعراف اجتماعية أو دينية صحيحة و سليمة و لكن جرى التلاعب بها و بألفاظها و معانيها و تحويرها أو إفراغها من مضمونها أو حرفها عن مسارها الصحيح .. خدمة لكل ما سبق ذكره . و ينتج عن تلك الأعراف المستحدثة أو المهجنة أو المطعمة بأعراف أصيلة مفيدة إيجابية و مستحسنة ، ينتج عنها آثار سلبية تتمثل بالدرجة الأولى بظلم ما يقع على أشخاص أو جهات معينة و حيف يصيبهم أو غبن ينالهم . أو السيطرة على أعداد هائلة من البشر و التحكم بهم عبر هذه الأعراف . و هذه الأعراف بنظرنا تستحق أن يطلق عليها (أعراف السوء) .

إن أمثلة هذه الأعراف .. أعراف السوء .. تتمثل في أوجه متعددة يبرز منها مثال طاعة الوالدين . هذا العرف الذي وجد موطئ قدمه من خلال الأمر الاجتماعي بداية و من ثم لقي دعمه من الدين (و هنا نتكلم عن الإسلام) الذي أكد على احترام الوالدين و العناية بهما . و لكن هذا العرف بنظرنا قد أخذ ينحوا منحى آخر غير المنحى الذي أقر به الدين و اعترف به و أعلنه للملأ على أنه وصية و أمر إلهي و ليست عرفاً دينياً أو اجتماعياً .

إن عرف طاعة الوالدين قد اتخذ أشكالاً عدة لا علاقة لها بالمنظور (القرآني) و من ذلك أن غضب الوالدين يلزم غضب الله و على الإنسان أن يطيع أباه أو أمه و لا يخالفهما بأي شكل كان

و من يعصي أبويه لأي سبب كان ، فنار جهنم بانتظاره .. و قد وردت أحاديث و أمثال شعبية عدة في هذا المضمار تؤيد مفهوم طاعة الوالدين بالمطلق حتى و إن وقع جور أو ظلم أو حيف من جراء ذلك كحديث (غضب الله من غضب الوالدين و رضى الله من رضى الوالدين) (الجنة تحت أقدام الأمهات) (الأب لا يخطئ) (أبوك أفضل منك و أبو أبوك أفضل منه و منك و أبو أبو أبوه أفضل منكم جميعاً .. و أبو أبو أبو اللي خلفه أفضل الجميع .. هو الهاي لايف) هكذا و بكل بساطة .. حكم جاهز و مسبق سلفاً .. حكم عرفي بكل ما في الكلمة من معنى .



هنالك حوادث ظلم و تعسف و قهر كبيرين تقع بحق الأبناء من قبل الآباء ، تصل إلى حد الجرائم الإنسانية الاعتبارية كحرمان الولد من ميراث أبيه عن طريق الاحتيال القانوني لأنه قال له في يوم من الأيام كلمة (لا) أو لمجرد أنه اختلف معه بالرأي في قضية من القضايا .. أو أب يطرد ابنه أو ابنته من المنزل و يقذف به في الشارع معرضاً إياه للوقوع فريسة ألف خطر و خطر (السرقة – الدعارة – المخدرات – القتل – الموت ... الخ) فقط لأنه قال له كلمة (لا) أو اختلف معه بالرأي بمسألة من المسائل . و عندما يلجأ هذا الولد أو الفتاة للمساعدة يجد نفسه بمواجهة مجتمع (و العياذ بالله) يشهر بوجهه سيف عرف طاعة الوالدين و يحكم عليه بالإعدام محملاً إياه سلفاً كل الأخطاء بتهمة جاهزة هي عقوق الوالدين . مجتمع يواجهه بخطاب أعمى من منطلق تعصب و جهل أعميين .. بأن الأب لا يخطئ و أن من يزعج أبه أو أمه بكلمة و لو غير مقصودة أو طرفة عين لم تعجبهما فهنالك المئات من الملائكة بانتظاره لتطبيق أبشع أنواع العقوبات الجسدية بحقه .. منهم من يحمل السياط و منهم من يحمل جنازير الحديد و سلاسله و منهم العصي و الهراوات و منهم من يأخذه إلى الدولاب .. الخ .

من أين استمدت تلك الأعراف شرعيتها و وجودها ؟؟؟!!! سوآل نجد الإجابة الجاهزة عليه ، بأنها من الدين و القرآن . و تحديداً من الآيات القرآنية التالية (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ

لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً) (الإسراء:٢٣-٢٤) .

(وَوَصَّيْنَا الْأِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) (لقمان:١٤) .

و لكن نظرة فاحصة متأنية على تلك الآيات ، تدل أن أنها لا تتحدث عن طاعة الوالدين بل عن البر بهما أي مساعدتهما عندما يكبران و مجرد ملاحظة تسلسلية لمفردات الآيات السابقة تدل على ذلك .. إحساناً - أف (من التأفف و عدم الرغبة بتقديم المساعدة) – تنهرهما (الانتهار لغة : نهرته و انتهرته إذ استقبلته بكلام تزجره عن خبر . و نهرت الرجل نهراً و انتهرته انتهاراً : زجرته بكلام عن شر أو طلب حاجة و قيل هو طالب العلم إذا جاءك فلا تنهره . و قوله تعالى [و أما السائل فلا تنهر] أي طالب الحاجة و المساعدة لا تزجره و تنهاه) – قولاً كريماً : من الكرم و العطاء – جناح الذل من الرحمة : أي الرحمة بهما – و وصينا الإنسان بوالديه : أي العناية بهما كأن يقول فلان لآخر : أوصيك بفلان ، أي أن تلحظه بعنايتك . و لم تأت آية واحدة تتحدث عن طاعة الوالدين .

يضاف إلى ذلك أن كلمة (العقوق) لم ترد في القرآن الكريم ، كما أنها تحمل ملابساتها اللغوية تجاه الطاعة فهي لا تدل عليها بقدر ما تدل على القطع و الإهمال . إذ جاء في المعجم : أصل العق الشق يقال : عق ثوبه إذ شقه .. و عَقَّ والديه : قطعهما و لم يصل رحمه منهما ، و قد يعم لفظ العقوق جميع الرحم . و قد قال أبو سفيان بن حرب لحمزة بن عبد المطلب حين مر به يوم أحد و هو مقتول : ذق عقق أي ذق جزاء ما فعلت يا عاق لأنك قطعت رحمك و تركت دين آباءك و تبعت محمد (ص) .

ليس ذلك فقط ، بل أن مفهوم الأب بالقرآن الكريم قد جاء بمعظمه بالذم و الآيات في ذلك كثيرة ، منها على سبيل المثال لا الحصر :

(يوم يفر المرء من أخيه و أمه و أبيه) عبس ٣٥ – ٣٦ دليل على إسقاط اعتبار الوالدين في محاسبة المرء ، من قبل الله تعالى .

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آبائكم و إخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان و من يتولهم منكم فألئك هم الظالمون) التوبة ٢٣ .

(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) (التوبة:١١٤) . حتى الأنبياء يتبرأون من آبائهم في حال الخطأ .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ) (الزخرف:٢٦) .

(لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) (المجادلة:٢٢) .

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ...) (لقمان:١٥) .. آية قرآنية تنسف مفهوم عدم خطأ الآباء لإشراكهم في صفة من صفات الله تعالى كصفة عدم الخطأ و عدم الظلم و هما من صفات الله تعالى .

(وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) (الزخرف:٢٣) .

(قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) (الشعراء:٧٤) .

(وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ) (الشعراء:٨٦) . دلالة على أن الأب ممكن أن يكون إنساناً ضالاً مجانباً للحق و الصواب و ابنه ناصحاً له .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) (الأنعام:٧٤) .نفس دليل و بيان الآية السابقة

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً) (مريم:٤٣) .

(يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً) (مريم:٤٤) .

(قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) (لأعراف:٧٠) .

(قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) (لأعراف:٧١) .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) (لقمان:٢١) .

(بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ) (الزخرف:٢٢) . نفي لمفهوم طاعة الوالدين في كل شيء

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) (الزخرف:٢٤) .

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) (الأنبياء:٥٢) .

(قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) (الأنبياء:٥٤) . . دليل على ضلال الآباء و خطأهم .

(فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ) (هود:١٠٩) .

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) (هود:٨٧) .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً) (النساء:١٣٥) . دليل على وجوب مخالفة الآباء حين مجانبتهم للصواب و العقل و المنطق و الحق و بأية قضية كانت .

و لكن طاغوت المجتمع الظالم و الجاهل و صاحب الأهواء و المنافع الشخصية يخفي هذه الآيات و لا يطرحها على الملأ ككفة معادلة لكفة بر الوالدين ، و يكتفي فقط بالكفة الأولى .. و يذكر أحاديث نبوية أو فقهية مشتبه بها و تناقض كلام الله تعالى كحديث (الجنة تحت أقدام الأمهات) الذي ضعفه الكثير من الفقهاء (الألباني في الجامع) أو حديث (رضى الله من رضى الوالدين) و هو كلام مرفوض و يناقض كلام الله ، (فالله غني عن العالمين) (فعال لما يريد) (و إليه المصير) (و إليه تصير الأمور) (قل لا أملك لنفسي نفعاً و لا ضراً إلا ما شاء الله) (و اتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً و لا يقبل منها عدل و لا تنفعها شفاعة و لا هم ينصرون) كما أن الله هو واجب الوجود الغير محتاج لأحد ، و الحديث السابق يجعله (و العياذ بالله) محتاجاً للمخلوق و هو الخالق .



هذا الطاغوت لا يذكر أحاديث نبوية و فقهية كثيرة تضع اللوم على الوالدين و لا تعفيهما من المساءلة و الخطأ فيعمد إلى إخفاءها و حجبها عن الناس . و منها على سبيل المثال لا الحصر :

ـــ عن الرسول (ص) : لعن الله والدين أعانا ولدهما على عقوقهما .

ـــ جاء رجل إلى الرسول (ص) وقال : يا رسول الله من أولى الناس بالبر مني ؟ قال : بر والديك . قال : ليس لي والدين . قال : بر ولدك .

ـــ و عنه (ص) : يلزم الأبناء من عقوق الآباء ما يلزم الآباء من عقوق الأبناء . أي كما أن هنالك عقوق من قبل الأبناء لآبائهم ، هنالك عقوق للآباء تجاه أبنائهم .

ـــ و عنه أيضاً : أحبوا أولادكم و ارحموهم و إذا وعدتموهم شيئاً ففوا لهم فإنهم لا يدرون إلا أنكم ترزقونهم .

ـــ و قوله أيضاً : رحم الله من أعان ولده على بره .. قيل : كيف يا رسول الله ؟؟ قال : يقبل ميسوره و يتجاوز عن معسوره و لا يرهقه و لا يخرق به .

ـــ و جاء رجل إليه (ص) فقال : ما قبّلت صبياً قط . فلما ولى قال رسول الله : هذا الرجل عندي أنه من أهل النار .

ـــ و عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : لا تكرهوا أولادكم على أهواءكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم .

ـــ و قوله أيضاً : أعينوا أولادكم على بركم ، فو الله من شاء استخرج العقوق من ولده .

ـــ و قوله أيضاً : لا يكن وِلْدَك أشقى الناس بك .

ـــ جاء رجل إلى الأمام جعفراً الصادق فقال : ما أدنى ما أعدل به بين أبنائي ؟؟ قال : أن تساوي بينهم في اللحظة و النظرة .



كل هذه الأحاديث لا تظهر على الشاشة و لا يسمع بها الكثيرون بل يظهر لنا نقيضها تماماً تاركاً المجال أمام مظلمة كبيرة تقع بحق الأبناء من ذكور و إناث . و ما الجرائم التي ترتكب الآن بحقهم من قبل الآباء و يختم عليها المجتمع بالموافقة و القبول .. إلا نتيجة من نتائج هذا الظاهرة المنحولة المزيفة .. ظاهرة من ظواهر الطاغوت .

المازوخية الأدبية و الفنية[1]



يسعى الإنسان بطبعه ، إما إلى القيادة أو الانقياد .. هذا العرف حقيقة ، قد وجد منذ أقدم العصور و منذ أن أول ظهور تشكيلات الجماعة و من بعدها المجتمع . و جدلية القياد و الانقياد ، هي في الواقع و من حيث المبدأ ، تتضمن في أبعادها و حيثياتها ، كل معطياتها المنطقية المقبولة و الطبعية .

فالجانب الطبعي في القضية يأخذ مجراه من كون أن تشكل الجماعة و المجتمع عموماً يحتاج حتماً إلى التفاوت الطبقي المهني و الوظيفي و القيادي ، بل و حتى الاجتماعي (بغض النظر عن مشروعيته) و التخصص في الإنتاج و الوظائف الحياتية اليومية .

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠١٠/٢/٩ .

و كي لا نسرح بعيداً في مجاهل التاريخ القديم ، يمكننا القول أن مفهومي القياد و الانقياد بشكلهما الرسمي و المتبلور ، قد بدأا منذ الظهور الاعتباري لنظرية العقد الاجتماعي ، لأنهما أساساً شكلا أهم صفة ميزت هذه النظرية ، و من دونهما لا يمكن للعقد الاجتماعي أن يطبق في أي جماعة ، فهما أساسه و عماده و لاحقاً نشأ نظام الدولة و الحكم على هذا الأساس أيضاً .

من المعروف بعد ذلك أن مفهوم القياد و الانقياد قد اتخذ معظم نواحي الحياة البشرية سواء في نظام الحكم السياسي أم القبلي أم الديني و ما إلى ذلك . كما أنه نحا منحاً آخر في التطرف و الظلم ، حيث كان يفترض به العدل . و انبثق عنه أمور أخرى كالطاعة العمياء و السخرة و قتل الحرية و نظام الرق ، لدرجة أن مفهوم العبودية و طبقة العبيد كانا أمراً اعتيادياً مألوفاً و بشكل طبعي لدى بني البشر . حتى لدى الفلاسفة الإغريق الكبار كأرسطو و أفلاطون و غيرهم . لا بل إن أفلاطون تحدث في جمهوريته الفاضلة عن طبقة العبيد كأمر بديهي طبعي لا علاقة له بالعامل الأخلاقي . ذاك كله يمكن إدراجه ضمن القياد و الانقياد الإجباري القسري .

في العصور و القرون اللاحقة ، برز مفهوم القياد و الانقياد في النواحي الفكرية ، و بخاصة بعد ظهور النهضة الفكرية و العلمية في أوروبا . و تجلى ذلك بما يسمى المدارس الفكرية و الأدبية و الفنية و السياسية و غيرها فأضحى لكل مجال و باب من تلكم الأبواب المذكورة ، مدارس و مشارب متعددة لها مريديها و أتباعها و مؤيديها . ذلك كله يمكن إدراجه ضمن القياد و الانقياد الاختياري الطوعي .



إذن فهنالك على وجه العموم نوعان أو صفتان لمفهومي القياد و الانقياد .. صفة الإكراه و الإجبار و القسر ، و صفة الاختيار و الإرادة الحرة الشخصية .

على أنه و في الوقت الحاضر ، قد برز لنا على ما يبدو نوع جديد من الانقياد و التبعية الفكرية و الأدبية و الفنية . و تجلى ذلك في إعطاء الصفات

الخارقة و الخارجة عن نطاق المألوف لشخصيات أدبية أو فنية نالت حظها من الشهرة و نصيبها من الانتشار ، إما لموهبة نادرة فيها و قدرة متميزة ، أو لسبب آخر لا علاقة للموهبة و الإبداع أو الذكاء ، فيه .

من حيث المبدأ ، لا ضير من مدح إنسان موهوب أبدع في مجال فكري أو فني معين كالشعر أو الغناء و نحوهما . و كان له تاريخ في حرفته تلك أفاد من خلاله الناس أو أطربهم أو .. الخ . و لكن لا يجوز رفع ذلك الشخص مهما كانت سويته من الشهرة و الانتشار عالية و مرتفعة ، لا يجوز رفعه إلى مصاف أصحاب المعجزات الخارقة بحال من الأحوال و التحدث عنه من منطلق التابو المحرم . و أنا شخصياً قد أستثني ربما (أقول ربما) العلماء أصحاب الاختراعات العلمية التي قدمت الخير و الفائدة لبني البشر كأديسون أو غاليلو أو داروين أو لافوازيه أو كورشيلوف أو فيثاغورث .. و غيرهم ممن خدموا البشرية جمعاء باختراعات و اكتشافات قدمت نقلة نوعية في الحضارة الإنسانية من ناحية ، و خففت آلام البشر و شقاؤهم و عذابهم لناحية أخرى . الكهرباء .. السيارة .. الطائرة .. الهاتف .. التلفاز .. القطار .. العدسات .. المجهر . الـــ .. الـــ .. .

و ما نراه الآن من ظاهرة درجت في مجتمعاتنا العربية ، هو تجاوز لكل معايير التوصيف و التقييم ، بين المقيم و المقيم (الياء في إحدى الكلمتين مفتوحة و الأخرى مكسورة) و معايير الإطراء و المديح بين المادح و الممدوح . لا بل هو شذوذ بكل ما تحمله الكلمات من معنى .

الظاهرة المعنية بسياق مقالنا إياه ، هي أن يخرج لك شخص ما في الشارع أو الصحف أو التلفاز أو المذياع أو الـــ ... مقلاع و يتحدث عن شخص مشهور أدبياً أو فنياً (الدارج الآن هو الطرب و الشعر) حي أو ميت ، بطريقة يهين فيها نفسه أمام هذا الشخص و يذل كيانه و شخصه أمام ممدوحه الذي يكون في أغلب الأحيان شاعر كبير أو مطرب أو مفكر أو كاتب مشهور .

منذ فترة كنت أطالع إحدى الصحف ، فوقعت على مقال في الصفحة الثقافية و كانت كاتبته متحصلة على شهادة الدكتوراه (حسب تعريفها) تتحدث فيه عن الشعر . ثم تحدثت في نهاية المقال عن شاعر (معاصر) عربي متوفى و قالت : كنت أريد الحديث عنه و لكن أنا من أنا لأتحدث عنه ؟؟!! أعرف أنني لست على مستوى الحديث عنه و لذلك لن أتحدث عنه .



إنني أتساءل ... ؟؟؟!!! هل هذا الشاعر (و أنا احترمه جداً) فوق مستوى البشر ؟؟ يعني هل هو كائن خرافي أسطوري يحمل بين جنباته سمات الآلهة كما سيم به الفراعنة مثلاً ؟؟!! و ما علاقة شهرة هذا الشخص و براعته في الشعر و بين جلد الذات ؟؟!! أفلا تستطيع هذه السيدة أن تتكلم عن هذا الشاعر و تعطيه حقه الطبيعي و مرتبته المرموقة في الشعر إلا إذا جلدت نفسها أمامنا بطريقة مضحكة و أهانت ذاتها و مرتبتها العلمية – عندما تقول أنا من أنا - ؟؟!! و هل تعتقد في قرارة نفسها أن القراء سيقرون لها رأيها بهذا الشخص و يوافقونها عليه على تعدد مشاربهم و أهواؤهم و من منطلق أن لكل ذوقه و شاعره المفضل ؟؟ .

يبرز لك شخص آخر (كذا الأمر متحصل على درجة علمية عالية) في مقال آخر يتحدث فيه عن أديب كبير فيقول نفس ما قالته زميلته الآنفة الذكر (أنا من أنا لتكلم عن فلان) و لكنه هذه المرة يزج القراء معه و يدخلهم صاغرين رغماً عن أنوفهم في حظيرة مازوخيته حين يضيف قائلاً : و نحن من نحن حتى نتكلم في مقالنا هذا عن المقام العالي الرفيع لفلان . ....؟؟!!!! عجيب غريب .. إذا كان هذا الشخص يحب أن يجلد نفسه لأجل معبوده هذا ، و يعذبها بالسياط و أسياخ الحديد و النار كما يفعل بعض البراهمة الهنود ، فما ذنبنا نحن و ما هي



جريرتنا لكي يلفحنا بسوط عذابه و آلامه ؟؟!!!

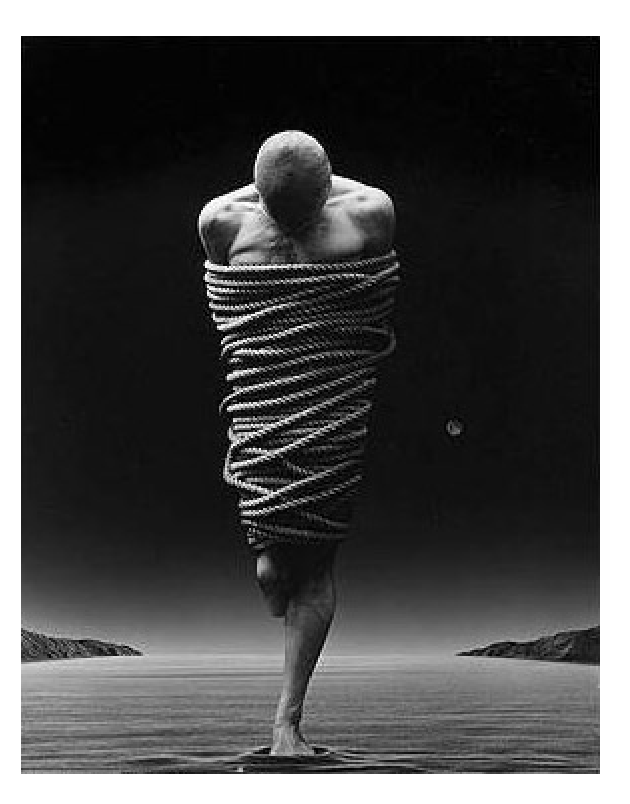
إذا كان يقبل على نفسه الإهانة الغير مبررة كي يشهر أديبه الفلاني هذا و الذي بنظره لا تتحقق شهرته إلا بأن يهين ذاته و نفسه و درجته العلمية على مذبحه . فالقراء ربما لا يوافقونه الرأي في فعله هذا و نفوسهم عزيزة عليهم .

و آخر يظهر في التلفزة ليتحدث عن أحد المطربين و يقول بالحرف " إنه خارج التقييم و فوق المدح " يعني – استغفر الله العلي العظيم – أصبح ....

آخر ... و آخر ... ظاهرة انتشرت بشكل فظيع و أصبحت سمة من سمات المدح في العالم العربي ، نراها بشكل متكرر .. أحياناً قد لا تكون مكانة هذا الشخص و موهبته ، متناسبتين مع الشهرة التي أعطيت له ، و مع ذلك تضفى عليه مسحة من القداسة المحرمة .

و اللافت أنه أحياناً تجلس مع أحدهم و يتكلم عن شخصية فكرية أو أدبية بمفهوم المنطق السابق إياه و تفاجئ بالنهاية بأنه لا يعرف شيئاً عن هذه الشخصية . أذكر مرة أنه جمعتني جلسة مع بعض الأشخاص ، فانبرى أحدهم يتحدث عن أحد الشعراء المشهورين و الذي توفي منذ فترة ، و أخذ يمدحه و يعظم من شأنه و يعتبره أنه ظاهرة فريدة من نوعها و لن تتكرر و صعب أن يأتي مثله و أنه جبل كبير شامخ ، حتى وصل إلى أن قال : أنه أفضل الشعراء في هذا القرن ، و نحن ذرة في بحره . و هنا تدخلت أنا قائلاً له : أنا أحترم شاعرك هذا و هو شاعر كبير و متميز ، و لكنه بنظري ليس أفضل الشعراء ، فهنالك من هو أشعر منه . أصر الرجل على موقفه بأنه أفضل شاعر و لا يستحق أحد أن يصل إلى مرتبته . فقلت له : أنا شخصياً و بنظري و مع احترامي لشاعرك هذا ، إلا أنه لا يقارن البتة مع الشاعر العربي الكبير القرمة محمد مهدي الجواهري و الذي بنظري أنه أفضل شعراء القرن . و لا مجال للمقارنة أبداً ، و نسبة المقارنة بين شاعرك هذا و بين الجواهري هي واحد إلى ألف . (و ذكرت له أبيات متعددة للجواهري) و طلبت منه أن يذكر أبيات لهذا الشاعر (الذي أحترمه و أقدره و هو شاعر مهم بنظري) فصمت و لم يتكلم ، و بعد أخذ و رد اكتشفت أن هذا الشخص لم يقرأ شيئاً لشاعره الذي ذكره و لا حتى بيت واحد و لا يعرف عنه شيء و كل إعجابه به منقول من الصحف الرسمية و بعض مواقع الإنترنت

الشبابية ، فذكرت له أبيات لشاعره المفضل أعجبتني ، لا بل أن له قصيدة يغنيها أحد المطربين اللبنانيين ، أسمعها دائماً و أحبها كثيراً . أنا مثلاً أفضل من شعراء العصر الحديث أحمد شوقي و الجواهري و عمر أبو ريشة و غيرهم . و لكن لا أجلد نفسي لأجلهم و لا أفرضهم على الغير الذي ربما قد لا يراهم مهمين أو يرى غيرهم أفضل منهم ، و كذا الأمر فهنالك مطربون و فنانون أفضلهم و أحترمهم و أصفهم بأنهم كبار أو عظام أو عمالقة مثلاً .. لا ضير في ذلك ، لكن كذا الأمر أيضاً .. لا أجلد نفسي لأجلهم .



في موسكو كنت أرى الروس كيف كانوا يتعاملون مع .. و يتكلمون عن أدبائهم و مفكريهم و شعراؤهم الكبار .. كانوا ينحتون لهم التماثيل في الشوارع و الأماكن العامة ، و يسمون الجامعات و الجادات باسمهم و يقدمون لهم آيات الاحترام و التقدير و الفضل الكبير . و لكن .. و لكن (حرف استدراك) لم يكونوا يهينون أنفسهم أمامهم أو يرفعونهم إلى مصاف الآلهة أو المعصومين من الخطأ أو الذين لا يجوز النقاش عنهم أو يتحدثون عنهم بطريقة (أنا من أنا لأتكلم عن فلان) . هؤلاء كانوا في النهاية بالنسبة لهم بشر لهم سلبياتهم شأنهم شأن أي كائن بشري . كانوا يتحدثون عن الشاعر الكبير أو الأديب الكبير فلان بأنه كان يعاقر الخمرة بشكل كبير مثلاً و مرة وقع في الشارع مخموراً أو أنه مر بأزمة عصبية كبيرة أو اتهم بكذا .. أو .. أو .. مع أنهم نصبوا له التماثيل و سموا باسمه الشوارع و محطات المترو .

التقيت مرة مع أحد المقيمين في ألمانيا و هو أستاذ جامعي في إحدى الجامعات الألمانية ، فسألته عن كبار الأدباء و المشاهير الألمان و كيف ينظر الألمان إليهم (تحديداً حول هذه النقطة) . فأكد لي

أنهم يحترمونهم و يجلونهم تماماً كما الروس و لكنهم يقيمونهم كبشر و يذكرون بعض تصرفاتهم الغريبة أو ما شابه ليس من باب النقد بل من باب السيرة الذاتية ، أما عن إنكار الذات لأجلهم فلا يوجد شيء من هذا القبيل و لا أحد يفعل ذلك . كذلك الأمر في فرنسا و سائر البلدان الغربية . و لا يقتصر الأمر على ذلك ، بل أنني أحياناً أشاهد برامج في بعض الفضائيات تتحدث عن مشاهير غربيين كبار بل و حتى علماء كآينشتاين مثلاً أو بيكاسو أو أوسكار وايلد .. و غيرهم . و يتحدث عنهم أشخاص (غربيون طبعاً) من بني جنسهم أو مختصين بمجال عملهم ، و من ضمن ما يتحدثون عن تاريخ هؤلاء من المجد و العطاء و الشهرة و الإيجابية ، يتم الحديث أيضاً عن مشاكلهم الخاصة و السلبيات التي كانت تحيق بهم ، أحدهم لديه عصاب نفسي أو قلق أو خوف و آخر لديه حالة كذا . ذلك كله من باب الأمانة العلمية التاريخية الخالية من أي تعقيد و تهويل .

بينما عندنا يتحول الشخص المشهور (بغض النظر أحياناً عن حقيقة شهرته و أصالتها) إلى حالة طوطمية لا يجوز الاقتراب منها أو المساس بها بل يجب تقديم القرابين و الأضاحي البشرية الاعتبارية و قرابين الكرامات الشخصية على مذبح شهرتها . فالشهرة عندنا على ما يبدو هي نوع من التابو ، تماماً كما هو التابو الديني الذي يطال كل ما له صلة بالدين من شخصيات و كتب و مذاهب مهما كان نوعها و شكلها و قيمتها ، أو التابو السياسي الذي يطال الشخصيات السياسية .. هذا التابو على ما يبدو ، هو الشقيق الثالث لهذين الآخرين الذين هما أقوى منه لجهة المنطقية و إثبات الواقع . لأن إضفاء القداسة عندنا و جلد الذات أضحت نتيجة واقعة لا مناص منها ، لتراكم سنوات و قرون طويلة من التبعية المتعددة الأشكال لدرجة أن التفكير بالتخلص منها يؤدي إلى حكاك حاد مزعج . فلا يقبل عندنا مدح فلان لفلان مشهور و لا يثبت إعجابه به ، حياً كان أم في دار البقاء ، إلا أن يركع المادح جاثياً أمام الممدوح ماسكاً رأسه بكلتا يديه ، ثم يقوم بفتله بعنف (أي يمصع رقبته) كما كان يفعل الساموراي الذي كان يبغي هلاك نفسه ، أو فرق الكاميكاز الانتحارية أو الياكوزا . ربما ليقال لهذا المادح (أصيل .. و الله أصيل) أو ربما ليريك أنه (أنا هوووون .. و أفهم مثلك بالأدب و أستطيع التقييم) أو ربما لنصفق له بإعجاب قائلين (و الله ياعمي ... فحل .. و رب الكعبة .. فحل) .

على أنه و كلمة حق تقال يوجد استثناء وحيد لهذا الشذوذ الموجود عندنا ، و هو أنه يتم الحديث عن سلبيات إحدى الشخصيات المشهورة لكنه ليس عربياً بل أجنبياً ألا و هو الموسيقي العالمي (بيتهوفن) فكلما قرأت خبراً عنه في الصحف ، يتم تعريفه على أنه كانت تنتابه نوبات الصرع يعني بالعربي عندنا (مصروع) و هو الشخصية الوحيدة التي شكلت عندنا مفارقة استثنائية يعني (يا حرام ما طلعت إلا براس عمي بتهوفن) . و اشتهيت مرة واحدة أن أقرأ مقال في تلك الصحف ، يتحدث عن بيتهوفن دون أن يبرز فيه خاصية الصرع و الجنون لديه و كأنها تنفيس المكبوت عندنا تجاه مشاهيرنا هنا ، و ما أكلها إلا هالفقير بيتهوفن .



(أنا من أنا) تقال لمخترع السيارة التي نركبها كل يوم و لا نحس بالتعب الذي عاناه مخترعها حتى وصلت إلى ما تحت مؤخراتنا .

تقال لمخترع المخدر و الكلوروفورم و أيام الشقاء و المعاناة و التجارب التي قاساها كي نرتاح من آلام العمليات و قطب الجروح .



تقال لعالم الصواريخ السوفييتي الشهير كوريليف الذي عاش الجوع و البرد و الفقر و الألم و المرض حتى توصل إلى اختراع الصواريخ العابرة للقارات التي تحمل الأقمار الصناعية التي تنقل لنا فضائياتنا الطربية و الغنائية و الطائفية و المذهبية و غيرها .

تقال لمخترع الآلة البخارية و الهاتف و التلغراف .. تقال لعالم الحيوان الأمريكي الذي قضى خمس و ثلاثون عاماً من حياته في مجاهل إفريقيا يعيش مع القرود و الشامبانزي و الأفاعي و الوحوش يدرس طبيعتها و صفاتها ..



تقال لعالم الفلك الذي قضى حياته كلها يدرس النجوم و يراقبها و يكتشف الكواكب ، حتى عميت عيناه و فقد البصر ..

تقال للعالم السوفيتي (كلاشينكوف) الذي كان عريفاً بسيطاً بالجيش الروسي و آلمه دخول الألمان إلى أرضه و تهديدهم عاصمة بلده ، فقضى وقت استراحته في خيمته يخطط و يحسب و يجرب إلى توصل إلى صناعة أقوى و أشهر سلاح فردي في العالم و أكثره انتشاراً ألا و هو البندقية الآلية المسماة باسمه (كلاشينكوف) أو باسم (كي ٤٧) .. عندنا تسمى (روسية) .. اخترعها للدفاع عن أرضه و وطنه و وصلت عندنا لنحارب فيها بعضنا بعضاً .. و الكثر ممن تقال لهم هذه العبارة و لا مجال لذكرهم هنا لكثرة عددهم .

تقال لذاك العالم الإغريقي القديم الذي توصل إلى اكتشاف النظريات الرياضية التي ندرسها الآن في جامعات العالم كلها و بني عليها الكثير من المنجزات العلمية . و الذي قضى حياته وحيداً أمام سراجه حتى ضعف بصره . و عندما احتل الرومان أثينا ، دخلت كتيبة من جنودهم إلى منزله و كان جاثياً على الأرض و أمامه ورقة ، مشغولاً بحل معادلة رياضية مستعصية . خاطبه القائد الروماني ، فلم ينتبه إلى وجوده لأن عقله و جوارحه كانا مسخرين للمعادلة الرياضية التي استعصت عليه .. أعاد القائد الروماني الطلب مرة أخرى . و عندما لم يلتفت إليه العالم ، استل سيفه و أغمده في ظهره مخترقاً قلبه و ضلوعه ، فسقط ذاك العالم على الأرض مضرجاً بدمائه و قال و هو يلفظ أنفاسه الأخيرة : جهلة ... أميين ... قتلة .

و بهذه العبارة الأخيرة نختتم مقالتنا هذه .

فريق عقلنا الأخضر[١]



أثناء عودتي من زيارة صديق لي .. تصادف أن تكون واحدة من مراحل طريقي ، بجوار إحدى الحدائق العامة ، و حيث لم أنني لم أجلس منذ مدة طويلة في حديقة عامة ، قررت الجلوس قليلاً في هذه الحديقة .

كان الهدوء و السكون يلفان المكان لفاً و يلفحانه لفحاً .. صودف أيضاً مرور بائع قهوة جوال مما شجعني على الجلوس في الحديقة . أخذت كأس القهوة ناقداً البائع ثمنه شاكراً إياه دالفاً إلى

---

[١] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠٠٩/٨/٩ .

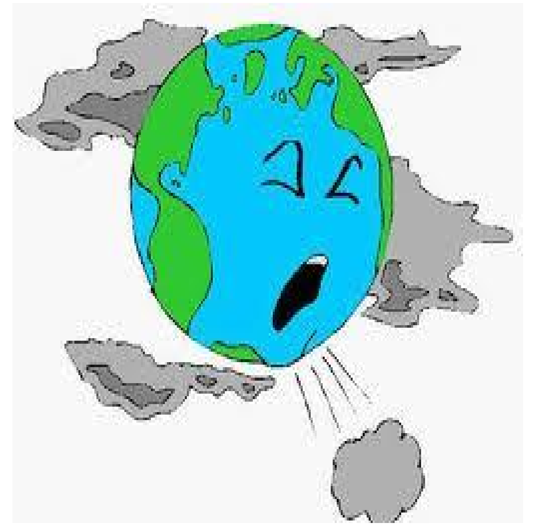
الحديقة جالساً على أحد المقاعد مخرجاً سيكارتي متأملاً المناظر الطبيعية و الخَضار و الأشجار المحيطة بي بهدوء .

حانت مني التفاتة ، فرأيت مجموعة من الأطفال .. فتيان و فتيات في مقتبل .. كانوا كأنهم يقومون بأدوار تمثيلية مسرحية أو ما شابه و على رأسهم مشرف كأنه مخرج مسرحي أو ما شابه . و بجانبهم لافتة مكتوب عليها عبارة " فريق كوكبنا الأخضر " .

راقني المنظر فأخذت أتابع أولئك الأطفال و هم يقومون بأدوارهم .. كانوا بعيدين عني بعض الشيء فلم أتبين كلامهم جيداً .. كأنه كان عن النظافة .. نظافة كوكب الأرض أو شيء من هذا القبيل .

مرت فترة من الوقت و أنا أرتشف القهوة و أدخن السيكارة متقصياً بنظري ما بين الطبيعة أمامي و جمهرة الأطفال إياها . لاحظت بعد ذلك أن الأطفال انقسموا إلى مجموعات صغيرة لا يتجاوز عددها الرقم / ٣ / و بدأوا يجولون على رواد الحديقة الجالسين في مقاعدها و يتكلمون معهم . خلت الأمر في نفسي بأنه ربما هي دعوة لحضور مسرحية لهم أو ما إلى ذلك .

لم يمض وقت طويل حتى اقتربت مجموعة منهم باتجاهي و بادرني أحد أفرادها الصغار قائلاً : مرحباً عمو .. أجبته : أهلاً حبيبي .



ــ عمو نحن من فريق كوكبنا الأخضر و نرجو منك رمي أعقاب السجائر أو النفايات في سلة المهملات و عدم رميها على الأرض .. إذا تكرمت .

سرني كلام الولد الصغير و أدخل البهجة إلى قلبي فأجبته قائلاً : تكرم عينك عمو .. من أي فريق أنتم قلت لي ؟؟

ــ من فريق كوكبنا الأخضر للبيئة .

ــ جميل جداً أتمنى لكم التوفيق في مهامكم ... أنا أيضاً زميل لكم .

ـــ هل أنت من فريقنا أيضاً ؟؟!!

ـــ كلا عمو لست من فريقكم و لو أنه يشرفني الانضمام له .... أنا من فريق آخر اسمه فريق عقلنا الأخضر . هل سمعت به من قبل ؟

ـــ كلا ..!!

ـــ هل تعرف ما عمل هذا الفريق ؟

ـــ كلا .. !!

ـــ عمل هذا الفريق يا عمو هو تنظيف العقول من النفايات الفكرية و الرواسب العقلية المتعفنة التي تضر بالبيئة العقلية .. و منع إلقاء الأوساخ الفكرية التي تثير الفرقة و الاقتتال و الدمار و الحروب بين بني البشر و التخلف و العزلة و التحجر .. فلا نجعل عقولنا سلة مهملات تلقى فيها هذه النفايات التي لها سلة مهملات خاصة بها .. و هدف فريق عقولنا الخضراء أن لا نجعلها مزبلة لكل من هب و دب ، بدءاً من أقرب الناس إلينا إلى الأبعد و لن يكون كوكبنا أخضر إذا لم تكن عقولنا خضراء . فهل تعرف كيف نفعل ذلك ؟؟



ـــ أظن عمو أن ذلك يكون بأن لا نصدق كل ما نسمعه ، بل نفكر فيه أولاً .

كانت إجابة ذكية و واعية من طفل لم يتجاوز العاشرة من عمره .. نظرت إلية بفخر و إعجاب و قلت له : إذن يا عمو .. يسعدني أنضمامك إلى فريق عقلنا الأخضر .

أجاب ببراءة : و أنا عمو يسعدني أيضاً انضمامك إلى فريق كوكبنا الأخضر .

مساواة المرأة مع الرجل .. ظلم للمرأة [1]



دائماً و أبداً ، لا زلنا نسمع مقولات و شعارات تطرح فكرة مساواة المرأة مع الرجل . و الحقيقة أنه طالما شغلت هذه المقولة ، فكر النقاد و الباحثين و المختصين على مدار سنين طويلة ، و تعصب لها دعاة حقوق الإنسان و دعاة تحرير المرأة و دعاة حقوقها . و هذه المقولات كانت تنطلق كلها من باب الظلم الذي تتعرض له المرأة و بالأخص من قبل الرجل .

في الواقع إن مفهوم و مقولة مساواة المرأة مع الرجل ، بالشكل الذي يطرح الآن و كما يتم عرضه و تسويقه من قبل بعض مواقع الإنترنت و بعض الفضائيات ، و من خلال اطلاعي على الدراسات و الأفكار التي تناولته ... هو مفهوم غامض بعض الشيء و لا يمكن تأويله أو الحكم

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٢٧ .

عليه بالسلب أو الإيجاب ، قبل أن نعرف جوانبه و المراد منه . و لا يمكن أخذه بالعموم كما يردد البعض بطريقة ساذجة دونكيشوتية . فإذا نظرنا إلى بدايات طرح مفهوم مساواة المرأة مع الرجل ... نرى أن الرأسمالية الأوروبية و التي تمثلت بالبرجوازية الصناعية ، قد طرحت مفهوم مساواة المرأة مع الرجل قبل قرنين أو ثلاث من الزمن ، و ذلك لكسب المزيد من اليد العاملة ، نظراً لنقص اليد العاملة الذكورية في الحروب و المستعمرات . فطرحت مفهوم حرية المرأة و عدم بقائها في المترل و أنها من باب المساواة مع الرجل ، يجب أن تكون معه في المصنع و تعمل إلى جانبه ، فكسبت البرجوازية الصناعية آنذاك المزيد من اليد العاملة . هنا كانت الغاية من مساواة المرأة مع الرجل هو زيادة الإنتاج . و لكن هل نستطيع أن نقول بالمجمل أنه لا يجوز وجود المراة في المصنع إلى جانب الرجل ؟؟؟ بالطبع لا ، لأنه يجب معرفة الغاية و الهدف من ذلك قبل كل شيء .

من ناحية أخرى فقد طرحت بعض النظريات و المواقع مقولات أخرى لمفهوم مساواة المرأة مع الرجل ، من باب الظلم الذي تتعرض له المرأة و من جراء الجهل الذي لازمها في مجتمعات عديدة ، فأصبحت عاطلة و مشلولة . فمنعت من حق العمل و الحق التعليم و حقوق أخرى منحتها إياها الطبيعة و الشريعة . و كما استغلت البرجوازية الصناعية قبل قرون ، المرأة في العمل ، استغلت بعض تلك المجتمعات المرأة في العمل (في الحقول و الزراعة) و لكنها بنفس الوقت حرمتها من حقوقها الأساسية . و إذا عدنا مرة أخرى إلى مقولة مساواة المرأة مع الرجل و تأملنا فيها ، لوجدنا أنها لا تمت بصلة إلى مفهوم حقوق المرأة أو على الأقل ليس بينهما هذا الرابط القوي .
فمفهوم حقوق المرأة ما لها و ما عليها شيء ، و مساواتها مع الرجل شيء آخر .



فهؤلاء الذين يطرحون قضية (مساواة المرأة مع الرجل) لا يقدمون أية تفصيلات أخرى سوى العنوان البراق نفسه و جلهم يطرحونها تماماً كما هو العنوان أي المساواة أي المرأة رجل و الرجل مرأة

لقد أصر بعض دعاة الفكر ، على مفهوم مساواة المرأة مع الرجل و اعتبروه أنه يكفل للمرأة كل حقوقها ، و لكن للأسف فإن مساواة المرأة مع الرجل هو ظلم للمرأة ... إن مساواة المرأة للرجل يعني وضع المرأة على قدم المساواة مع الرجل في كل شيء ، في الحقوق و الواجبات . بينما هؤلاء ركزوا على الحقوق و تناسوا الواجبات ... لأن هذه المساواة المزعومة تعني ضمن ما تعنيه ، أن تقوم المرأة مقام الرجل و تعمل كل ما يعمله هو من خدمة إلزامية و أعمال شاقة و خطرة أو أعمال جسمانية لا تناسب هيكلها الجسدي ... و بنفس الوقت تبتعد عن القيام بواجباتها الأساسية كالتربية التعليم ... أذكر مرة انه كان عندنا في الجامعة فتاة تدافع دائماً عن المرأة و تتحدث عن مساواتها مع الرجل .. و في إحدى المرات كنا في محاضرة يلقيها أحد الباحثين الاجتماعيين و كان المدرج مملوء . فجاءت صاحبة المساواة فلم تجد كرسياً لتجلس عليه و بقيت واقفة . و بعد قليل أخذت تتمتم و تقول : أنه لقلة أدب أن يكون الشبان جالسين و الفتيات واقفات . فنظرت إليها و قلت لها : إن قلة الأدب يا آنسة هي أن تطالبي بمساواة المرأة مع الرجل ثم تأتي لتفرقي بين الرجل و المرأة بالجلوس على المقاعد و تعطي الأفضلية لها .

إن طرح موضوع مساواة المرأة مع الرجل هو مفهوم غير دقيق تماماً و تشوبه الملابسات . و قد يقول قائل إذا ما هو البديل عن المساواة ؟ فنقول : البديل هو حقوق المرأة .... أن تحصل المرأة على الحقوق التي وهبتها إياها الطبيعة و الشريعة و تأخذها كاملة غير منقوصة و ذلك من إطار دورها الأساسي المكلفة به .. تماماً كما الرجل الذي له دور هو الآخر ... عندما نطلب من المرأة أن تكون كالرجل فإننا نحملها فوق طاقتها و نصيبها بالغبن و الظلم و سوف يلحقها حيف كبير من جراء ذلك .

لا يجوز أن نطالب بمساواة المرأة مع الرجل ثم نأتي لنعيب على الرجل عدم الوقوف في الباص النقل الداخلي و إجلاس المرأة مكانه لأنها امرأة و هو رجل . أو نعيب عليه عدم تقديمها في طابور الانتظار في مكان ما لأنها امرأة و هو رجل . على المرأة أن تفهم جيداً أنها إذا أرادت المساواة مع الرجل كما يريدها لها هؤلاء ، فإن عليها أن تتحمل مسؤولية هذا المساواة كاملة و أن تتحمل الظلم الكبير الذي يقع عليها و هو ظلم ليس أقل من الظلم الذي يدعيه هؤلاء بأنه واقع عليها من قبل الرجل . و غير ذلك هو أمر يقع في خانة ظلم الرجل لا المرأة .

مسلك الأدب[1]



زعموا أن الخليفة هارون الرشيد كان يتمشى ليلاً مع وزيره جعفر البرمكي في حديقة القصر الملكي . و جعفر البرمكي هذا ، كان من أبرع رجالات الدولة و خيرة سائسيها و مدّبّريها ، و رجلاً حكيماً عارفاً مجرِباً . سأله هارون الرشيد : قل لي يا جعفر .. ما خير ما يرزق به المرء ؟؟ تفكر الوزير الحكيم برهة ثم أجاب : عقل يعيش به .. فقال هارون الرشيد : و إن عَدِمه ؟؟ أجاب الوزير الخبير بعد تفكر : فمال يستره .. سأله هارون : فإن عَدِمه ؟؟ فكر الوزير لحظة ثم قال : فأدب يتحلى به . عاود هارون الرشيد السوآل : فإن عَدِمه ؟؟؟ فكر الوزير مرة أخرى و طال تفكيره بعض الوقت ثم نظر إلى الخليفة هارون الرشيد و قال بهدوء : فصاعقة تحرقه و تريح العباد منه . (انتهى) .

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠١٠/١٠/١٦ .

جواب محكم و لا شك .. يعني شخص لا عقل و لا مال و لا أدب . مثل هكذا إنسان ، شيء طبيعي أن يكون عالة على المجتمعات و على البشرية .. و للأسف الذي من المؤسف أن يؤسف له .. وجود مثل هكذا أشخاص بكثرة اليوم بين ظهرانينا .. حيث أصبحوا زُرافات و أمم أمثالنا في الشوارع و الجادات و الفضائيات .



بالعودة إلى المحاورة ، يُلاحظ أن الوزير قد ابتدأ بالعقل و انتهى بالأدب ، و جاء المال فاصلاً ما بين الاثنين ، و في ذلك عبرة قوية و حكمة معبرة تقع على وجوه عدة منها أن العقل قد جاء في المرتبة الأول ، فهو أساس كل شيء و به يُحكَم على المرء و يحاسَب ، و العقل زينة لصاحبه و هو ملازم للأدب .. قيل أن الله (عز و جل) إذا أراد أن يزيل عن عبد ما ، نِعَمه التي أنعم بها عليه ، فإن أول ما يبدأ به هو عقله .. و قيل أن الله عز و جل عندما أهبَطَ آدم إلى الأرض ، أمر جبريل (ع) أن يتبعه و يخيّره بين خِصال ثلاث .. العقل و الدين و الأدب ، فأتى جبريل (ع) آدم و قال له : يا آدم .. إن الله أمرني أن أخيرك بين ثلاث ، فاختر واحدة منها و دع الاثنتين ، قال : و ما هي يا جبريل ؟ قال : العقل و الدين و الحياء (الأدب) .. فقال آدم : إني اخترت العقل . فقال جبريل للدين و الحياء : انطلقا و دعاه .. فقالا : يا جبريل إنّا أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان .. قال جبريل : أنتما و شأنكما .. ثم عرج .هذا دليل على وجوب التزام العقل و الأدب معاً لا انفصام لهما .

العبرة الثانية هي المال الذي جاء في المحل الثاني بين العقل و الأدب .. هذا معناه أن العقل و الأدب هما جناحي المال و ظهيريه الأيمن و الأيسر ، و من دونهما معاً ، يصبح المال عاراً على صاحبه و شينة له و موضع شبهة و احتقار .. من أين اكتسبه و أين و كيف ينفقه . و للأسف ..

الأسف الشديد ما أكثر هؤلاء في الحياة العامة و ما أكثر مظاهرهم المتجلية في كل مكان و موضع . و وجود المال في المرتبة الثانية هو تعبير بليغ حول ضرورة أن يكون محكوماً بالعقل و الأدب .

ثالث العِبر .. هو الأدب الذي جاء في المرتبة الأخيرة ، و وجوده في المرتبة الأخيرة ، لعله يكون أقوى العبر و أقوى هذا الأثافي الثلاث . و عبارة (أدب يتحلى به) دليل على تغطية الأدب لما سبقه من خصال .. عقل يعيش به ، العقل أساس حياة الإنسان .. مال يستره ، المال سترة للشخص يقيه شر الحاجة للناس .. إذا انتفى العقل ، فالمال قد يعدل الكفة إذا اجتمع مع الأدب .. أدب يتحلى به ، الأدب هو الحصن الأخير للمرء حيث إمكانية العقل و المال محدودة . فيأتي الأدب و يغطي نقص العقل و المال ، بينما العقل و المال لا يستطيعان تغطية نقص الأدب و كل كلام خلاف ذلك ، يدخل في نطاق النفاق و شهادة الزور . إذا فقد الشخص العقل و المال و كان يتحلى بأدب جم سواء بالفطرة و الغريزة أو بالتربية ، فإن أدبه يغطي على نقيصتيه هاتين .

تجد إنسان في أدنى درجات الثقافة و التعليم أو ذو قدرات عقلية بسيطة أو معاق ذهنياً . لكنه يتحلى فطرةً أو تربيةً ، بأدب جم و ذوق رفيع .. و أنا أعرف أشخاص كثر بهذه الصفات .. أشخاص لم يتحصلوا في أعلى مستويات التعليم على الشهادة الابتدائية و منهم أميين لا يفكّون الحرف .. أوضاعهم المالية سيئة و منهم شبه المعدم ، لكنهم قمة في الأدب و الأخلاق و حسن التعامل و الوعي لا يوجد عند البعض من حملة الشهادات العلمية أو المكانة الاجتماعية . قد يقول قائل : ربما هؤلاء يتصنعون الأدب و الأخلاق نتيجة لعوزهم و حاجتهم للناس . لكن لا .. أنا قد راقبت هؤلاء و تأكدت بنفسي أن الأدب و الأخلاق هو طبع متأصل فيهم .. بالتربية أم بالفطرة . فضلاً عن ذلك فإن المتصنع أو المدعي لابد من أن ينكشف و يزول تصنعه إن عاجلاً أم آجلاً . و فضلاً عن ذلك أيضاً فإن تكلّف الأدب و الأخلاق هو خير لصاحبه من تكلف أمر آخر و قديماً قيل : (تكلّف الأدب خير من تكلّف العقل).. لأن تكلف العقل هو جهل مُرْدٍ لصاحبه و مُزْرٍ له ، بينما تكلف الأدب مجمِّل له و إن كان تكلفاً .. و ربما هو اعتاد الأدب و ألفه فأصبح من طباعه . الأدب أنواع .. أدب المعاملة .. أدب الحوار .. أدب التخاطب و المخاطبة (حتى على مستوى البريد الالكتروني) .

تجلس أو تتخاطب مع أناس يفترض أن يكونوا بحكم موقعهم العلمي أو الاجتماعي أو المالي .. الخ ، يمتلكون ناصية الأدب و الذوق العام ، و لكن تكتشف بعد حين من الوقت أو الزمن أن هؤلاء يفتقرون إلى أدنى قواعد الأدب و الأخلاق العامة و أنهم مغرورن متكبرون .. عبارة عن طبول فارغة اعتمدوا مواقعهم العلمية و المالية كواجهة يتعالون فيها على الناس . و عندما تدخل معهم في نقاش فكري أو علمي أو حتى ثقافي عام لا بل حتى مجال تخصصهم العلمي ، تكتشف أن مخزونهم الثقافي و الفكري و العلمي شبه معدوم و ينتابك الشّك في الطريقة التي تحصلوا فيها على شهاداتهم العلمية و مراتبهم المالية .

للأدب و الأخلاق قواعد و أصول ثابتة على مر الزمن و لا تتغير .. فمن أدب الحوار و الكلام ، أن تستمع إلى الشخص المتكلم حتى ينهي كلامه و أن يكون كلامك هادئاً رزيناً و أن تُقْبِل على المتكلم بوجهك و تعبر له عن تفهمك لكلامه و ليس بالضرورة قبوله (التفهّم غير القبول) وأن تجلس أمامه بطريقة مؤدبة متواضعة .



الأدب هو التعبير عن احترامك للشخص الذي تتعامل معه بطريقة من الطرق . فمثلاً من أدب المخاطبة عبر الرسائل العادية أم الالكترونية و سواء أكنت مرسِلاً أم مرسَل إليه .. أن تحيي المخاطب بتحية رسمية أو خاصة ، و أن تذكر اسمك (أنا فلان الفلاني) و عنوانك و رقم هاتفك (حسب العلاقة و طبيعة الرسالة).. و تذكره هو بالاسم ، و أن تشكره على رسالته .. و في حال وصلك منه طرد أو ملف مرفق ، أن تعبر له عن امتنانك و تشعره باستلامك الطرد أو الملف المرفق .. و إجمالاً .. أن تخاطبه بطريقة تشعره فيها باحترامك له حتى و إن كنت لا تعرفه لأن احترامك له هو من احترامك لنفسك . و في حال كنت تخاطب جهات رسمية أو ذات طبيعة مهنية معينة ، أن ترفق ملفات تعريف عن نفسك (شهادات خبرة – وثائق رسمية أو غير رسمية – استطلاعات صحف – أعمالك .. الخ) . ليتأكد الشخص من هويتك و مصداقيتك .

في هذا السياق أورد حادثتان حصلتا معي على سبيل المثال لا الحصر ، حول أدب التخاطب :

١) ـــ أذكر أيام المراهقة و كنت يومها في السابعة عشر من العمر أني كنت أتصفح مجلة عن عالم السيارات و كان فيها موضوع عن سيارة المرسيدس و صناعتها و في نهاية المقال عنوان شركة مرسيدس و مصانعها في شتوتغارت في ألمانيا الغربية آنذاك .. أنا كشاب مراهق ، استهواني الموضوع ، فقمت من باب التسلية بإرسال رسالة إلى مصانع مرسيدس في شتوتغارت أطلب فيها معلومات عنها و في داخلي أنه لن يتم الرد على رسالتي و سيتم أهمالها ، وبعدها بأيام عدة نسيت الموضوع ...

مرت فترة ثلاث أشهر تقريباً عندما نزلت إلى مبنى البريد لأتفقد صندوق البريد ، فعثرت فيه على ورقة من إدارة البريد تخطرني بوجود طرد لي ، استغربت الموضوع و كنت قد نسيت أمر رسالة ألمانيا تماماً . صعدت إلى الطابق الثاني حيث قسم الطرود و أنا مستغرب تماماً و متسائل عن طبيعة و ماهية محتوياته و مرسله .. كان الطرد من شركة مرسيدس العالمية ، و هو عبارة عن كاتالوك مصور عن تاريخ شركة مرسيدس و منتجاتها ، من السيارات مروراً بالشاحنات وصولا إلى البولمانات ، و مرفق برسالة من مدير شركة مرسيدس بالذات يخاطبني فيها باسمي بكل أدب و احترام و يشكرني جزيل الشكر على رسالتي و امتنانه الكبير على اهتمامي و يختمها بأمنيته أن يكون قد لبى طلبي و أن أكون مسروراً بالكتاب المصور . و قد أنهى رسالته بكتابة اسمه (المخلص لكم فلان .. مع الاحترام) .

٢) ـــ أذكر أيضاً أنه بعد سنوات عدة من هذه الرسالة (و بطلب من صديق لي) قمت بمخاطبة شركة (كاتربلر) للآليات الثقيلة ، و قد جاءتني بعد شهرين رسالة من مديرها أيضاً يشكرني على رسالتي و يخاطبني بكل أدب و احترام و يعتذر عن إمكانية بيع الآليات و قطع غيارها إلا عن طريق الفرع الإقليمي و يقول أنه يوجد فرع إقليمي لمنطقة الشرق الأوسط بعنوان كذا .. و قد أنهى الرسالة متمنياً لي أطيب الأمنيات و ختمها بكتابة اسمه مع تقديم

الاحترام . بعدها بشهرين وصلني كاتالوك هدية من شركة (كاتربلر) العالمية .

إن احترام هذين الشخصين لي (وغيرهما كثر) نابع حقيقة ، من باب احترامهما لنفسهما و موقعهما بالدرجة الأولى ، علماً أنهما لا يعرفاني .. هذا الشخص احترمني في مخاطبتي بالرسالة لأنه شخص يحترم نفسه و موقعه و كذا الآخر فعل ذلك لأنه شخص يحترم نفسه و يحترم موقعه .. لأنه شخص يعرف أصول الأدب و أصول التعامل مع الناس . و الكثير من الرسائل التي تردني تتفق و آداب المراسلة و أصولها .

بالمقابل تتعامل مع أشخاص يفترض بهم أصول التعامل و المخاطبة ، فتجد أنهم يفتقرون إلى أدنى أصول التخاطب و أدب الحوار .. شخص يرسل لك رسالة باسم مستعار .. شخص ترسل له رسالة فيتجاهلها تماماً و لا يرد عليك .. شخص تخاطبه برسالة وترفق معها ملفات التعريف خاصتك ، فيقول عنك هذا رجل مغرور و يريد أن يظهر نفسه (ملفات التعريف هي ليتأكد المرسل إليه من شخصية و مصداقية المرسل و جديته) .. شخص تخاطبه برسالة لتكتشف بعد فترة أنه يسأل عنك أوباش الناس بعد أن يرد بطريقة غير لائقة .. شخص تخاطبه برسالة فيرد عليك بكلمتين فقط و أحياناً بكلمة واحدة (نعم – شكراً – لا بأس) و لا يذكرك بالاسم . و آخر رسالة وصلتني من أشخاص من هذا النوع مسؤول في إحدى دور النشر قال فيها كلمة واحدة فقط هي (نعم) .. يعني هو مشغول جداً بحل قضايا الشرق الأوسط و القضايا العالمية السياسية و الاقتصادية و لهذا هو يرد بسرعة و اختصار . فبعثت له برسالة قلت فيها : سيدي الكريم رسائلكم التي ترسلونها طويلة جداً و آخر رسالة استلمتها منكم كانت طويلة بحيث أنني بقيت ثلاثة أيام حتى انتهيت منها و قد انتهيت من قراءتها الساعة الثالثة فجراً ، و لذلك أرجو منكم عدم إرسال أية رسائل بعد الآن لأن عيوني تتعب من قراءتها و قد أصاب بالعمى . و من يومها لم يرسل أية رسالة ، من غير شر .



شخص آخر من إحدى المجلات الثقافية العربية راسلني لفترة طالباً بعض من مؤلفاتي لدراستها و خلال تبادل الرسائل لم أستطع أن أعرف لا اسمه و لا منصبه و لا جنسه و في آخر رسالة سألته : سيدي الكريم ممكن أن أعرف من يخاطبني ؟؟!!! فأرسل لي رسالة تحتوي على بطاقة تعريف للمجلة التي يعمل بها .. فأرسلت له : سيدي الكريم أنت ذَكَرْ أم إنثى ؟؟؟!!!! .. و عندما ولدتك أمك .. أما أسمتك باسم أم أنك بلا أسم ؟؟؟!!! .. و أيضاً من غير شر .. هذا يوم و ذاك يوم .



إن مسلك الأدب في التعامل و المخاطبة و الحوار ، هو مسلك إنساني بالدرجة الأولى و تعبير عن علم و ثقافة و إدراك حامله و المتصف بصفاته . و إن تكلف و اصطناع الأدب لهو خير من تكلف و اصطناع العلم و الغنى و القوة و الشهرة . فتكلف العلم ، جهل مُزرٍ لصاحبه .. و تكلف المال جهل مفقِر .. و تكلف القوة جهل مُرْدٍ . إلا الأدب فإن تكلّفه ستر لصاحبه و كما ذكرنا من قبل ، ربما ألفه و استأنسه و اعتاد عليه فأصبح شيمة من شيمه و صفة من صفاته .

قال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .. تعلموا أدب الدين قبل الدين ، و من لا أدب له لا دين له .. و نحن نضيف .. تعلموا أدب العلم قبل العلم و أدب الفكر قبل الفكر و أدب الثقافة قبل الثقافة و أدب الفن قبل الفن .. فمن لا أدب له لا علم له ولا فن و لا فكر و ثقافة

نهاية نقول .. ما دَخَلَ الأدب في شيء إلا زانه ، و ما خرج من شيء إلا شانه .

و نقول أيضاً .. المزايا الخُلقية تغطي العيوب الخَلقية و العيوب الخُلقية تغطي المزايا الخَلقية .

مسلك التبرير[1]



التعامل مع الأشخاص في الحياة اليومية تحكمه غالباً و عادة عوامل كثر .. كالوضع الاجتماعي أو التحصيل الثقافي و العلمي أو الحالة المادية و الاقتصادية أو حتى القوة المادية و المعنوية .. ذلك كله يندرج تحت ما يعرف بالمظاهر بغض النظر عن مضمون الشخص الذي هو في باطنه ربما يكون مناقضاً لما هو ظاهره . و مع هذا يعامل الشخص وفقاً لسوية موقعه الاجتماعي السابق المحكوم بالعوامل الآنفة الذكر . حيث أنه كلما كانت السوية مرتفعة ، عومل الشخص بكل

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠١٠/١/١٧ .

مظاهر الاحترام و اللباقة و الكياسة و التبجيل و ما يندرج في أطرها من مجاملة و تملق و رياء ، سواء أكان ذاك الشخص مستحقاً لموقعه العالي عن جدارة و حق ، أم لم يكن كذلك .

و ما يستوجب الذكر هنا ، هو أن مناقشة الفكرة المراد طرحها لا يتعلق بعامل المظهر أو المكانة و الصفة المكتسبة التي يتمتع بها الشخص ، بل بالنتائج السلبية التي تترتب عن التعامل المزيف مع الأشخاص ذوي المكانات و المراتب العالية بغض النظر عن ماهيتها و بغض النظر عن حقيقة مصداقيتها (مزيفة أم أصيلة) .

عموماً تبقى النتائج السلبية في إطار غير مؤذ مادياً أو معنوياً و ضمن مجانبتها للأخلاق العامة طالما بقيت محصورة في حظيرة التملق و الرياء و المداهنة و المديح الكاذب الخارج عن نطاق المألوف و الفوق ما يستحق الشخص . و تبقى ملازمة لصفة السلبية مادامت قد بقيت في المجال المذكور . لكنها تنحو إلى الخطورة و الإساءة عندما تكون المداهنة و الرياء و التملق فيما يتعلق بالحقوق العامة و حقوق الأشخاص . و هي قضية تأخذ مجراها في معظم ميادين الحياة العامة بدءاً من الأسرة وصولاً إلى حواضر المجتمع الواسعة و أطيافه المختلفة . ذاك ما يدخل في حكم القوي على الضعيف . و ذاك ما هو أيضاً وجه من وجوه شهادة الزور .

القضية هي بكل بساطة .. تبرير الخطأ .. مهما ضعف أو عظم ، لشخص نافذ أو متمتع بمرتبة معينة .. طمعاً في فائدة ترتجى أو اتقاء لضرر يقع .

تصطدم (فرضاً) مع شخص ما في قضية ما ، سواء أكانت قانونية أم عرفية أدبية .. و يتسبب لك فيها بضرر ما صغيراً كان أم كبيراً .. و يكون فيها هو المذنب ، و يكون واضح خطأه و افتراؤه و تجنيه عليك و تعديه لقواعد الأصول و التعامل و الأدب و الأخلاق . و مع ذلك و بالرغم من الأضرار التي سببها لك و التي تكون أحياناً فادحة ، تجد من يبرز لك ليبرر تصرف و خطأ هذا الشخص بطريقة ودية مموهة بعامل الخير و حسن النية و الصلح المجرد البحت ، فقط لأن الشخص المفتري عليك أو المخطئ بحقك يتمتع بقيمة اجتماعية معينة لا تمتلكها أنت . و من باب محاولة الإصلاح و فعل الخير ، فينصب نفسه محضراً للخير متنطحاً لإصلاح ذات البين. و في أحسن الأحوال يكون حكمه هو المصالحة فقط و المصافحة ، متجاهلاً موضوع الاعتذار أو رد

الحقوق في حال وجدت . و في أسوأ الأحوال يقوم بتحميلك كطرف مظلوم أو معتدى عليه ، كامل المسؤولية و يبرئ ساحة الطرف الآخر المعتدي ، من كل مسؤولية . ذلك كله ضمن تبريرات معسولة واهية . نتيجة لمصلحة معينة أو نتيجة لجهل و سذاجة المتكلف ما ليس هو أهل له . بطرق ملتوية يمرد فيها على النفاق . ذاك ما يعرف بنظرنا بمسلك التبرير .. و المقصود هنا ، تبرير الخطأ اللامبرر له .. تبرير الخطأ المقصود ، وصولاً لإخفاء الحقيقة و تطبيق الحق . و هو الزور بعينه .

إن مسلك التبرير يتخذ وجوه عدة أبرزها أن يبرر شخص لآخر ، انحرافاً معيناً أو خطأً ما . أو يبرر شخص لنفسه انحرافاً أو خطأ قام به هو نفسه . و هو أمر قد درج عليه الآن الكثير من الأشخاص و الجهات . هو يفتح الباب واسعاً عريضاً أمام مفسدة كبيرة تحيق بالمجتمع و أخطار تحدق به و مظالم تصيب أناس فيه . و تصل خطورة مسلك التبرير إلى كونها قد تطال حتى الجرائم الجنائية و الإنسانية . و هو بدوره ما يفتح الباب أيضاً واسعاً عريضاً أمام تمادي الظالم بظلمه و المسيء لسوء خلقه و تصرفه ، و المجرم لإجرامه ، و تعميم ذلك على شريحة كبيرة من أفراد المجتمع . حيث أن تبرير الخطأ ، يؤدي حتماً إلى تثبيت وجوده و إضفاء الشرعية عليه و قوننته و لو من باب اعتباره نوع من المهارة و الحذاقة .

بنظرنا أن الخطأ أو الانحراف المسلكي ، مهما كان نوعه لا يمكن و لا يجوز السكوت عنه و لا يمكن تبريره و لا بأي شكل من الأشكال أو إضفاء مسحة منطق و تجاوز و تبرير ، تمهيداً للقبول به . بل يجب رفضه و محاربته . فالتساهل بشأنه ، مؤداه نهاية المطاف ، ضياع الحقوق و تثبيت المظالم و شيوع الفوضى و الفساد .

طبقاً لما سبق ، أولت الأديان السماوية اهتماماً بالغاً بقضايا العدل و حقوق العباد و المظالم و الخطأ و التعدي على الغير مهما كانت سويته ، أكان مادياً أم جسدياً أم اعتبارياً أم معنوياً . و جعلت ذلك من أساس الدين و لب الشريعة . و في الإسلام ، لا يستقيم دين امرؤ ما لم تتوفر لديه تلك الخصلة و لا يستوف حقه و يستكمل إيمانه إلا بوجود هذا الشرط . و كثيرة هي

الآيات القرآنية التي تحدثت عن مفهوم العدل و قول الحق و تجنب الممالأة و الزيغ في توصيف الخطأ . و منها على سبيل المثال لا الحصر :

- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (المائدة:٨) .

- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً) (النساء:١٣٥) .

توصّف الآيتان السابقتان بدقة مفهوم مسلك التبرير الخاطئ و الزيغ في الحكم مراعاة لأعراف و مقامات اجتماعية . و ما يسترعي الانتباه ، هو أن هاتين الآيتين قد جاءتا بصيغة الأمر المباشر و ليس الحض أو التشجيع فكلمة (كونوا) تعني الأمر الواضح المباشر و الصريح .. و عندما يقول الله تعالى (كونوا) فذلك يعني : نفذوا هذا الأمر (نفذ ثم اعترض) . و عبارة (هو أقرب للتقوى و اتقوا الله ...) تعطي الدلالة على الارتباط المباشر بالشريعة و الدين .

- (... فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) (الحج:٣٠) .

لاحظوا الربط بين الرجس و الشرك بالله و بين قول الزور .

و الزور يندرج في إطاره تبرير الخطأ المقصود و التساهل فيه ، فهذا نوع من أنواع . الزور جاء في لسان العرب : و قد ازْوَرَّ عنه ازْوِراراً و ازْوارَّ عنه و تَزاوَرَ عنه تَزاوُراً، كله بمعنى: عَدَلَ عنه و انحرفَ. و عَنَقٌ أَزْوَرُ: مائل. و التَّزْوِيرُ: تَزْيين الكذب . و الزُّور: الكذب و الباطل، و هو شهادة الباطل . و قوله تعالى (تزاور عن كهفهم) أي تمايل عنه، و لذا قيل للكذوب زور لأنه يميل عن الحق، و يقال تزاور عنه تزاوراً أي عدل عنه و انحرف .

- (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) (الأعراف:٢٩) .

- (وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (هود:٨٥) .

و لعل أوضح آية تعبر عن أولئك الأشخاص الذين يسلكون مسلك التبرير و تصفهم بالمنافقين ، هي الآية :

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً) (النساء ٦١ - ٦٢) .

كذا الأمر في التاريخ الإسلامي وردت حوادث عن شخصيات إسلامية رفضت مسلك التبرير ممالأة لأمر معين مهما كبر و عظم شأنه .

جاء في صحيح البخاري " أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي كانت من أشراف قومها وسرقت . قالوا من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا ومن يجترئ عليه إلا أسامة ابن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه أسامة فاحمر وجه الرسول من الغضب و قال (أتشفع في حد من حدود الله ؟؟!!) . ثم قام فاختطب ثم قال (إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد و أيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) " .

و لعل في قصة الغلام الذي قتل في صنعاء على عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، عبرة في ذلك ، كونه شهد واقعة زنا ، خيف منه أن يفشيها و يذيعها . و البعض قال هو تاجر كان عائداً من صنعاء بتجارة فتعرض له مجموعة من الشبان ممن هم أبناء لوجهاء قومهم و ذبحوه أمام بناته و سلبوا أمواله . و عندما وصل الأمر إلى الخليفة عمر ، أمر بقتلهم جميعاً و كانوا سبعة . فقيل له أنهم أبناء وجهاء قومهم و حبذا لو قتل بعضهم و عف عن البقية و أن آبائهم مستعدون لدفع الدية و بذل الأموال الطائلة للعفو عن أبنائهم فرفض رفضاً قاطعاً و قال قولته الشهيرة الرائعة : و الله لو تمالأ عليه أهل صنعاء جميعهم لقتلتهم به جميعاً " .

و في التوراة ورد ما يعبر عن قول الحق و نبذ الزور و اعتباره من الموبقات . و من ذلك :

- (شاهد زور يفوه بالأكاذيب و زارع خصومات بن الأخوة) (سفر الأمثال ٦/١٩) .

- (شاهد الزور يهلك و الرجل السامع للحق يتكلم) (الأمثال ٢١/٢٨) .

و من جملة الوصايا الرئيسة في التوراة (لا تشهد على قريبك شهادة زور) (سفر الخروج ٢٠/١٦) .

- (تسمع لصوت الرب إلهك و تصنع الحق ...) (سفر الخروج ١٥/٢٦) .

- (و اقضوا بالحق بين الإنسان و أخيه و نزيله) (سفر التثنية ١/١٦) .

و لعل الآية التالية تعبر عن رفض مبدأ التبرير للأخطاء (لا ترتكبوا جوراً في القضاء ، لا تأخذوا بوجه مسكين و لا تحترموا وجه كبير . بالعدل تحكم لقريبك) (سفر اللاويين ١٩/١٥) .

كذلك وصايا المسيح التي وردت في الإنجيل ، جاءت إحداها عن قول الزور و الاستنكاف عن الحق و ممالأة الظالم على المظلوم (قال يسوع : لا تقتل .. لا تزن .. لا تسرق .. لا تشهد بالزور) (متى ١٩/١٨) .

لاحظوا الربط بين مفهوم الزور و بين القتل و السرقة و الموبقات الأخرى . لأن تبرير الخطأ و الجريمة يؤدي حتماً إلى تشريعهما و تشجيع فاعلهما على المضي بهما و استمراءهما .

ما يتعلق بموضوعنا هذا .. لفتت نظري عبارة رائعة للإمام علي بن أبي طالب يقول فيها " إذا أقبلت الدنيا على أحد ، أعارته محاسن غيره .. و إذا أدبرت عنه ، سلبته محاسنه " و معنى ذلك أن (زيد من الناس) يمتلك على سبيل المثال أربعة صفات حقيقية متأصلة فيه و ثابتة مهما تغير وضعه ، و هي .. كاتب و ذكي و مثقف و صادق . و لا يمتلك غيرها . فإذا أقبلت الدنيا عليه أي أصبح من الأشخاص ذوي المال و الجاه و السلطان ، يصبح في عرف الناس زيد الكاتب و الذكي و المثقف و الصادق و الكريم و النحات و الرسام و الجميل و الوسيم و القوي و .. و .

أما إذا أدبرت الدنيا عن زيد أي أصبح فقيراً معوزاً ، ذهبت عنه كل تلك الصفات الزائفة التي منحه إياها الناس زوراً و بهتاناً ، و سلبوه أيضاً صفاته الموجودة فيه و التي لا تتغير و التي لم يعطوه إياه من الأساس ، بل كانت ملكه هو كطبيعة فطرية . فيصبح زيد الجحش .. أو زيد أبو دنب .. أو زيد الدب .

نهاية المطاف نقول .. إن تبرير الخطأ و الجرم هو الوجه الآخر للجريمة .. و القائم بهما و فاعلهما ، هو الوجه الآخر للمجرم . و كل تبرير للمخطئ المتعمد القاصد لخطأه و جرمه و المستمر فيه ، تارة بدعوى حسن النية و تارة بدعوى الصلح الغير متضمن رد الحقوق و المظالم ، و تارة بدعاوٍ أخرى ، هو شهادة زور حقيقية واضحة لا جدال فيها و مفسدة في الأرض أي مفسدة .

مع السفير الأمريكي (قصيصة صغيرة)[1]



زعموا أن رجلاً في إحدى بلدان الله الواسعة كان يكره أمريكا جداً و يهاجمها دائماً في جلساته و قعداته .. لا يترك لها شارة و لا واردة إلا و يشتمها و يسبها و يبرز كل عيوبها و نقائصها . في ساحات الوغى الخطابية هو ليث ضرغام و على المنابر هو سبع يزأر ، كله ضد أمريكا ، ينعتها بأبشع الصفات و الأقاويل ، و في اللقاءات الصحفية هو بطل وطني يحارب كل ما هو أمريكي و يبين العيوب و النقائص و الفضائح في أمريكا و إدارتها . في المحافل الاجتماعية و الحياة العامة هو

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠٠٩/٤/١٥ .

ضد كل ما هو أمريكي بدءا من البضائع .. مروراً بالشعارات و انتهاء بالرموز و القيم مهما كانت . ليصل الأمر إلى اتهام كل ما لا يعجبه و من لا يعجبه بالعمالة لأمريكا .

و في ليلة ليلاء وصلت الشتائم و السباب لأمريكا بهذا الرجل إلى حد تناهت به إلى أسماع السفير الأمريكي في بلده ، فبعث السفير بأشخاص معينين إلى هذا المناضل العتيد و قاموا بخطفه أو جلبه و ما إلى ذلك ، و أحضروه أمامه موجوداً .. نظر السفير إليه و قال له باستغراب : لك عمي أنت ليش عم بتهاجمنها و تسبنا و تشتمنا في كل حين و مين ؟؟

أجاب الرجل باعتداد : لأنكم مصدر الشر .. و أعداء الشعوب المناضلة و أعداء الإنسانية و .. و .. و تريدون السيطرة على العالم و إفقار الشعوب و ...

ــ السفير مقاطعاً : بالرغم من اختلاف وجهة نظري مع وجهة نظرك ... و لكنك وصلت إلى حد الهوس .. يعني ليس لك عمل غيرنا واضعاً دأبك بدأبنا و كأنه لا يوجد في العالم غير أمريكاً .

ــ الرجل متحمساً بغضب : هذا لأنكم ...

ــ السفير مقاطعاً مرة أخرى (و لكن بعربية ركيكة): شوف خابيبي (حبيبي) أنا موش آندي واكت (عندي وقت) أضيعه معاك ليس ، انتكاسا (انتقاصاً) من كدرك ، أنت أجل كدر . و لكن لمشاغلي الكاثيرة (ثم عاد ليتكلم بالانكليزية) باختصار أنا أقدم إليك عرض .

ــ الرجل محتداً بعنترية : أنا أرفض ... كرامتي و شرفي لا يسمح ...

ــ السفير مقاطعاً (بالعربية الركيكة إياها) : سماع خابيبي .. اسمعني يا روه مامّاه ... عرضي لك هو أن تأخذ منا كل شهر ألفين دولار مقابل أن تبقى كما أنت عليه تسبنا و تشتمنا ، فإيش رأيك عيوني ؟؟

ــ الرجل بدهشة : عجيب و لكن لماذا ؟؟ يعني أنا لم ....

ــ السفير مقاطعاً (باللهجة إياها) : خابيبي أنا متلك موش أهب أمريكا .. منيح ؟؟ إلك أندي شي ؟؟ و أنا عارف أنك فاكير (فقير) مؤدم (معدم) و خابب (أحب) أن أعملك ياها مهنة و وزيفة تاكل منها إيش (عيش) فإيش رأيك يا خابّوب (حبوب) ؟؟



فكر الرجل طويلا ، فكر و فكر ، ثم قُتِل كيف فكر و قال في نفسه : و الله إجت و الله جاها .. نشتم الأمريكان و نأخذ منهم فلوس .. لماذا لا ؟؟ مصلحة جميلة .. أبقى على وطنيتي و أكل خبز من وراءها و ممن ؟؟ من الأمريكان أنفسهم ... يا لغباء هذا الرجل و غباء الأمريكان .

ثم نظر إلى السفير قائلاً : أنا موافق يا باشا .

ــ حسناً (قال السفير ثم أشار بإصبعه إلى موظف واقف أمامه) فذهب الرجل و عاد بألفي دولار ، أعطاها للسفير الذي أعطاها بدوره للرجل قائلاً : هذه مرتب أول الشهر . و كل شهر يصل إليك مرتبك ... و لكن .. ولكن (حرف استدراك) بشرط أن تبقى كما أنت الآن و إياك أن تخفف من هجومك علينا لأنك ستفقد وظيفتك .. مفهوم خابيبي ؟؟ ابتسم الرجل بامتنان و قال : أمرك خابيبي .

مرت الأيام و الرجل مواظب على مهنته و سبابه و شتيمته لأمريكا و تخوينه للغير و نعته بالعمالة لأمريكا . كان يقوم بدوره خير قيام و على أكمل وجه .. يسب .. يشتم ... يصرخ .. يزأر .. يصيح ، يكسر .. يحطم .. يخطب . الخ . و في آخر الشهر يقبض ألفي دولار من السفارة الأمريكية .

هذا يا سيدي الكريم .. و في ليلة ليلاء و لسبب ما ، نشبت مظاهرة في بلده ضد أمريكاً فانتهز الرجل الفرصة و قام على رأس المظاهرة و أخذا يشتم و يصيح و يهتف بهستيرية ضد أمريكا .. اتجهت المظاهرة شيئاً فشيئاً نحو السفارة الأمريكية و الرجل محمول على الأكتاف في مقدمتها . و هاجم المتظاهرون مبنى السفارة بحماس منقطع النظير . فكان أن وصلت الحماسة بالرجل و هو

فوق الأكتاف أن نزل عن ظهر حامله و تسلق ظهر مبنى السفارة و وصل إلى العلم الأمريكي المرفرف فوقها و قام بتمزيقه على رؤوس الأشهاد .

في اليوم التالي تم استدعاء الرجل إلى السفارة الأمريكية لمقابلة السفير الأمريكي لأمر خطب وجلل . في المكتب استقبله السفير بوجه بارد جامد مع ملامح من الغضب الباهتة . وإلى جانبه وقف رجل يبكي و يتشهق كالأطفال ، تارة يعلو جعيره و تارة ينخفض بنشيج مؤثر .



ــ السفير الأمريكي : في الحقيقة يا سيدي لقد استدعيناك إلى هنا لنبلغك بأننا قد استغنينا عن خدماتك و أنه قد تم تسريحك . صاح الرجل بدهشة و حزن : و لكن لماذا ؟؟ ماذا فعلت ؟؟ ماذا جنيت ؟؟ ما هو السبب ؟؟

السفير : السبب هو أنك أخطأت في عملك وارتكبت خطأ فادحاً .

ــ الرجل : أي خطأ يا سيدي إنني أقوم بعملي على أكمل وجه ، يا رجل إنني أشتمكم بكل الكلمات النابية و العبارات المسيئة ، يا رجل لم أدع في كل قواميس العالم ، كلمة هجاء و قدح و ذم إلا و استعملتها ضدكم فما هو خطأي ؟؟

ــ السفير (ببرود) : العلم الأمريكي .

ــ الرجل : ما به العلم الأمريكي ؟؟

ــ السفير : لقد مزقته البارحة و فعلتك هذه كانت مشينة و قمة في إساءة التصرف .

ــ الرجل معتذراً : أنا آسف يا سيدي ... آسف جداً I am so sorry بليز لا تؤاخذني . لم أعرف أن العلم الأمريكي له هذه القدسية عندكم .. أنا ...

ـــ السفير مقاطعاً بالعربية إياها : تول بالك خبيبي .. هدني بمنانك .. لا هول و لا قوة إلا بالله . مهمة شك (شق) العلم كان مكلفاً بها هذا العبد الفاكير لله الواقف أمامك هون و كان رح يجيه منها خمسة ألاف دولار، هو رجل على باب الله و حابينا نفتحه مصلحة يتسبب بيها و يعيش منها فجيت هادرت جنابك و خربطت عليه الشغل و طارت عليه الخمسة آلاف دولار . يا هرام شوف كيف عم يبكي شكله بيقطع الكالب . روه عمو روه الله معك ماعد إلنا مصلحة معك . لك رروووووووووووح لك عمو .. أغي .. ترررررررر برررررر .



المصطلحات السياسية و السلطوية في القرآن[1]

(من كتابي الحكمة بين الإله و السلطان)



لم يرد في القرآن الكريم أي مصطلح أو كلام يدل على وجود الأمر السياسي السلطاني أو يعبر عنه ، و لم يرد هناك أي مدلول يأمر بإنشاء دولة إسلامية أو حتى سلطة إسلامية ، و لم ترد أية إشارة إلى القيام بالفتوحات باعتماد على حد السيف . و لم ترد أية إشارة على أن الإسلام قائم على الأمر أو السلطة السياسية . كذلك لم يرد أي شيء من شأنه الإشارة إلى دولة إسلامية أو كيان سياسي إسلامي أياً كان نوع هذا الكيان أو النظام . لا بل على العكس من ذلك ، فإن

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠١٠/٤/١١ .

معظم الدلالات و المفردات التي من الممكن أن تعبر عن مقومات الدولة و نظام الملك في القرآن الكريم ، وردت بالذم و الاستهجان و الاستنكار .

و لقد بحثنا عن معظم – إن لم يكن كل – المفردات التي تدلل على الأمر السياسي أو السلطوي الحاكم ، فلم نجد لها أثراً في القرآن الكريم ، و الذي وجدناه منها ، جاء بصيغة الاستنكار و الاستهجان ، أو جاء لحالة و ظرف معينين و محددين ارتبط بهما و ارتبطا به ، كحالة القتال مثلاً التي جاءت فحسب ، في حالات الحروب الدفاعية التي خاضها الرسول (ص) ضد أعدائه من قريش و غيرهم و الذين ما فت عضدهم في مهاجمته و محاولة القضاء عليه و على الإسلام . هذه المصطلحات هي :

١) – الدولة : لم ترد إلا مرة واحدة في القرآن الكريم ، و قد جاءت بصيغة الذم و الاستنكار (مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (الحشر – ٧)

جاء هذا المصطلح بصيغة النهي و لم يخصص الله تعالى أي مال لأجله ، بل كله لأجل اليتامى و ذي القربى و ابن السبيل ، أي حالة إنسانية أخلاقية روحية بحتة .

٢) – المُلك (بمعنى التملك و الحكم) : جاءت في آيات عدة في القرآن الكريم . لكنها جاءت كلها منسوبة فقط إلى الله عز و جل ، ما عدا آية واحدة نسبت إلى النبي سليمان (ع) الذي أعطاه الله الملك صراحة و بنص قرآني ، و آية نسبت إلى فرعون مصر . و منها على سبيل المثال لا الحصر (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (آل عمران – ١٨٩) .

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (المائدة – ٤٠) .

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) (النور – ٤٢) .

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ) (البقرة – ١٠٧) .

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (المائدة – ١٢٠) . (أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ) (صّ –١٠) . و هي الآية الأخيرة ، آية استنكارية لموضوع ملك الناس و الذي هو مختص بالله وحده .

(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ) (الزخرف –٥١) . هي آية متممة لسابقتها و تعني أن كل من يدعي الملك ، هو مثل فرعون تماماً و أن الملك لا يدعيه و يعمل لأجله إلا شخص مثل فرعون تماماً . و تأتي الآية التالية لتقطع الشك باليقين من أن الملك هو لله وحده فحسب و ليس لغيره .

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) (الفرقان – ٢) .

٣) ـ مَلِك (بمعنى الحاكم) : جاءت منسوبة إلى الملائكة ، و في صيغة الاستنكار و النهي بالنسبة إلى البشر ، بالإضافة إلى نفي صفتها عن الرسول (ص) .

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ...) (البقرة – ١٠٢) .

(قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ) (الأنعام – ٥٠) نفي صفة الملك عن الرسول (ص) .

(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً) (الكهف – ٧٩) جاء الملك بالجانب السلبي و جانب الظلم و القهر .

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً) (الفرقان – ٧) .

(مَلِكِ النَّاسِ) (الناس – ٢) و هي آية واضحة تماماً بأن الحاكم بصيغة الملك على الناس هو الله و ليس أحد آخر .

٤) ـ وزير : جاءت في آيتين فحسب ، و بمعنى المساعدة و المعاونة و لم تأت أبداً بالصيغة السياسية و اختص بها النبي هارون فحسب و بناء على طلب موسى (ع) ذلك من الله (وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي) (طه – ٢٩) .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً ((الفرقان – ٣٥) .

٥) ـ قائد ، قيادة ، قود : لم ترد بالقرآن الكريم أبداً و لا بأي صيغة أو شكل .

٦) ـ زعيم : جاءت فقط بمعنى القول و ليس بمعنى القيادة و الرياسة ، و في آيتين فحسب هما (قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ) (يوسف – ٧٢) .

(سَلْهُم أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ) (القلم – ٤٠) .

٧)ـ الجند – الجنود : جاءت في القرآن الكريم كجنود في خدمة الله تعالى و الذين لا يعلمهم أحد ، و بالنسبة إلى البشر جاءت بصيغة الذم و السلبية ماعدا الذين ، اختصهم الله تعالى صراحة بالقيادة و الملك كالملك سليمان و طالوت (فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) (البقرة – ٢٤٩) .

(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) (النمل – ١٧) .

(وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (البقرة – ٢٥٠) .

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (يونس – ٩٠) .

(فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ) (طه – ٧٨) .

(ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ) (التوبة – ٢٦) .

(وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ) (الشعراء – ٩٥) .

(وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ) (القصص – ٦)

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ) (القصص – ٨) .

(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ) (القصص – ٣٩) .

(فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) (القصص – ٤٠) .

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ((الملك – ٢٠) .

جميع هذه الآيات تحدثت عن صفة الجند بشكل سلبي جداً و بالعداء لله تعالى ثم تأتي الآيات التي تتحدث عن الجنود الملائكة التابعين لله تعالى و منها

(وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ) (يس – ٢٨) .

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) (الصافات – ١٧٣) .

(... فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (التوبة – ٤٠) .

(... وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) (المدثر:٣١) دلالة الآيات السابقة على أن الجنود غير مرئيون عياناً .

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) (الفتح – ٤) .

(وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) (الفتح – ٧) .

ثم جاءت الآية التي تتحدث عن صراع جنود الإنسان مع جنود الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) (الأحزاب – ٩) .

٨) ـ السلطة و السلطان : لم تأت بالصيغة السياسية للسلطة و الحكم و القيادة ، بل جاءت بمجملها بصيغة البرهان و الإثبات و الحجة و القوانين العلمية و إغواء إبليس لأتباعه ، و تحكم أشخاص بأشخاص كعقاب من الله .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ) (آل عمران – ١٥١) .

(إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً) (النساء – ٩٠) .

(سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً) (النساء – ٩١) أي أذن من الله و هي آية ظرفية وقتية .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً) (النساء – ١٤٤) .

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (الأنعام – ٨١) .

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْأِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) (الأعراف – ٣٣) .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ) (هود – ٩٦) .

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) (الحجر – ٤٢) .

(إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (النحل – ٩٩) .

(إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) (النحل – ١٠٠) جاء السلطان في الآيات الثلاث الأخيرة ، بالإغواء للناس .

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) (الرحمن – ٣٣) .

٩) ـ الحكم : جاءت بحالة مشابهة لحالة السلطان و الملك ، و جاءت بمعنى القضاء بين الناس و بشكل يأخذ الحالة الاجتماعية البحتة البعيدة عن الأمر السياسي تماماً ، و جاءت أيضاً بمعنى الدقة و الضبط و هذه الآيات تبين ذلك

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ...) (آل عمران – ٧) .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ) (آل عمران – ٢٣) .

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (آل عمران – ٥٥) .

(مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ) (آل عمران – ٧٩) .

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً) (النساء – ٥٨) .

نلاحظ هنا أنه تعالى قال (و إذا حكمتم بين الناس) و لم يقل (و إذا حكمتم الناس) أي أن الحكم هنا هو حكم قضاء و ليس حكم سلطة بمعنى القيادية و التوجيه .

(فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (النساء – ٦٥) . و هذه الآية و بالرغم من أنها تنفي بشكل قاطع الإيمان إلا بشرط الاحتكام إلى الرسول (ص) عند أي خلاف بين المؤمنين ، إلا أنها لا تجبرهم على ذلك و يبقى لهم الخيار ، فالله قال (لا يؤمنون) و لم يقل (لا يسلمون) أي أن هذه الآية تتعلق بالجانب الإيماني الروحي . يضاف إلى ذلك أنها تحدثت عن الاحتكام و ليس الحكم فالاحتكام إلى شخص شيء ، و أن يحكمك هذا الشخص شيء آخر .

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً) (النساء – ١٠٥) . نلاحظ أيضاً أن الحكم هنا آل للرسول (ص) لكي يحكم بين الناس و ليس ليحكم الناس ، و هذه إشارة قوية من الله تعالى لهذه النقطة و هي شبيهة تماماً بالآية السابقة ، و يلاحظ أيضاً شرط الحكم بين الناس هو الكتاب و بما أراه الله تعالى . و يلاحظ أنها اختصت الرسول (ص) بالذات و لم تجمل معه أحداً .

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (المائدة – ٤٢) . إشارة واضحة و قوية إلى أن الرسول (ص) ليس ملزماً بالحكم بين الناس بل هو مخير و بخاصة المنحرفين على الحق الضالين عن سبيل الله ، مع التشديد على تطبيق العدل في الحكم بينهم .

(وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) (المائدة – ٤٣) . لاحظ ورود كلمة الاحتكام و التركيز الإلهي عليها .

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (المائدة – ٤٥) . يلاحظ في هذه الآية أن الحكم بين الناس هو في العلاقات المدنية البشرية الاجتماعية وليست الدينية التي اختص الله تعالى بها وحده فحسب دون غيره .

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (المائدة – ٤٨) . العبرة الإلهية في هذه الآية ، هي أنه لا يجوز إجبار أي أحد في المجال الديني على اتباع القوانين التي هي من خارج منهج و صلب عقيدته الدينية ، و في الوقت نفسه تصريح و إشارة إلى الحرية الدينية و ذلك من عبارة (و لكل منكم جعلنا شرعة و منهاجاً) .

و يتضح ذلك الأمر من الآية التي تليها في القرآن الكريم و هي (وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ) (المائدة – ٤٩) . أي أنهم إذا لم يرضوا بما حكمت بينهم فليسوا ملزمين تجاهك و ليس لك عليهم حق الإجبار و الإكراه القسري ، بل هو أمر عائد إلى الله تعالى و لغاية أرادها لهؤلاء القوم .

(قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ) (الأنعام – ٥٧) إشارة واضحة و قوية إلى رفض مفهوم التكفير و إن الحكم فيما بين الطوائف هو لله وحده و هو خير الفاصلين .

(ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ((الأنعام – ٦٢) تأييد للآية السابقة و إشارة إلى أن الحكم بن الطوائف الدينية هو في النهاية من اختصاص الله تعالى وحده .

(وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) (الأعراف – ٨٧) .

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) (يونس – ١٠٩) عدم الاكتفاء بأن الحكم هو لله وحده ، بل التأكيد أن من يقوم بتطبيق هذا الحكم هو الله أيضاً و في الوقت الذي ترتئية الحكمة الإلهية . الذي قد يكون يوم القيامة و الحساب و هو ما أتى مدعماً بالآيتين التاليتين

(الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) (الحج – ٥٦)

(اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (الحج – ٦٩) .

(إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) (النمل – ٧٨) .

(يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) (صّ – ٢٦) .

(إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ) (صّ – ٢٢) .

يلاحظ أن الحكم هنا جاء في القضاء فحسب و ليس من مفهوم القيادة و التسلط و الملك و ذلك من عبارة (فاحكم بين الناس) و (فاحكم بيننا بالحق) و لم يرد (فاحكم الناس) ، كما أن التصوير الإلهي لمشهد دخول الرجلين على النبي داؤود (ع) يوحي بأنه ليس في حالة القيادة و الملك ، بل في حالة القضاء و ذلك من عبارة (إذ دخلوا على داؤود ففزع منهم) و هي حالة توحي بأنه كان وحيداً معزولاً و ليس في قصر يحيط به الحرس و الخدم و الجنود لكي يخاف من رجلين دخلا عليه يطلبان منه القضاء بينهما .

١٠) ـ الحرب : وردت في أربع مواضع من القرآن الكريم منها ما جاء بصيغة الحرب المعنوية و ليست الحرب التقليدية التي يسيل لها لعاب طلاب السلطة و التسلط باسم الدين و منها

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ) (البقرة ٢٧٨ – ٢٧٩) . واضح هنا أن الحرب هي معنوية و عقاب من الله و مقاطعة من الرسول (ص) لأن الخطاب موجه بالأساس إلى الذين آمنوا و من غير المعقول أن تكون حرب تقليدية بين المؤمنين و من أجل الربا .

(الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ * فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) (الأنفال ٥٦ – ٥٧) . جاءت هذه الآية الحربية للإشارة على الذين ينقضون العهود و المواثيق باستمرار مع الرسول (ص) في أثناء الحرب و هو ما يعرف بالخيانة كما حصل في معركة الخندق و غيرها و هي أيضاً آية ظرفية وقتية جاءت خلال فترة الرسول (ص) و من الطبيعية محاربة الخونة و ناقضي العهود .

(فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ) (محمد – ٤) و هي آية حربية تبيح القتل في

حالة الحرب فحسب ، و تنتهي هذه الحالة بانتهاء السبب الا و هو الحرب و ذلك من عبارة (حتى تضع الحرب أوزارها) .

(... كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (المائدة – ٦٤) آية واضحة تمام الوضوح عن رفض الله لمفهوم الحرب بأشكاله كافة إلا الحرب الدفاعية الاضطرارية ، لا بل إنها تتحدث عن التدخل الإلهي لإيقاف أي حرب و التي هي حسب منظور الآية القرآنية من باب الفساد في الأرض .

١١) ـ الغزو – الغزوة : لم ترد في القرآن الكريم مطلقاً ، بل جاءت كلمة متشابهة لها مرة واحدة فحسب و في حالة متشابة ليس فيها أية إشارة للغزو (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (سورة آل عمران ١٥٦).

جاءت كلمة (غزى) مبهمة غامضة و بمعنى الانتشار في الأرض لكسب الرزق أو ما شابه لأنها جاءت مسبوقة بعبارة (ضربوا في الأرض) التي تعني السفر و التنقل و الارتحال و يبدو أن هذه الآية تحث على التنقل لكسب الرزق و عدم القعود و الركون ، و تحدث أيضاً عن مفهوم القضاء و القدر ، بمعنى أن الإنسان ممكن أن يموت في مكان حتى و لو كان في بيته . و لم يأت معها أية عبارة أو كلمة لحرب أو قتال أو ما شابه ، و فوق كل ذلك جاءت مرة واحدة في القرآن الكريم ، أما خارج القرآن فهي ما شاء الله تملأ كتب المفسرين و الفقهاء و خطب المنابر بحيث جعلت أساس القرآن .

١٢) ـ جيش – جيوش – كتيبة – كتائب – سرية – سرايا – عسكر – معسكر – عساكر : كل هذه الكلمات التي تصف هيئة و قوام أداة الحرب البشرية غير موجودة في القرآن مطلقاً و لا أثر لها حتى على مستوى الجذر .

١٣) ـ سلاح : لم ترد إلا مرة واحدة في القرآن الكريم و في حالة حربية تكتيكية ثانوية بحتة تحث على الحذر في أثناء الصلاة في الحرب (وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا) (النساء – ١٠٢) . و يلاحظ أن هذه الآية جاءت خطاباً للرسول (ص) أي أنها تتحدث عن الحرب التي خاضها الرسول (ص) و كان موجوداً فيها و ذلك من عبارة (و إذا كنت فيهم) .

١٤) ـ سكين : وردت مرة واحدة في القرآن الكريم و كأداة استعمال لتقشير الفواكه و ليس للقتل و الطعن و الغزو و النهب و السلب (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ) (يوسف – ٣١) .

١٥) ـ رمح : لم ترد في القرآن إلا مرة واحدة و لأجل الصيد و ليس لأجل الغزو (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (المائدة – ٩٤) . لا بل نلاحظ أن عبارة (و من اعتدى بعد ذلك) للنهي عن استعمال الأسلحة وتسخيرها خدمة للنفس التي ألهمها صاحبها فجورها و طمعها و تسلطها باسم الدين ، فضلاً عن أن عبارة (ليبلونكم الله بشيء من الصيد) جاءت أيضاً بصيغة عدم استحباب .

١٦) ـ السيف : لم يرد في القرآن الكريم أبداً لا هو و لا أسماؤه .

١٧) ـ فتوح – فتوحات : لم ترد في القرآن الكريم مطلقاً و إنما جاءت كلمة الفتح و هي بمعنى المساعدة من الله و النصر على المشركين في الحروب التي خاضها الرسول (ص) في مكة و المدينة و جوارهما .

١٨) ـ سفك الدماء : جاء مرتين فحسب في القرآن ، و في آيتين ، الأولى استهجنته تماماً و الثامية حرمته بشكل مطلق

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) (البقرة – ٣٠) .

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ) (البقرة – ٨٤) .

١٩) - الاعتداء و العدوان و البغي : جاءت كلها بصيغة النهي و الاستهجان و التحريم (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ) (البقرة – ٦٥) .

(وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ) (البقرة – ١٩٠) . هذه الآية هي آية واضحة و هي من المحكمات و لا تحتاج إلى أي جهد في تأويلها و تفسيرها و هي تعني أن القتال هو فحسب و حتماً و حصراً حالة دفاعية بحتة من باب الدفاع عن النفس ، و جاءت التشديد فيها بذلك بالعبارة الأخيرة منها (لا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) و هي حاكمة و ضابطة لكل آيات القتال في القرآن الكريم .

(الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (البقرة – ١٩٤) . تصديق و تثبيت لمفهوم و روح الآية السابقة من أن القتال و الأذى هو للدفاع عن النفس فحسب . و جاءت

عبارة (بمثل ما اعتدى عليكم) لتمنع نهائياً أي ظلم أو جور أو اعتداء على الغير و منعاً لدخول أية غايات سياسية من جراء ذلك الأمر .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (المائدة – ٨٧) .

(ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (الأعراف – ٥٥) .

(لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ) (التوبة – ١٠) .

(أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ) (ق ٢٤ – ٢٥) .

(مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) (القلم – ١٢) .

(وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) (المطففين – ١٢) .

(وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (المائدة – ٦٢) .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (المجادلة – ٨) .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (المجادلة – ٩) .

على العكس من كل ذلك ، فقد جاء مفهوم السلم و العفو و الأخلاق كحجر أساس و ركن زاوية في المفهوم القرآني و الإرادة الإلهية و إشارة واضحة لا تباين فيها لاعتماد هذه المصطلحات كركيزة للإيمان و الإسلام . و نحن لن نعقب كثيراً على ذلك و نخوض في غمار التحليل ، لأن الآيات القرآنية بحد ذاتها كافية لتعبير عن نفسها و عن الإرادة الإلهية .

(... فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (سورة البقرة – ١٠٩) .

(فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (سورة المائدة – ١٣) .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) (الحجر – ٨٥) .

(وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (النـــــور – ٢٢) . (فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) (الزخرف – ٨٩) .

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) (سورة الأعراف – ١٩٩) .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (التغابن – ١٤) .

و أما آيات العفو من قبل الله عزو جل ، فهي كثيرة في القرآن الكريم و منها على سبيل المثال لا الحصر

(ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُمِ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (البقرة – ٥٢) .

(فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا) (سورة النساء – ٩٩) .

(إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا) (النساء – ١٤٩) .

(وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ) (الشورى – ٣٠) .

في الختام فقد جاءت الحكمة السلطانية في القرآن الكريم تحت مسمى الملأ و هم القوم الذي ، يتحكمون في مجرى قيادة الناس و من تحت حكمهم سواء بالدين أم السياسية ، و هي الفئة التي جمعت الأمرين معاً ، و سخرت الأمر الديني خدمة للأمر السياسي ، بعد أن عادته و حاربته بداية و نترك للقارئ أن يقيّم هذا المصطلح من خلال الآيات التي تحدثت عنه و هي .

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) (الأعراف ٥٩ – ٦٠) .

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) (الأعراف – ٦٦) .

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ) (الأعراف – ٧٥) .

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ) (الأعراف – ٨٨) .

(وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ) (الأعراف – ٩٠) .

(قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ) (الأعراف – ١٠٩) .

(وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ) (الأعراف – ١٢٧) .

(فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) (هود – ٢٧) .

(وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) (يوسف – ٤٣) .

(فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ) (المؤمنون – ٢٤) .

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) (المؤمنون – ٣٣) .

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ) (النمل – ٢٩) .

(وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ) (القصص – ٢٠) .

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) (القصص – ٣٨) .

(وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ) (ص ٤ – ٦) .

نهاية .. نختم بالآية القرآنية التالية

(مالكم كيف تحكمون * أم لكم كتاب فيه تدرسون * إن لكم فيه لما تخيرون * أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون * سلهم أيهم بذلك زعيم) (القلم ٣٦ – ٤٠) .

هل الحكام العرب هم السبب ؟؟؟!!![1]



من الأعراف السادة اليوم لدى الشارع العربي و على لسان المواطن العربي ، فيما يختص بعالم السياسة و ما يستجد من أوضاع سياسية و أحداث تدور في فلكها أو تمثل نتاج منبثق عنها .. عُرف التوجه باللوم إلى الحاكم العربي و اعتباره يمثل كل مآسي العصر الحالي الذي تمر به الأمة العربية و يعيشه المواطن العربي . و بموجب هذا العرف السائد ، فقد أصبح الحكام العرب هم السبب في كل ما يحصل في الأمة و العربية ، من مشرقها إلى مغربها و من محيطها إلى خليجها . و

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٦/٤/٢٠٠٩ .

بشكل أساس ، يشارك في هذه المعمعة (بغض النظر عن صحتها و موضوعيتها و مبرراتها العقلانية ، من عدمها) خط المعارضة العربية على اختلاف مشاربه و اتجاهاته ، و على منسدح الساحة العربية كلها . يتابعهم على ذلك العامة من الجمهور العربي بما يشتمل عليه من بعض المثقفين و ذوو الاتجاهات و الميول السياسية الأخرى .

و قد وصلت قضية الهجوم على الحكام العرب مآلاً بليغاً حينما تحولت على ما يبدو إلى شيء من العرف الأخلاقي أو السياسي المتداول بانتظام و في منعطف و كل هنة و حديث سياسي عربي حتى و لو لم يكن من الضرر بمكان للعرب . فما أن يقترب موعد حدث معين كعقد قمة عربية أو اجتماع عربي ناتج عن قضية معينة أو مناسبة لذكرى حرب أو حدث آخر ، حتى تنبري الانتقادات كلها للحاكم العرب و تبرز صورة سوداوية قاتمة مكفهرة للحاكم العربي بحيث تسلط الأضواء كلها عليه بوضعية متماهية مع وضعية الممثل المسرحي فيما يعرف بمسرح المونودراما . و لكن هنا بدل أن يتكلم الممثل عن نفسه و يعبر عن ذواته المتعددة للنظارة ، يتم الحديث عنه و الإشارة إليه و تناوله من قبل الجمهور نفسه .

إننا لا نريد أن ندخل في جدل أو إشكالية مسؤولية الحاكم العربي بشكل من الأشكال ، عن الحال المزري للأمة العربية ، فنكون مع أو ضد . و لا نريد التطرق للأخطاء أو التصرفات التي تعزى للحكام العرب ، بعضهم أو جلهم لجهة المناقشة أو لجهة التبرئة و الاتهام . و لكن نريد من ناحية تحليلية حيادية بحثية أن نناقش الوضع العربي و عقلية الإنسان العربي كحالة ارتباط ، و ذلك من منطلق أبستمولوجي و لو كان مختصراً قليلاً ، لتعذُرْ الإسهاب فيه في مقالة كهذه . و الكلام ما هو كلام تبرئة .

إننا نتساءل .. هل الحاكم العربي هو المسؤول الوحيد الأوحد عما يحصل الآن في الساحة العربية ؟؟؟ و هل الوضع العربي الآن و ما يحصل من أحداث ، هو حالة منفردة مستقلة عن تاريخ الأمة العربية ، من الماضي السياسي الممتد من حضارة بلاد الرافدين و مصر القديمة و بلاد فارس و اليونان و الرومان مروراً بوقائع و أحداث القرون الوسطى وصولاً إلى القرن العشرين فالواحد و العشرين ؟؟؟ .

إن الأحداث و الوقائع العربية الحاصلة في الساحة العربية ما استجد منها و ما نما فاستفحل متحولاً لأمر واقع ، و التي يتعرض لها الإنسان العربي كواقع فعلي مادي أو كمشهد إعلامي صوتي مرئي ، حتى و إن بدت كأنها ظاهرة مستقلة عما سواها من أحداث ، هي مرتبطة بشكل أو بآخر بما سبقها من أحداث و وقائع ، و التي هي بدورها أيضاً قد ارتبطت بما سبقها . و لا يمكن بحال من الأحوال أن نحمل الحاكم العربي المسؤولية مطلقة كاملة (نقول مطلقة كاملة) عما يحصل من وقائع حالية هي حتماً نتيجة تراكم أخطاء و خلاخل متوالية تصاعدية . و المعنى المراد إجلاءه هنا هو أن الصورة تظهر و كأنه في زمن ما قبل الحاكم العربي كان العرب يعيشون دولة قوية منيعة خالية من المشاكل و الاحتلال و الصدامات و الصراعات و لا تستطيع أكبر دولة في العالم أن تتدخل في الشأن العربي . فجاء الحاكم العربي و وضع حد لهذا الازدهار العربي و التقدم و القوة و المنعة . جاء الحاكم العربي و قد كان العرب موحدون بكيان واحد و دولة واحدة فرسم هذا الحاكم حدود سايكس بيكو طالباً من رئيس البلدية سايكس و رئيس المصالح العقارية بيكو ، أن يضعا المخطط العقاري التنظيمي للوطن العربي . و كان اليهود في العالم غافلون عن شيء اسمه إسرائيل ، فجاء الحاكم العربي و ذكرهم بعهدهم القديم و توراتهم و دعاهم إليها .

لماذا نحمل الحاكم العربي شيء لا علاقة له به و لا ناقة له فيه و لا جمل ؟؟ لماذا نضع وزر كل الخطايا و الآثام المرتكبة في حق العرب و عروبتهم و قوميتهم ، على كاهل الحاكم العربي ؟؟ لماذا نتهم الحاكم العربي وحده فقط ، بالتآمر و الخيانة ، و ننأى بأنفسنا نحن عن كل خطيئة و أثم مرتكب ؟؟

بمنظور المحاكاة التحليلية السياسية و منظور الدراية التاريخية التراكمية لمسار الأحداث و الوقائع العربية بدءاً من عصر الانحطاط العربي الناشئ في أواخر العصر العباسي ، و حتى يومنا هذا . يتبدّا للعيان ، منطق المقارنة بين خطأ الحاكم العربي المرتكب بحق شعبه و دولته ، وبين ضعف هذا الحاكم . بمعنى هل أن القضية هي قضية حاكم عربي متملك للقدرات المادية المانعة لانهيار أمته (أي كلي القدرة السياسية) ولكنه عاجز فكرياً إلى درجة ارتكاب الأخطاء الفادحة الجسيمة

المدمرة . أم هي قضية حاكم عربي ضعيف لا يمتلك أدنى مقومات السيطرة و التحكم بمجريات الأحداث السياسية الحاصلة من حوله ؟؟

من خلال منطق المقارنة و المحاكاة المذكورين آنفاً ، سيطغى افتراض ضعف الحاكم العربي ، بل و شلله ، حتماً . و ربما قد لا يعلم الكثير أنه في بداية عصر الانحطاط قد تنبهت بعض النخب من العرب للضعف الذي ينتاب الأمة العربية و من هؤلاء كان الشعراء و الكتاب و المفكرين ، و منهم على سبيل المثال لا الحصر المتنبي ، حيث يقول في قصيدة له :

و إنما الناس بالملوك و ما تفلح عرب ملوكها عجم .

و منهم أيضاً أبو العتاهية الشاعر حيث يقول :

سأضرب أمثالاً لمن كان عاقلاً يسير بها مني روي مبيت

و ما زال من قومي خطيب و شاعر و حاكم عدل فاصل مثبت

و حية أرض ليس يرجى سليمها تراها إلى أعداءها تنفلت

و أما الشاعر عبيد الله بن قيس (شاعر من العصر الأموي) فيقول :

حبذا العيش حين قومي جميع لم تفرق أمورها الأهواء .

و هذا الشاعر العباسي ابن المعتز يقول محذراً و قد رأى موقع الخلافة العباسية يتقاذفه الأعاجم :

من مبلغ قومي على قربهم و بعد أسماع الواعظين

إني أرى الأعداء قد رسخوا دواهياً أنتم لها حافرون

سلوا قباب الملك عن معشر كانوا لها من قبل مبتنين

تخبركم عن زمن لم يزل يجد بالقوم و هم يلعبون

عانقتكم الأحلام في مضجع سينبت الشوك لكم بعد حين

و ابن المعتز هذا ، هو عبيد الله بن محمد المعتز بالله ابن الخليفة المتوكل العباسي ابن الرشيد . و في أيامه آلت الخلافة إلى المقتدر العباسي ، فكان أن استصغره قواد الجيش و أمراؤه فقاموا بخلعه (بلا معنى) و أقبلوا عليه فبايعوه ، و لكنه لم يقم سوى يوم و ليلة حيث وثب عليه غلمان المقتدر المخلوع ، فخلعوه (أيضاً بلا معنى) ، فعاد المقتدر بالله و قبض عليه و سلمه إلى أحد خصيه و هو مؤنس الخادم فقام بخنقه ، ولم يطل العهد بخصينا هذا حتى وثب على الخليفة نفسه و قتله .

و يقول الشاعر أبو فراس الحمداني متحدثاُ بحزن عن العرب :

ما لعصا قومي قد شقها تفارط منهم و تضييع

بني أبي فرق ما بينكم واش على الشحناء مطبوع

عودوا إلى أحسن ما كنتم فأنتم الغر المرابيع .

و يقول أيضاً محذراً و قد تدهور الوضع العربي لأبلغ حالة مزرية :

أبلغ لديك بني العباس مأكلة لا تدعو ملكها ملاكها العجم

أي المفاخر أمست في منابركم و غيركم أمرهم فيهن محتكم

بنو علي رعايا في ديارهم والأمر تملكه النسوان و الخدم .

و قبله في الجاهلية قال الشاعر طرفة بن العبد ملمحاً :

أسلمني قومي و لم يغضبوا لسوأة حلت بهم فادحة .

ما يمكن الاستدلال عليه من سياق ما سبق من شعر و قوافي ، هو أن الضعف العربي الذي نراه الآن عياناً ، قد وجد من قبل و بأفدح صوره و تجلياته ، و كان هناك من يراه ببصيرته الثاقبة و يحذر منه صراحة و دونما موارية ، لا بل كان أسوأ مما يحصل الآن بكثير ، و النقد له واضح و صريح كما هو الآن . انظر إلى الشاعر عرقلة الكلبي الذي كان معاصراً للناصر صلاح الدين الأيوبي ، إذ يقول :

يا بني الأعراب إن الترك قد جارت بنوها

عقربوا الأصداغ حيناً و لحيني قد ثعبنوها .

و هذا أبو العلاء المعري يقول :

أعاذل إن ظلمتنا الملوك فنحن على ضعفنا أظلم

تسامت قريش إلى ما علمت و استأثر الترك و الديلم .

بعد ذلك نأتي لنحمل الحاكم العربي وحده مطلقاً ، وزر كل ما حصل و يحصل ؟؟ و إذ كان لا محيص من ذلك ، أفلا تشترك الطبقة الدينية في تحمل عناء المسؤولية و تجشمها ؟؟ لماذا يقع اللوم كله على رجل السياسة و لا يتحمل رجل الدين المسؤولية ؟؟ لا بل لا يقترب منه أحد و كأنه ليس من جنس البشر بل من جنس الملائكة ؟؟ أليس هو راع لشريحة من الناس قد تكبر إلى حد الملايين بل عشراتها و مئاتها من الأنفار ، تماماً كالحاكم . ألا يتحمل المواطن العربي الطائفي أو العشائري أو المتعصب إلى حد العمى المطلق ، لآيديولوجية معينة مهما كانت سياسية أم دينية ، ألا يتحمل نصيباً من المسؤولية ؟؟ هل ما يحصل في العراق الآن هو خطأ حاكم عربي ؟؟ أم هو خطأ رجل دين أم مواطن عربي ؟؟ .

لا نريد أن نعفي الحاكم بالمطلق ، ولكن بالوقت عينه لن نحمله بالمطلق .

هؤلاء جاءتهم فتاة[1]



منذ حوالي العشر من السنين و أثناء مطالعتي لإحدى الصحف اليومية المحلية ، وقعت على مقال في الصفحة الأخيرة لأحد الكتاب ، كان فحواه عن فتاة جاءت إليه (على حد زعمه) تعرض عليه مجموعة قصص لها و تطلب رأيه فيها . قال يا سيدي نظر هذا الكاتب إلى المجموعة فرآها عبارة عن خربشات دجاج (هكذا بالحرف) و يوجد فيها (على حد زعمه أيضاً) أخطاء نحوية و عيوب خلقية كثيرة و لا ترقى إلى أن تكون نص أدبي . قال .. فنظر إليها و قال لها مؤنباً (و العهدة على الراوي) : ما هذا ؟؟ ... ما هذا ؟؟ .. ما هذه الخربشات ؟؟ اذهبي يا آنسة و تعلمي الأبجدية أولاً ثم تعالي اكتبي .. اقرأي .. اقرأي .. أنت بحاجة إلى القراءة أولاً . ثم ختم كلامه بالتوجه إلى الذين أن يصبحوا كتاب و هم يفتقرون إلى أدنى قواعد اللغة و التعبير ناصحاً إياهم بالقراءة و تعلم أصولها أولاً قبل أن يشرعوا بالكتابة .

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠٠٩/٨/٢٨ .

بعد ذلك بسنتين أو ثلاث على ما أذكر ، وقعت بيدي جريدة محلية أخرى غير الأولى و في نهايتها.. مقال مشابه إلى حد كبير للمقال السابق ، و لكن لكاتب آخر ، أيضاً يتحدث فيه عن فتاة جاءت إليه في مكتبه تعرض عليه مجموعتها القصصية لتأخذ رأيه فيها ، فاكتشف صاحبنا الجهبذ أنها (و يا للمصادفة) سخافات و خربشات ، و صاح بها مؤنباً و ناصحاً : ما هذا ؟؟ ما هذا يا آنسة ؟؟ ... (نفس الكليشة السابقة) . و طلب منها أن تتعلم القراءة و تكثر منها ، ثم بعد ذلك تتجه إلى الكتابة . وختم عموده بالحديث عن الشباب الذي يريد أن يكتب و هو لا يفقه شيئاً بالأدب و الفكر ... الخ .



الغريب .. أنه أيضاً و منذ مدة ، وعندما كنت أتصفح إحدى الجرائد المحلية و هي غير الجريدتين السابقتين ، وقع بصري في الصفحة الأخيرة منها على مقال لكاتب آخر جديد . و المفاجأة المضحكة أنه كان يتحدث عن فتاة جاءت إليه لتعرض عليه مجموعتها القصصية تستشيره بشأنها ، فكانت يا للهول عبارة عن خربشات على حد زعمه و على ذمته . وقال لها أيضاً : ما هذا ؟؟ ما هذا ؟؟ يا آنسة .. قبل أن تدخلي تجربة الكتابة ، عليك بالقراءة يا آنسة .. اقرأي .. اقرأي حتى تنصقل موهبتك . و أنهى عموده الجالس عليه منذ سنين طويلة لا يبارحه حتى يخطفه باريه و يأخذه .. أنهاه بأن تحدث عن الشباب الذي يريد أن يكتب و لا يعرف شيئاً عن الكتابة ناصحاً إياهم بالقراءة و التثقف أولاً و من ثم الدخول في معترك عالم الكتابة .

بعد قراءتي للمقال ، وضعت الجريدة جانباً . و أخذت أفكر ... يا ترى ما هي الغاية و العبرة التي يريد هؤلاء أن يقدموها لقراء الجريدة ؟؟؟!!! و ما هي الرسالة التي يريدون أن يوصلوها ؟؟!! على فرض أنه جاءت فتاة أو شاب مبتدئ لا فرق .. إليك و عرض عليك أن تقيم موضوع كتبه .. و اكتشفت وجود أخطاء مهما كانت فداحتها و مستواها ، ما هي الغاية و المبرر لك

لكي تخرج علينا بمقال تفضح فيه هذا الشخص أو هذه الفتاة المسكينة ؟؟!! .. هذا إذا كان هنالك فعلاً فتاة قد جاءت إليك ، لأنني أنا شخصياً أشك في ذلك . و ما العيب إذا كان هنالك شخص أو فتاة يكتب في بداياته الأولى للكتابة و كان هنالك خلل أو شيء مخالف لما ترتأيه أنت أنه مخالف لأصول الكتابة .. ما هو العيب في ذلك ؟؟!! ربما غيرك لا يراه كذلك .. ربما غيرك يراه إبداع و موهبة مميزة قياساً لشخص مبتدئ .. و المؤكد في السياق ذاته ، أن الشاب أو الشابة صاحبة العمل ، مهما كان ، من المؤكد أنه قد وضع كل جهده و رؤاه و موهبته فيها و من المؤكد أنه يرى ذلك كله بعين الإعجاب و الاستحسان . فما هو الداعي لفضحه و استعابته على الجرائد و التبجح بذلك .

هنالك مقالات مشابهة لتلك .. تظهر ما بين الفينة و الأخرى ، يتحدث أصحابها (دونما ذكر حوادث و أشخاص معينيين) عن الذين يريدون أن يكتبوا و لا يعرفون شيئاً عن الكتابة و عن أن الكتابة أصبحت لمن هب و دب و ما إلى ذلك و كأنهم فقط يحق لهم الكتابة .



إننا نقول لكل هؤلاء الذين سبق ذكرهم آنفاً .. هذا يسمى في أدنى حدود التسميات .. عيب ..

إذا كنتم تريدون أن تفهمونا أنكم مثقفين و مرشدين .. فاعذرونا لأننا فهمنا العكس .

إذا كنتم تريدون أن تفهمونا أنكم محجة للمريدين و مراجع فكرية ثقافية .. فاعذرونا لأننا فهمنا العكس .

إذا كنتم تريدون أن تفهمونا أن الناس بحاجة لكم و لآرائكم في الثقافة و الأدب .. فاعذرونا لأننا فهمنا العكس .. فهمنا أنكم أنتم من هو بحاجة إلى مراجع أدبية و اتباع دورة تعليمية في المبادئ الأولية للأدب و الأخلاق المهنية للكتابة .

أما إذا كنتم تريدون أن تفهمونا أنكم خائفون على مقعدكم في تلك الجريدة أو تلكم المجلة أو ذياك المكتب .. و خائفون من أن تحل هذه الفتاة المسكينة التي شهّرتم بها .. أن تحل محلكم .. فربما قد نتفهم وجهة نظركم هذه .

إننا لا نحملكم المسؤولية كاملة بقدر ما نحمل رؤساء تحرير صحفكم مسؤولية نشر مثل هكذا مقال سخيف تافه يعبر عن نفس جاهلة مريضة حتماً .. و من منطلق مركب نقص بالتأكيد .

أما أولئك الشباب الذين دخلوا في مضمار الكتابة و الأدب و لازالوا في بدايته ، فأقول لهم ثقوا بأنفسكم و لا تثقوا بغيرها و تعلموا من أخطائكم فهي ليست بعار و عيب عليكم ، و إياكم ثم إياكم الوقوع بشباك هؤلاء المرضى المعقدين ، لأنهم يستشرفون فيكم الخطر عليهم .. خطر يكشف عوارهم و جهلهم و مركب نقصهم . و ما أكثر هؤلاء في ميدان و شوارع الأدب و الثقافة (للأسف الشديد) .. هم كالجراد .. هم لا ينظرون إلى الفكر و الأدب و الثقافة إلا من منطلق سوق الهال حيث تدور المعارك بين الباعة على المكان المخصص لكل عربة خضار أو بسطة

لقد ذكرني هؤلاء بمعركة حضرتها مصادفة في أحد الأسواق الشعبية للخضار استعملت فيها الهراوات و الرفوش و السكاكين و الشنتيانات .. أجل الشنتيانات .. لأجل خلاف على مساحة مرتين مربعين فقط . و كل شخص يدعي أن هذه المساحة مساحته .. ذكروني أيضاً بمعركة دارت بين اثنين من الشحاذين المتسولين في أحد الشوارع .. معركة استعملت فيها اللكمات و الكلمات النابية .. و السبب هو أن أحد الشحاذين الكريمين يدعي أن له وحده فقط حق التسول في هذا الشارع و هو ملكه وحده .

و للأسف .. للأسف الشديد فإن متطفلينا الثقافيين هؤلاء ، لا ينظرون إلى مفهومي الثقافة و الأدب إلا من هذه الزاوية .. زاوية البلطجة و السلبطة .

وراء كل عظيم .....[1]



التقيا في الشارع مصادفة .. صافحته بابتسامتها الوادعة الحنونة : كيف حالك أستاذ ؟؟ أجابها : و الله ... الحمد لله .. أنتِ كيف حالك ؟؟

ــ نحمد الله ..

ــ ماذا تفعلين في تلك الأيام و الليالي ؟

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠٠٩/٨/٢٠ .

ــ و الله يا أستاذ أنا حالياً أعكف على دراسة مهمة حول علاقة المرأة بالرجل و دورها في المجتمع . و محور هذا الدراسة هو عبارة " وراء كل رجل عظيم امرأة "

ــ عظيم .. عظيم جداً .. و إلام توصلت في بحثك هذا ؟؟؟!!

ــ حتى الآن .. أنا في البداية .. و لكن ألا تشعر معي يا أستاذ أن هنالك فلسفة عميقة في مقولة " وراء كل رجل عظيم امرأة " .

ــ نعم ... نعم ... ربما ...

ــ ليس ربما يا أستاذ ... بل بالتأكيد .

ــ (مجاملاً) نعم .. نعم .. ربما بالتأكيد .. بالمناسبة إلى أين وجهة سيرك ؟؟

ــ إلى المكتبة الموجودة في آخر الشارع هناك .. سأتصفح بعض المراجع و أشتري بعض الصحف .. و أنت أستاذ .. إلى أين وجهة سيرك ؟؟

ــ وجهة سيري إلى ما بعد المكتبة التي تريدين الوصول إليها حيث لي بعض المعاملات .

ــ إذن نتابع سيرنا سوياً ...

في الطريق سألته : قل لي يا أستاذ ، ما هي آخر أعمالك ؟؟

ــ في الواقع أنا حالياً مشغول بأمور مالية خاصة قليلاً و بعدها سأتفرغ لمشروع دراسة و بحث جديد . أحياناً و عند الفراغ و ما بين الفينة و الفينة ، أكتب مقالاً و أقذف به في الإنترنت .

ــ يعني كيف ؟؟؟!!! ممكن أن تشرح لي

ــ (ممازحاً) قلتي لي يعني كيف .... يعني عندما أنتهي من المقال الذي يأخذ من وقتي على الأكثر حوالي الساعة .. أحياناً أقل .. أقوم بكتابته على الحاسب فوراً ثم أطويه و أشوطه ركلة جزاء .. أو أضعه بالمقلاع و أطوح به و من ثم أقذفه بالإنترنت .

تابعا سيرهما يتجاذبان أطراف الحديث . و فجأة قالت له : ما رأيك يا أستاذ أن تشاركني بحثي هذا الذي أقوم به .

ـــ أي بحث ؟؟؟!!!

ـــ و لو يا أستاذ !!! بحث (وراء كل عظيم امرأة) هل نسيت ؟!!!! .

ـــ آآآآ ... نعم .. نعم .... و الله أنا برأيي أن تقومي به أنت وحدك و ليس من الضرورة لأن يشاركك به أحد .

ـــ و لكن لماذا ؟؟؟!!!

ـــ لأنه يجب عليك أنت أن تضعي كل أفكارك بحيث يكون بحثاً خاصاً بك و تكون عليه لمساتك السحرية و أناملك الناعمة أنت فقط .

ـــ و لكن عندما تشاركني فيه ، يكون هنالك رأيان و يقوى البحث .. و بالأخص إذا كان هنالك رأي رجل فيه .

ـــ أعرف ذلك .. أعرف يا أنّوستي . و لكن عندما تكون تلك تجربك وحدك ، يكون ذلك حافزاً لك لتكتشفي نفسك .. عليك أن تختبري نفسك يا عزيزتي عليك أن تختبريها .. و تصقلي موهبتك .

ـــ و لكن يا أستاذ ألا ترى معي أن هنالك معنى عميق و كامن في مقولة " وراء كل رجل عظيم امرأة " ؟؟ .

ـــ (مجاملاً) أظن ... أنه ... نعم ... يوجد شيء من هذا القبيل .

ـــ ما هي برأيك هذه الحكمة .

حك أرنبة أنفه و من ثم رأسه كما يفعل الجهابذة و قال : و الله أنا برأيي .. أن الحكمة .. هي أن هذا العظيم لو لم يضع المرأة وراءه ، بحياته ما كان صار عظيم .. قال ذلك و لم يستطع منع نفسه من الضحك فانفجر ضاحكاً .

تغير وجه المخلوقة و عبست بشدة و قطبت حاجبيها بعنف و كشرت عن أنيابها و رمقته بنظرة نارية و جرت أمامه مسرعة . أسرع خلفها و صاح بها : ما بك يا صديقتي .. طولي بالك .. أنا أمزح معك .. معقول أنك لا تتحملين مزح ؟؟ .

ــ كلا إنك لا تمزح لقد رأيت ذلك من نظرات عينيك .

ــ لا حول و لا قوة إلا بالله ... صدقيني أنني كنت أمزح .. و لو عرفت أنك ستغضبين هكذا ما قلت هذا الكلام .. يبدو أنك فعلاً لا تتحملين المزاح .

ــ (متابعة سيرها بسرعة) : إنه ليس مزاح .. و إلا فما معنى كلامك هذا .

ــ هي مزحة قلناها .. شو كفرنا بالله ؟؟

ــ نعم .. لقد فعلت .

ــ (قال مهدئاً) كلامي هذا يصب في نفس نظريتك تلك .. توقفي لكي أشرح لك .. توقفي لا تفضحينا .. لقد بدأ الناس ينظرون إلينا .

ــ (وقفت و استدارت مواجهته بتحد) : تفضل اشرح موقفك .. إنني أستمع إليك .

ــ يعني ... المقصود .... يعني أن الرجل ... يعني عندما .... يضع ... يعني المرأة خلفه .. يعني هو يفعل ذلك ... يعني لكي تدعمه و ... يعني تسنده ... يعني و تجعله عظيماً ... فهي السبب في ذلك . فهل اطمأن قلبك الآن .

ــ (بنظرة فيها شيء من الشك) قالت له : يعني قليلاً .. و لكن ليس تماماً .

ـــ حسناً .. ها قد وصلنا إلى المكتبة غايتك .. فادخلي إليها و اقضي شأنك و بعدها أنت معزومة على كأس من البوظة الفاخرة و كل ما تشتهينه .. عربون صفاء نيتي و حسن مقصدي ... و أنا سأنتظرك هنا .

بعد خروجها من المكتبة انطلقا سوية إلى أحد الأماكن الفخمة التي تقدم البوظة و مشتقاتها . وصلا إلى السلم المؤدي للأعلى فقال لها : تفضلي مدموزيل . نظرت إلى السلم .. كان منحدراً بشكل قاس بعض الشيء بحيث إذا صعد شخص قبل الآخر سيكون وجه الثاني مقابل منتصف جسد الأول تماماً .

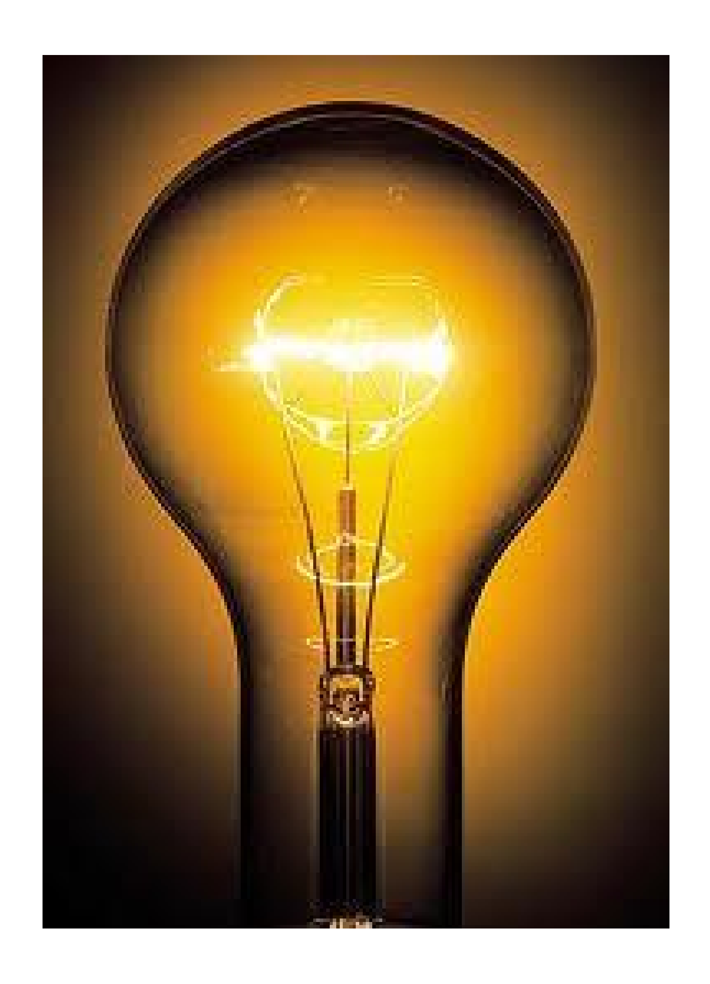
فكرت قليلاً ثم قالت له : كلا .. أنت أولاً

ـــ لا يجوز يا عزيزتي .. النساء أولاً .. من المعيب أن أصعد أنا قبلك .. ثم لحظة من فضلك .. بصراحة أنا أيضاً أريد أن أكتب مقالاً و بحث عن نظرية تقول أنه وراء كل امرأة عظيمة رجل .. أليس من حقي ذلك ؟؟ ألا تريدين أن تكوني عظيمة ؟؟ ألا تريدين أن أكفر عن ذنبي ؟؟

فكرت قليلاً ثم أومأت برأسها مبتسمة علامة الموافقة و تقدمت إلى السلم . صعد خلفها مباشرة .. نظر إليها ثم ترنم مغنياً :

أنزلتُ حبكِ في آآهي فشتتها	طربت آهاً فكنت الحب في طربي
لما بدا يتثنى لما بدا يتثنى	بغنج و دلال .. بغنج و دلال
حبي جماله فتنا	أفديه .. هل من وصال
وعدي و يا حيرتي	مالي رحيم شكوتي
في الحب من لوعتي	إلا مليك الجمال .. إلا مليك الجمال

ومضات لها معنى[1]



الحياة التي نعيشها مليئة بالمتناقضات و الدروس و الحكم . و يصح القول أنها (أي الحياة) مدرسة ، فهي فعلاً مدرسة ، كونها تعلم الإنسان و تعطيه عبراً و تجارب لا ينساها . تلازمه طوال سني حياته . و الحكيم العاقل هو من يعتبر من هذه التجارب ، فتكون ذخيرة حية له تحميه و تقيه الوقوع مرة أخرى في الخطأ . أما الضريبة التي يدفعها لقاء ذلك ، فهي قد تكون ضئيلة يسيرة على الكيس أو الجيب ، أو تهون باهظة الثمن ثقيلة الوطء . و لكنها و بالأحوال كافة تكون درساً عملياً مفيداً للمرء . و الذكي ذو اللب العاقل ، هو الذي لا يقع في تجارب اختبار الناس

[1] نشر هذا المقال بموقع إيلاف بتاريخ ٢٠٠٩/٦/٤ .

اليومية بل يعتبر بها و منها ، عن طريق الغير الذي وقع فيها تماماً كمقولة الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) " عليك بمعاشرة أصحاب التجارب ، فإنها تمر عليهم بأغلى الغلاء ، و تأخذها منهم بأرخص الرخص " .

و لكن أحياناً و كما يقال .. ما باليد حيلة .. يقع الإنسان في مطب التعامل مع الناس ، من عمليات نصب و غيرها إما نتيجة لقلة علمه و درايته ، أو نتيجة لمهارة الشخص المتعامل معه في التموية و التعمية ، أو سوء فهم يقع ما بين الأمرين ، و السبب حتماً هو تكوين صورة مغلوطة عن الشخص الذي يتم التعامل معه ، إما لجهل الشخص المتعامِل (بكسر الميم) أو قدرة الشخص المتعَامل معه (بفتح الميم) ، و هو ما يسمى الدّعي الذي يأتيك بصورة رجل أعمال و هو نصاب محتال . أو أكاديمي متعلم و هو جاهل بالفطرة ، أو إنسان متواضع خلوق محب ، و هو أكبر مغرور مجانب للأدب و الذوق العام و هلم جر ... و لا يتضح ذلك إلا بالتعامل مع هذا الشخص و الاحتكاك معه بطريقة من الطرق .

هذه القضية أضحت بمثابة ظاهرة العصر و الأوان الذي نعيشهما الآن ، تحت يافطة .. (ظاهر الشخص الذي أمامك في الشارع أو التلفاز أو العمل و ما إلى ذلك ، هو غير باطنه الذي يخفيه)

بكلا الحالتين لا ضير من أن يلوم الإنسان نفسه أولاً و أخيراً ، لأنه بالنهاية سيكون هو الملام من المجتمع على مبدأ القصة التالية :



قيل لأحد شعراء الجاهلية : أنت لا تحسن الهجاء ، فلماذا ؟؟!! قال : بلى إني أحسن الهجاء ، و لكنني رأيت الناس ثلاثة .. شخص لم أساله (أي أطلب منه حاجة) فلا ينبغي لي أن أهجوه . و شخص سألته فمنحني ، و هو الممدوح . و شخص سألته فلم يمنحني ... فنفسي أحق بالهجاء إذ سولت لي أن أسأله .

أما مفهوم الدعي أي الشخص الذي يدعي ما هو ليس فيه .. كالعلم و الثقافة أو الأدب أو الأخلاق أو احتراف مهنة معينة (طب – هندسة .. الخ) فتجسده القصص التالية التي تصرفنا فيها بشيء من التحوير و الإضافة :

لما مات حاتم الطائي ، تشبه به أخوه و ادعى أنه مثله ، فسمعت أمه بذلك و كانت عجوز

معمرة ، فاتكأت على عصاها و جاءت إليه و قالت له " أي بني ، نبئت بأنك تشبهت بأخيك ، فهل هذا صحيح ؟ فقال لها " نعم يا أماه . فقالت له " و لم تفعل ذلك ؟؟ فقال لها " لأكمل مسيرته في الجود و الكرم . فقالت " إنك لم تكن يوماً مثله و لن تكون ، فدع عنك هذا الأمر و لا تتعب فيما لا تناله . فقال لها " و ما يمنعني من ذلك ؟؟!! هو أخي من أمي و أبي !!! " فقالت له " و الله يا روح ماماه عندما كنتما صغيرين ، كنت كلما أرضعته ، بكى حتى يأتي طفل يشاركه الثدي الآخر . و كنت كلما أرضعتك أنت و دخل صبي الفناء ، بكيت حتى يخرج . فلذلك يا روح ماما ، اترك هالمصلحة و شوفلك مصلحة أخرى عمي .. افتح بسطة فلافل إذا بدك .. ولا قلك ، فتحلك طبلية إكسسوارات .. ولاّ روح لا تزعل .. افتح محل قطع غيار .. رو عمو رو .. احلييييق . فطأطأ الرجل رأسه و دندل أذنيه و لم يتكلم .

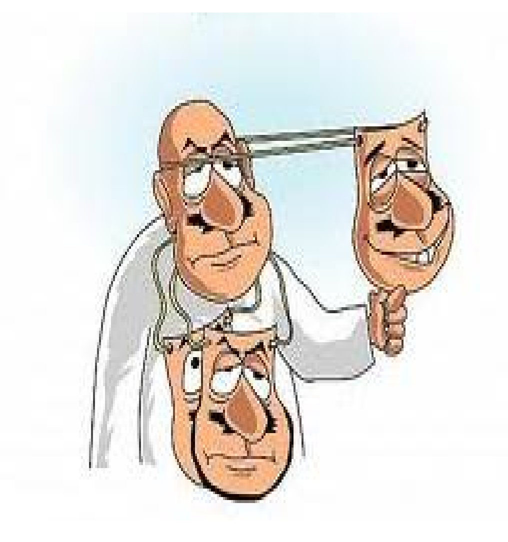


يروى أيضاً أن أحد الملوك كان عندما يغدو المسجد ، يرى فيه شاباً طالت لحيته و عرضت

. قد اعتكف إحدى زواياه معتزلاً الجمهور و قد طال حزنه و بكاؤه و سجوده و ركوعه و

تمدحه نوفلة و صومعة . فقال لخواصه : إن يكُ سر هذا كعلانيته فهو خير الناس . فقال له وزيره : أنا آتيك بسره .

قال يا سيدي ملا أنت ، فسأل الوزير عن ذلك الشاب فقيل له أن اسمه بلال و يقطن في حي كذا شارع كذا دخلة كذا جانب حلويات كذا . قال فأتاه ليلاً و طرق بابه ففتح أخونا بلال الباب ، فقال له الوزير : قد علمتني وزير الملك .. و هو يريدك واليا لولاية فلوريدا ، و قد سألني المشورة ، فما تعطيني إن أنا زكيتك عنده و رشحتك حاكماً للولاية ؟؟ فقال بلال : أعطيك نصف خراجها .. فيفتي فيفتي . فغادره الوزير إلى الملك الذي سأله : هات خبّر .. ما وراءك يا وزير الدولة ؟؟؟ كيفو أخونا بلال ؟؟؟ قال الوزير : والله يا مولاي .. طلع الرجل مفنّش



ـــ يعني إيش مفنش ؟؟؟ (سأل الملك بلهفة)

ـــ يعني يا مولاي خالص كازه .. يعني الكَفَرْ نوكيا فنلندي ، بس الشاسيه تقليد صيني .. ما في ختم (مابكو) . روى الوزير قصة بلال للملك الذي قال : لقد ظننا وعاء بلالا خيراً كله ، فلما سكبناه اتضح أنه خبث كله .

ما أكثر الكفرات الفنلندية التي تغطي الشاسيهات التقليد .

القصة التالية تجسد مقولة أن لا شجرة وصلت لربها و أنه مهما كنت ذكياً فهنالك من هو أذكى منك و لكنه لا يظهر غروره :

كان أحد الرجال مغروراً بفصاحته و بلاغته ، فقيل له : هناك رجل أذكى منك و أفصح في المكان الفلاني . فركب الرجل ناقته و سافر إليه ، و عندما وصل إلى بيته لم يجده ، بل وجد ابنته الصغيرة ، فقال لها " أي بنية .. أين أباك ؟ " . فقالت الصغيرة " فاء إلى الفيفاء و متى فاء الفيئ



فاء .. رو عمو رو ... لك رووو لك عمو ..
احليييييييقق " . فرجع من ساعته إلى دياره لا يلوي
على شيء .

أما العيوب الأخلاقية و ليس الخُلقية فتجسدها القصة
التالية التي يقر فيها أصحابها و يعترفون .. لا بل
يتنافسون بعيوبهم ، مع توفر ميزة الصدق بالكلام
لديهم على عكس غيرهم الذي يحاول إخفاء عيوبه :



قال يا سيدي ملا أنت تنافس
مرة ثلاث رجال على العيوب
، فأخذ كل منهم يعدد عيوبه
و يذكرها ، فقال الأول " أنا
لا يوجد في الدنيا من هو أسوأ
مني ، فإني لم أتمنى قط أن أفعل
خيراً مع أحد " . فقال له
الثاني " و الله إنك رجل فاضل
، فأما أنا فإنني لم أتمنى قط ..
لا أن أفعل خيراً مع أحد ، و
لا أن يفعل أحد خير مع أحد .. كيفني معك ؟؟ " . فنظر إليهما الثالث و قال " بالله .... و تالله
.. لا يوجد في الدنيا من هو أفضل و أشرف منكما ، فأما أنا فإنني لم أتمنى قط .. لا أن أفعل خيراً
مع أحد و لا أن يفعل أحد خير مع أحد و لا أن يفعل أحد بي خيراً .. منيح هيك ؟؟ كيفني
معكم ؟؟ كحّلتك أنت و اياه ما هيك ؟؟ .

حوار مع الكاتب نزار يوسف

لصحيفة تشرين السورية بتاريخ ٢٦ تموز ٢٠١١

يقدم الكاتب و المفكر نزار يوسف مشروعه الثقافي انطلاقاً من إيمانه بضرورة تغيير الأساس الفكري لمنظومة العقل العربي الذي أثبتت التطورات الأخيرة وجود كثير من الأخطاء والنواقص التي شوهته وسحقته تحت مصطلحات كثيرة فعجز عن القيام بدوره الإنساني و الاجتماعي والحضاري والسياسي في هذا الحوار نلقي الضوء على آراء وأفكار الكاتب ورؤيته في تطوير الفكر والثقافة العربية..

١) – كمفكر و باحث و كاتب ، كيف ترى تأثير الثقافة على حركة المجتمع ؟

إن الكلام عن تأثير الثقافة في مجتمع ما ، ليس من السهولة بمكان ، فهو قضية ذات أبعاد كثيرة متشعبة ، تتعلق بتعريف الثقافة كمصطلح و بتوصيفها لجهة النوع و من ثم الكم . و أيضاً بتوصيف المجتمع الموجودة فيه و السمة الفكرية التي تسمه . و عندما أقول الفكرية فأنا هنا أميزها عن الثقافية من منظوري الشخصي . . فمصطلح الثقافة بنظري ، يتبع السمة الفكرية التي تسود نفس المرء و المجتمع و تتسلط عليهما . فأنت ترى إلى مجتمعات متخلفة فكرياً و حضارياً و علمياً ، و تنحدر إلى درجة متردية من العلاقات البشرية و احترام الذات الإنسانية ، و مع ذلك تنتج ثقافة من رحم فكري معين ، لكنها ثقافة بغيضة غير مقبولة أخلاقياً و دينياً . و هي تنظر إلى ما تزعمه من ثقافة ، على أنه قمة الفكر و الثقافة في العالم . و تطبع لأجلها الكتب بعناوين مطبوعة بماء الذهب ، و تسخر لأجلها فضائيات و وسائل إعلام تنحصر مهمتها فقط في نشر تلك الثقافة

. كما أنك تجد نفسك في كم هائل من المطبوعات و الندوات و المحاضرات و المؤتمرات ، لكنه من حيث النوع ، لا يرقى إلى مستوى كلمة (ثقافة) بمعناها الحقيقي العلمي المنطقي العقلاني . إذن .. الثقافة نوع قبل أن تكون كم . و بالتالي فإن تأثيرها على المجتمع أياً كان ، يتعلق أساساً بالسوية الفكرية لهذا المجتمع و نوعيتها ، و يتعلق أساساً بسوية الحراك الثقافي العامل في المجتمع و فاعليته في حال وجود هذا الحراك . لأن التأثير الثقافي حسب ما اتضح لي أخيراً و ما توصلت إليه بعد الأحداث التي تمر بها المنطقة العربية ، موجود في أية ثقافة مهما كان نوعها و صفتها ، و أن الإنسان العربي عموماً يخضع لتأثير ثقافي فكري هائل و ضاغط يتعرض له ، منذ الطفولة و حتى الممات . و قد كتبت في مدونتي الإلكترونية مقال بعنوان (الأنا الخبيثة و الــ نحن الأخبث) يتحدث بوضوح عن هذه النقطة بالذات . كما إن لي كتاب بعنوان (الوصاية الفكرية) يناقش هذه القضية .

لقد أصبح كل ما حولنا و ما نراه و ما نسمعه ، تأثير ثقافي .. حتى الإعلانات التجارية ، أضحت الآن تخفي في طياتها شيئاً من التأثير و التحوير الفكري و الثقافي . فالقضية الآن قضية النوع و الكيف و ليس الكم و الحجم . **أنا توصلت إلى نتيجة أنه يوجد هنالك ما أسميه (ثقافة الجهل) .. هل تعلم أنه يوجد ثقافة للجهل** ؟؟ ألا يوجد ثقافة للقتل ؟؟ ألا يوجد ثقافة للكره ؟؟ ألا يوجد ثقافة للتطرف ؟؟ ألا تشكل كل هذه الجزئيات الثقافية ثقافة الجهل الكلية ؟؟ . و بنظري ، لا يوجد تصرف جماعي ، حتى على مستوى أفراد قلائل مهما كانت سويتهم العلمية ، دونما تأثير فكري إيديولوجي ينبع من ثقافة معينة ، حتى و لو كان الشخص أمياً لا يقرأ و لا يفقه .. التبعية العمياء تنطلق من ثقافة لها حدودها و أطرها و كيانها الفكري المتمثل بعوامل و أسس مادية مخطوطة و مسموعة و مرئية و لها تأثير هائل يصل معه المرء إلى درجة معينة من العمر قد لا ينفع معه وعظ و لا منطق و لا عقل . و لذلك أقول : يجب أولاً تحديد نوع الثقافة ، إذا أردنا مجتمعاً متقدماً مزدهراً يأخذ بتلابيب الحضارة الإنسانية و يتّبع أسبابها ، علينا نشر ثقافة بناءة إنسانية و فكرية عملية . بوضوح و صراحة ، علينا إلغاء ثقافة الطائفية و المذهبية و العشائرية و ثقافة الكراهية و لا أقول إلغاء الطوائف أو المذاهب فهذه حالة تاريخية واقعة و موجودة . الطائفة غير الطائفية و المذهب غير المذهبية . الانتماء لطائفة أو مذهب غير التعصب

لهما و تكفير المختلف عنهما . علينا نشر ثقافة المواطنة في المجتمع و ثقافة الحوار مع الآخر الديني و المذهبي و السياسي و الطبقي . هنالك ثقافة خوف من الحوار مع الآخر ، و هي ثقافة منتشرة عندنا و مؤثرة بشكل كبير . تجلس مع أخ لك في المواطنة السورية من دين أو مذهب مختلف و تحاوره بشكل اعتيادي بسيط و بمجرد أن تبدأ بالاقتراب من التابو المزروع في ذهنه منذ الطفولة ، حتى تجده قد تحفز و اتخذ الوضعية القتالية و قام بزرع الألغام و الأحزمة الناسفة (معنى مجازي) من حوله و تمترس خلف حائط بيتون الخوف المزروع فيه من نقاش و حوار الآخر . و في بعض الأحيان فإنك قد تغامر بفقدان علاقتك معه أو هجرانه لك هجراً جميلاً في أحسن الأحوال . هذا يقودنا إلى التساؤل عمن يتحمل المسؤولية في التأثير الثقافي بالمجتمع . و الجواب مباشرة : هي مسؤولية تكاملية دائرية بدءاً من أصغر وحدة في المجتمع و هو الفرد مروراً بالأسرة و المدرسة و الحي و المدينة و رجال الدين و رجال الأعمال و المؤسسات الاجتماعية و الثقافية و حتى التجارية و غيرها و انتهاء بالدولة نفسها . و أخص هنا بالذكر أكثر شخص يتحمل المسؤولية في ذلك و هو الأم ، نعم الأم لأنها هي التي تربي طفلها و تحدد مساره و ربما مصيره في الحياة كلها عندما يكبر و تزرع فيه إما ثقافة المحبة أو ثقافة الكراهية للآخر ، هي تؤسس طفلها لنوع الثقافة التي ستترسخ في ذهنه فيما بعد و هذا يقودنا إلى وظيفة المرأة و دورها في المجتمع . لقد صدق الشاعر حينما قال :

الأم مدرسة إذا أعددتها   أعددت شعباً طيب الأعراق .

هي عملية معقدة بعض الشيء ، لكنها تسهل جداً إذا تضافر الجميع لتحمل المسؤولية .

٢) – ما هي مهمة المثقف في إعادة صياغة الوعي السياسي و الديني و الثقافي و التربوي السلوكي ؟

عرفياً و أخلاقياً و إنسانياً . هي مهمة كبيرة جليلة و لا شك . فالمثقف بنظري هو العالِم و الفقيه و المدرك و العارف .. سواء بمجال و حقل محددين أم بأكثر من مجال . جاء في لسان العرب :

ثَقِفَ الشيء أي حَذقَه .. و رجل ثَقْفٌ أي حاذِقٌ فَهِم .. و يقال : ثَقِفَ الشيء ، هو سُرعةُ التعلم .. (انتهى) . و الثقافة عند العرب تعني أيضاً التحصيل و تعني تقويم الاعوجاج ، قيل : ثقف الشيء أي قوم اعوجاجه . و ما ينطبق على الثقافة في جواب السوآل الأول ، ينطبق على المثقف في هذا الجواب . لكن من هو المثقف ؟؟ هل هو المثقف الذي يتبع و يمثل إحدى الثقافات السيئة المتخلفة المذكورة آنفاً ، و يتبناها فكراً و مقولة ؟؟ أم هو المثقف المستنير العقلاني المنطقي الذي يسعى لمواكبة و مواءمة الركب الحضاري الإنساني المتقدم للأمام و الذي هو حالة طبعية سليمة محكومة بقوانين التطور الزمني و تحولاته .. الزمن يسير للأمام لا للخلف . و أنا أزعم أنه كما يوجد ثقافة للجهل و القتل و التخلف ، يوجد كذلك مثقف جاهل و قاتل و متخلف أيضاً . و بالإسقاط على كلمة الثقافة كمصطلح و مفهوم ، أقول إن كلمة المثقف كمصطلح و مفهوم ، قد أصبحت الآن كلمة فضفاضة واسعة الطيف قد لا يتسع المجال الآن لمناقشة توصيفها و دلالاتها و لكن أقول .. إن المثقف الحقيقي صاحب التعريف الأساس لكلمة مثقف (إذا جازت التسمية) هو المتحرر ثقافياً - انتبه ثقافياً - من أي قيد طائفي أو مذهبي أو عشائري أو عرقي . و كما يوجد في الفقه و الأعراف الدينية ما يسمى بالعلماء و علماء السوء ، كذلك هنالك مثقفين و مثقفين سوء . المثقف أو العالم أو المفكر أو الفقيه قد ينتمي لطائفة أو مذهب ديني أو سياسي و يؤمن بهما . لكن خطابه الفكري و ثقافته لا ينتميان إلى ما سبق ، و في أحسن الأحوال لا يتعصبان لهما ، و هو إن حقق هذين الشرطين ، شرط التحصل على ثقافة و علم و إدراك ، و شرط التحرر الفكري من أية تبعية عمياء ، أصبح صالحاً للقيام بدوره في المجتمع بمختلف شرائحه و فئاته و أطيافه الدينية و السياسية ، و أي إخلال بأحد هذين الشرطين يصبح المثقف أو الفقيه غير قادر سوى على مخاطبة شريحة ضيقة محدودة من المجتمع ، و إذ ذاك نكون أمام حالة تبشير و تسييس لا علاقة لها لا بالثقافة و لا بالفكر ، بل بالمذهب و الحزب .

المثقف الأصيل صاحب المعنى الحقيقي لكلمة (مثقف) هو الإنسان الذي يمتلك ناصية العلم لأن ثقافته قد قيضته له .. يمتلك ناصية الأخلاق و الأدب لأن ثقافته الحقيقية تلزمه إياها و تمنعه من الجنوح خارج الطريق .. يمتلك حس المسؤولية تجاه نفسه أولاً ثم أسرته و بعدها مجتمعه و موقعه

الاجتماعي أو منصبه الحكومي إذا كان له منصب حكومي ، لأن ثقافته الحقيقية نوعاً و كماً ، تتحول إلى ضمير خفي يستثير حس المسؤولية لديه .

عود على ذي بدء أقول .. إن مهمة المثقف ، ينطبق عليها الحديث النبوي الشريف : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه و هذا أضعف الإيمان (انتهى) .

و المنكر هنا بنظري هو حالة الجهل و السلبيات المتفرعة عنها من كراهية و قتل و أذى و تناحر . فالمثقف الذي يغير بيده ، هو حتماً المثقف الموجود في موقع سلطوي تنفيذي ، سواء أكان حكومي أم ديني أم اجتماعي أو أي موقع يتيح له فرض إرادته على الأفراد ، و هذا المثقف برأيي يشكل نسبة ضئيلة جداً و من هذه النسبة الضئيلة تخرج أيضاً نسبة ضئيلة ممن يتحملون المسؤولية التثقيفية تجاه المجتمع . هنا يقع العاتق على الدولة في انتقاء المثقف صاحب الضمير و المسؤولية و وضعه في الموقع الذي يخوله القيام بواجباته تجاه وطنه على مبدأ (الرجل المناسب في المكان المناسب) و ليس ما نراه الآن .. المثقف الغير مناسب في المكان المناسب . الحالة الثانية هي حالة المثقف الذي يغير بلسانه و هي مسؤولية كل مثقف في المجتمع و هنا أطالب المثقف أن يترل إلى الشارع و يخاطب الناس تحت أية مناسبة و ظرف و يشجعهم على التحصل الثقافي كالقراءة مثلاً ، و أن يتواضع ثقافياً للكم الهائل من مجتمعه الذي قد لا يدرك عقلياً و ذهنياً أبعاد بعض مصطلحات الأبراج العاجية التي ترد على لسان معظم مثقفينا للتباهي بأهم وصلوا إلى مرتبة رفيعة من العلم و الفهم بينما هي بالنسبة للسواد الأعظم ربما من الجمهور ، عبارة عن طلاسم و أحجيات مثل (صيرورة – جدلية – تماهي – إشكالية – جزئية ... الخ) فبكل بساطة يعزف هؤلاء عن سماع شيء لا يفقهونه و يتجهون إلى من يخاطبهم بلغتهم و خطاهم و عقليتهم و يسلسون له قيادهم و يسلمونه أزّمتهم (عقالهم) فيقودهم هذا الشخص إلى الذي نراه الآن أمامنا من أحداث و تخريب و فكر منحرف في سورية . هنا أنا أحمل المثقف السوري جزء كبير من المسؤولية كونه تعالى و ترفع عن مخاطبة قواعد المجتمع البسيطة الذي تلقف الغير بعضها و أدارها ضد مجتمعها و دولتها . آن الأوان للأنتلجنسيا السورية أن تترل من الأبراج العاجية الفكرية و الوهمية أحياناً و تتجه إلى قواعد المجتمع السوري . لا بد للمثقف من التواضع

الأخلاقي و الفكري للسوية الفكرية للآخر . و بصراحة شديدة و من وجهة نظري أقول لك : الفكر سلعة شأنه شأن أية سلعة أخرى . و حتى تقوم بتسويقها فأنت بحاجة لدراسة فكر المستهلك و الترويج لها في عقله ، تماماً كما تفعل الشركات التجارية . و أنا أرى أنه ما ركب السفهاء المعاصي إلا لأن الحكماء تركوا التناهي . في هذا الصدد أنا قد لا أتفق تماماً مع الإعلام السوري بجعل اللغة الفصحى أداة حصرية للكلام و بالذات في البرامج التي تهتم بإيصال أفكار معينة لعموم الجمهور و بالذات في ما يحصل الآن . إذا كنت أريد إيصال فكرة أو رأي إلى شخص بسيط قد لا يأنس رشداً أو فهماً بالفصحى ، و يهمني إقناعه ، فلتكن اللغة العامية و لو بشكل مؤقت ، أو على الأقل يكون هنالك تمازج ما بين الاثنتين . و أنوه هنا إلى قضية هامة جداً و هي أن الشهادة الجامعية أو الأكاديمية ليس بالضرورة مطلقاً أن تكون دلالة للثقافة و الفكر أو الوعي . و العكس صحيح فليس كل من حاز موهبة الإبداع و العبقرية و المستوى الفكري المتميز ، أن يكون من أصحاب الشهادات العلمية و المنابر الرسمية .

٣) – المثقف و المواطنة كيف نرفع من سوية وعي الفرد تجاه وطنه ؟

الوطن هو حالة طبعية بدهية لدى الإنسان منذ تاريخ البشرية و إلى الآن . هو الوعي الأول للإنسان البدائي الذي شعر بالمكان الذي يعيش فيه و أدركه في عقله عندما كان في حالة الهمجية البدائية و قبل أن يشكل أية حضارة بشرية ، لا بل حتى قبل أن يشكل الجماعة ذاتها . فيكفي لمفهوم الوطن ، وجود إنسان فرد يعيش في جزيرة نائية بعرض البحر تشكل في وعيه و وجدانه وطن له . الوطن موجود في وعي الطفل الرضيع الذي يعتبر حضن أمه و سريره موطن له .
الوطن من الموطن ، و الموطن هو المكان و الحيز الجغرافي للكائن الحي ، فحتى الحيوانات لها وطن أو موطن تعيش فيه و تدرك أبعاده جيداً و تدافع عنه بشراسة ضد أي غاز محتل لأرضها ، و تقوم بتعليم حدوده وفقاً لتضاريس جغرافية معينة و دلالات طبوغرافية تضع عليها علامات عضوية تكون بمثابة إنذار للغرباء و تحذيرهم من مغبة الاقتراب منها و تجاوزها . المواطنة هي العامل

الأساس و الفيصل الذي قامت و لا زالت تقوم عليه دول الغرب المتحضرة المتقدمة علمياً و تقنياً و فكرياً . هذه الدول التي تجاوزت الطائفية و المذهبية و العرقية منذ الثلاث قرون من الزمن بالرغم من كثرة التعددية فيها بهذه المفاهيم الثلاث السابقة ، و قد لفظتها جميعاً و أبقت فقط على مفهوم المواطنة و اعتمدت عليه كأساس لبقائها و استقرارها و تقدمها . خذ مثال على ذلك ، وعد بلفور الذي قامت عليه دولة إسرائيل و أنشأت بموجبه كيانها في المنطقة العربية بالرغم من تأصل العامل الديني في الفكر اليهودي عالمياً و عبر التاريخ ، جاء نصه على إقامة (وطن قومي لليهود) و لم يقل (ديني) و لم يقل (دولة أو مملكة دينية) بل (وطن قومي) لاحظ دقة العبارة و اختلافها و تناقضها مع الفكر اليهودي السالف الذي كان عبر التاريخ يركز على ما يسمى (مملكة إسرائيل الدينية) و يهوديتها ، فهل كانت هذه العبارة (وطن قومي لليهود) خطأ تاريخياً أو سهواً وقع فيه هؤلاء ؟؟!! قطعاً لا .

باختصار شديد .. أهم ما يجب القيام به لرفع سوية الوعي الوطني و حس المواطنة لدى الإنسان السوري ، هو إلغاء الفكر المضاد لمفهوم الوطن و المواطنة ، و إحلال فكر وطني بديلاً عنه يستمد قوته و مصداقيته من الدين و علم الاجتماع و يكون مدعوماً من المؤسسات و الهيئات الدينية و الاجتماعية في سورية كافة . و هذا أول واجب للمثقف لأنه من المفترض أن تكون ثقافته قد أنارت له مفهوم و معنى كلمة (الوطن) و درجة المسؤولية تجاهه اللهم إلا إذا كان دعياً متطفلاً على الثقافة و الفكر . أنا شخصياً استغل أية مناسبة مهما كانت و أية حادثة أو ظرف .. وفاة أم زواج أم حفل . عند بائع الخضار و عند بائع الفول و الحمص أو في الزيارات لأطرح قضية الوطن و الوعي و ضرورة التثقيف و آثار الطائفية و المذهبية على المجتمع . في مناسبات العزاء أو الأعراس أطرح هكذا قضايا ، و ما يدهشني أنني ألقى آذاناً صاغية و انتباه الحضور في معظم الأحيان ، و هذا يقود إلى نتيجة هامة جداً يبدو أن هنالك من هو غير مدرك لها أو لا يلقي لها بالاً ، ألا و هي أن المجتمع متعطش للفكر متعطش لسماع أي شيء يثير لديه حس المعلومة ، متعطش لشيء فقده طويلاً . لذلك ، وجب لزاماً على المثقف الحقيقي الذي يمثل جميع أطياف النخب الفكرية في المجتمع من رجل الدين إلى الكاتب و الباحث الاجتماعي و السياسي أن يسعى جاهداً لإزالة ثقافة كره الوطن و تكفير الوطنية ، لأن هذه الثقافة للأسف موجودة و لها تأثيرها و

حضورها . يجب إحلال ثقافة حب الوطن و المواطنة بدلاً منها ، ألم يقل الرسول (ص) : حب الوطن من الإيمان .

٤) - ماذا يطلب المثقف من القيادة في سورية ؟ ما هي مطالب المثقفين ؟ .

المثقف بكل بساطة هو أداة فعالة بحاجة فقط إلى من يقوم بتفعيلها . و المثقف الحقيقي الوطني ، هو مخزون استراتيجي للبلد و الدولة ، قد يكون أمضى من أي سلاح آخر ، و أداة هامة ليس فقط لأجل توعية المجتمع و الرقي به ، بل للدفاع عن الوطن و الذوذ عنه ضد أية هجمات فكرية أو تضليل إعلامي أو فكري و رفع المناعة الفكرة و الثقافية لأفراد المجتمع . قديماً عندما علم إمبراطور الصين بهجوم مغولي وشيك على إمبراطوريته ، كان أول ما فعله هو نقل الحكماء و المثقفين (إذا جازت التسمية) مع كتبهم و مؤلفاهم إلى أقصى الشمال الصيني كي يكونوا بمنأى عن الخطر المغولي الذي عندما اتجه فيما بعد إلى المنطقة العربية و عاصمة الخلافة العباسية ، كان أول ضحاياه الذين صادفهم ، طبقة الكتاب و المثقفين و المفكرين و كتبهم و مخطوطاهم ، فأعمل بهم تصفية و تقتيلاً ، و بمؤلفاهم حرقاً و تمزيقاً ، فكانت هذه العملية إيذاناً ببدء الهيار الحضارة العربية .

المطلوب بكل بساطة و عملاً بمبدأ (الرجل المناسب في المكان المناسب) أن يعطى المثقف الحقيقي الشريف ، الدور الحقيقي و الموقع الصحيح و المكان السليم له في المجتمع و في الإعلام و حتى الدولة . أرجو الاهتمام أكثر بالمثقف السوري حصراً ، والتطلع إلى حوائجه المادية و المعنوية و الاهتمام به إعلامياً و تحديث المؤسسات الثقافية و إعادة هيكلتها و منهجيتها في دعم الكتاب و المفكرين . و أود القول هنا أنه في غمرة الأحداث الأليمة الحاصلة في سورية و الهجمة الشرسة المنظمة التي تتعرض لها على مستوى عالمي عال ، راسلت الفضائيات السورية و طلبت أن يتم استضافتنا كمثقفين و كتاب للدفاع عن بلدنا سورية ، فهذا واجب و حق و فرض عين علينا و

لكن للأسف الشديد لم ألق جواباً . و بعدها أدرجت مقالاً على الأنترنت بعنوان (الإعلام السوري باب موصد في وجه المثقفين السوريين) .

هنالك تقصير إعلامي واضح جداً اتجاه المثقف السوري الحقيقي . المثقف الحقيقي هو إنسان ذو مرتبة عالية سامية ، و لكن للأسف هنالك تهميش واضح بحقه و لا أدري إذا كان مقصوداً ، إلى درجة تجعلني أطلب الأذن من الشاعر العربي (ابن الأحنف العباسي) باستعارة بيتين من قصيدة له و استبدال كلمة لأقول :

يمشي المثقف و كل شيء ضده   و الناس تغلق دونه أبوابها
و تراه مبغوضاً و ليس بمذنب   يرى العداوة لا يرى أسبابها .

٥) – لديك كتب هامة هي (الزمن العربي الرديء) – (الحكمة بين الإله و السلطان) و آخرها كتاب (الوصاية الفكرية) هلا حدثتنا عنها ؟ .

كتاب الوصاية الفكرية و حسب ما اتضح لي حتى الآن ، أنه أول كتاب من نوعه ربما (أقول ربما) حتى الآن يناقش هذه القضية . ففي بدايات تأليفه ، حاولت البحث عن كتب أخرى مشابهة له تتحدث عن هذا الموضوع ، للاستفادة منها و لو لجهة التوثيق ، فلم أفلح .. بحثت في الإنترنت و سألت المختصين و بعض الذين لهم اطلاع في مجال المخطوطات و الكتب ، حتى الأجنبية منها ، فلم أجد شيئاً من هذا القبيل ، الجميع أخبرني أنه لم يسمع من قبل أو يعرف بوجود مثل هكذا كتاب . و لذلك كان كتاب (الوصاية الفكرية) تجربة عسيرة شاقة نوعاً ما. لأول وهلة لم أكن أعرف من أين و كيف أبدأ و كيف سيكون منهج الكتاب و سيره ، مقدمة و متناً و نهاية . لكن الأفكار كانت جاهزة و موجودة لدي ، و بحمد الله فقد كان كتاباً ناجحاً لدرجة أن أول ما طبع منه ، نفذ على الفور ، فاضطررت بعدها لنشره على الإنترنت . و قد فوجئت بعد ذلك بتلقف مواقع الكترونية كثيرة لهذا الكتاب و نشره (مشكورة) لديها .

الكتاب يناقش فكرة و مفهوم الوصاية الفكرية و يتعرض للجانب السلبي منها و أثره السيئ و التدميري في عقلية و ذهنية الإنسان ، و آثار و نتائج ذلك على المجتمع و الدولة . و لعل ما يحصل الآن في المنطقة العربية و بالذات سورية ، أحد الأسباب القوية المتصلة بذلك و يتطرق بصورة رئيسة إلى أنواع ثلاث من الوصاية الفكرية هي الوصاية الفكرية الاجتماعية و الوصاية الفكرية الدينية و الوصاية الفكرية السياسية . و من ضمن عناوين فصول الكتاب التي قد تعطيك فكرة أوضح عنه هي : الوصاية الفكرية و المخلفات الإيديولوجية – المعيار العاطفي في الوصاية الفكرية – تطور مفاهيم الوصاية مع تطور النظام الاجتماعي – سبل الوصاية الفكرية إلى ذهن الأفراد – آليات و نظم الوصاية الفكرية – أسس ومقومات الوصاية الفكرية . في الواقع لقد طرحت أيضاً في الكتاب فكرة أن الوصاية الفكرية ليست بالضرورة أن تكون سلبية دائماً و بالمطلق ، فهي شأنها شأن أي مصطلح و مفهوم ، سلاح ذو حدين تحتمل الوجهين ، السلبي و الإيجابي . إن الوصاية الفكرية تحدد عقلية و ذهنية الشخص الخاضع لها ، و سيره في الحياة و نظرته إلى المجتمع و الأشخاص المحيطين به و إلى الآخر بالمجمل ، و الوصاية الفكرية لا علاقة لها بدرجة التحصيل العلمي للشخص ، بل بمستوى الوعي العقلاني و الفكري و درجة تأثيرها فيه ، فهنالك أشخاص يتحصلون على أعلى الدرجات و الشهادات العلمية أو الدينية ، و عندما تتحاور معهم أو يدور نقاش بينك و بينهم ، تفاجأ أن درجة و مستوى وعيهم و تفكيرهم لا يتجاوزان مستوى تفكير غلام صغير لم يبلغ الحلم . و هنا مكمن الخطورة و مكمن ما يحدث الآن . و في حديث للرسول (ص) : أخوف ما أخاف على أمتي ، علماء السوء . و في مقولة للإمام علي بن أبي طالب : ما قصم ظهري إلا رجلان عالم متهتك و جاهل متنسك ، ذاك يصد عن علمه بهتكه و ذلك يدعو إلى جهله بنسكه .

بالنسبة لكتابي الحكمة بين الإله و السلطان ، فهو كتاب يقع في خمسمائة صفحة و يناقش بالدرجة الأولى و بشكل تخصصي ، علاقة الأمر السياسي بالأمر الديني . و هو يناقش هذه القضية منذ فترة الإنسان القديم مروراً بالحضارات البشرية القديمة كحضارة بلاد ما بين النهرين و مصر القديمة و بلاد اليونان و العصر الهلنستي ، متطرقاً إلى الديانات و الكيانات السياسية الناشئة من رحم هذه الحضارات القديمة ، ثم يصل إلى الأديان السماوية الثلاث اليهودية و

المسيحية و الإسلام و يناقش هذه العلاقة ، علاقة الأمر السياسي بالأمر الديني في كل ديانة على حدة . و قد راعيت و اخترت أن أناقش كل ديانة من منظورها هي لنفسها و منظور الخطاب الديني المختص بها ، و ليس من منظور جهة أخرى ، توخياً للموضوعية البحثية . أما كتاب الزمن العربي الرديء ، فيتمحور موضوعه حول السلبيات و الأخطاء و عوامل الانحطاط منذ عصر الجاهلية و إلى العصر الحالي و التي أودت بالعرب إلى ما هم عليه الآن .

٦) – لك مدونة باسم (مدونة الكاتب نزار يوسف) ما هو تأثير ظاهرة المدونات في عملية الحراك الثقافي و الاجتماعي .

ظاهرة المدونات التي نشأت حديثاً ، هي حالة إيجابية جداً كونها تتيح للشخص التعبير عن أفكاره و آرائه الخاصة به . و هي أساساً أنشأت لهذا الغرض لمن لا يستطيع أن يجد له منبراً يعبر فيه عن نفسه و آراؤه . ثم أضحت فيما منبراً بعد لكل من يريد الكتابة .

و الحقيقة أنني كنت قد كرست جل اهتمامي لتأليف الكتب و كنت منصرفاً لهذا المجال و لم أشعر أن مكاني في المدونات أو اهتمامي منصرفاً إليها . إلى أن وصلتني ذات يوم رسالة الكترونية من شخص مجهول ، جاء فيها ما يلي : دعوة للكتاب و المثقفين العرب للتحرك دفاعاً عن حقوقهم في مواجهة عملية الإفقار المتعمد المخطط للمثقفين ليتحركوا قبل أن تختفي كلمة مثقف من القاموس العربي (انتهى) . لقد هزت هذه الرسالة كياني . و أحسست يومها أن هذا الشخص المجهول قد اختارني لأكون من ضمن هؤلاء ، و يريدني أن أنشأ مدونة و أكتب في هذا المجال ، فلبيت النداء و سجلت مدونتي في الموقع الذي جاءت منه الرسالة ، و نشرت فيها أول مقالة لي ، و كنت قد قررت أن أركز على الأمر الاجتماعي و الثقافي و الفكري أكثر من الأمر السياسي لأنه بنظري أكثر خطورة و أهمية . و قررت أن أكون بمستوى المسؤولية الذاتية أمام نفسي . و لذلك اعتمدت الجرأة و الصراحة و التغيير الجذري و التصدي لأمور و مفاهيم إما بالية فاسدة أو مستحدثة مشبوهة . و الحمد لله فقد لاقت أفكاري قبولاً كبيراً لدى شرائح واسعة من القراء و الناس و بدأت مواقع إنترنت كثيرة تقوم بنشرها لقرائها و قد اقترح علي البعض جمع هذه المقالات ، كلها أو قسم منها و نشرها في كتاب نظراً لأهميتها . أذكر مرة أنني دخلت في دمشق

إلى سوبرماركت كبير ، و بعد شراء غرضي توجهت إلى محاسب الصندوق و كان بجانبه شخصين أحدهما بيده أوراق فوتوكوبي يتناقش فيها مع محاسب الصندوق و الشخص الثالث ، و قد فوجئت أن النقاش هو حول مقال لي بعنوان (الكيمياء الذهنية و التوجيه الإعلامي) كان مطبوع على هذه الأوراق .

بناءً على تلك الحادثتين ، أقول باختصار : إن تأثير المدونات في عملية الحراك الثقافي ، تبقى حتى الآن محصورة بالإنترنت ما لم يتم تداولها شفاهة أو تلقى دعماً إعلامياً ، و هذا ما أدعو الإعلام إليه .

حاوره أسامة معلا .